الصحوة الإسلامية
من المراهقة إلى الرشد



د. يوسف القرضاوى

دار الشروق

الصحوة الإسلامية
من المراهقة إلى الرشد

الطبعـــة الأولـــــى
١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية ـ مدينة نصر ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

د.يوسف القرضاوى

الصحوة الإسلامية
من المراهقة إلى الرشد

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وأزكى صلوات الله وتسليماته على معلم الناس الخير، وهادي البشرية إلى الرشد، ورحمة الله للعالمين، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

(أما بعد)

فمن فضل الله علينا ـ نحن المسلمين ـ أن أكرمنا بهذا الدين العظيم، الذي أكمله لنا، وأتم به علينا النعمة، وجعله لنا هدى وشفاء ورحمة، وامتن به علينا، فقال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣.

وقد ختم الله تعالى برسالة محمد رسالات السماء جميعا، فهو خاتم الرسل والنبيين، وقرآنه خاتمة الكتب المنزلة من عند الله، وشريعته آخر الشرائع، كما أن أمته آخر الأمم التي حمَّلها الله تعالى رسالة للناس.

ولا غرو أن أودع في رسالة الإسلام عناصر الخلود والبقاء، كما أودع في أمته عوامل الخلود والبقاء إلى يوم القيامة.

ومن هذه العوامل أو العناصر: أن الله سبحانه قضى ـ كما أخبرنا رسوله ـ أن هذه الأمة باقية إلى يوم الدين، وأن أعداءها لا يسلطون عليها بحيث يستأصلون شأفتها.

ومن ذلك: أنها لا تجتمع على ضلالة أبدا، فلا يزال فيها من ينصر الحق، ومن يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ الأنعام: ٨٩.

وقال عز وجل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ الأعراف: ١٨١.

وجاء عنه ﷺ جملة أحاديث مستفيضة عن عدد من الصحابة، تبشِّر بأنه لا يزال في هذه الأمة طائفة قائمة على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

كما ثبت في الحديث: «أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها»، وقد أثبتُّ في دراسة لنا: أن هذا المجدد قد يكون فردا، وقد يكون جماعة، أو مدرسة، أو حركة، أو مجموعة حركات تقوم برسالة التجديد.

ولقد دلتنا قراءة تاريخ الأمة الممتد، واستقراء واقعها الماثل للأعين: أن هذه الأمة يمكن أن تنام أو تُنوَّم، فترات تقصر أو تطول، ولكنها لا تموت أبدا، بل تظل عروقها تنبض بالحياة.

ولا يرتاب دارس متعمق أن في كيان هذه الأمة المعنوي عوامل ذاتية، خليقة بأن تبعثها من همود، وأن توقظها من رقود، وأن تحركها من جمود.

وحسبها أن الله تعالى تكفل بحفظ مصادرها الأصلية من الضياع أو النسيان أو التحريف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩.

والذكر هو القرآن، وقد حفظه الله تعالى أكثر من أربعة عشر قرنا، فلازال كما أنزل، بألفاظه وحروفه، محفوظا في الصدور، مكتوبا في السطور، متلوا بالألسنة، مقروءا كما كان منذ عهد النبوة بغَنِّه ومَدِّه.

وحفظ القرآن - كما قال الإمام الشاطبي - يستلزم حفظ السنَّة معه، لأنها بيان له، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ النحل: ٤٤، وحفظ المبيَّن يقتضي حفظ بيانه، حتى لا يبقى بلا بيان.

وكثيرا ما تمر على هذه الأمة فترات حالكة، يظن الناس فيها الظنون، ويبتلى المؤمنون، ويزلزلون زلزالا شديدا، ويحسب من يحسب أن شمس الإسلام قد

غربت إلى الأبد، وأن جذوة أمته قد أطفئت فلن تشتعل أبدا. وسرعان ما يرون الأحداث تكذب ظنونهم، وتخيب فألهم، وإذا بالسقيم يشفى، والهامد يتحرك، والمارد يخرج من قمقمه، ويرى الناس منه الأعاجيب.

وأجلى ما يكون ذلك حين تشتد بالأمة الأزمات، وتحيط بها الشدائد والنكبات، وتنزل بها البلايا والكربات، ويتربص بها أعداؤها من كل مكان، وقد يهاجمونها في عقر دارها، وربما انتصروا عليها وكسبوا المعركة ضدها في أول الأمر، ثم ما أسرع ما تفجِّر الأزمات طاقات الأمة، وتستخرج مكنون قواها، وتستثير دفائنها، فتنهض من عثرتها، وتتجمع من فرقتها، وتهب من نومها، ويرى أعداؤها منها ما كانوا يكرهون أو يخافون **﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾** الروم: ٦ .

رأينا ذلك في حروب الفرنجة الذين قدموا من الغرب، والتي سماها الغرب (الحروب الصليبية). وشهدنا ذلك في حروب التتار الذين زحفوا من الشرق، وقد انتصر كلاهما في أول الأمر نصرا ظنوا معه أن بساط الإسلام قد طوي، وأن الأمر قد استتب لهم إلى الأبد.

ثم انتصرت الأمة على الصليبيين فردتهم مدحورين، ثم انتصرت على التتار مرتين: عسكريا في معركة (عين جالوت) الحاسمة، ومعنويا بدخولهم مختارين في الإسلام.

وفي عصرنا احتل الاستعمار الغربي بفروعه المختلفة ديار المسلمين، وحكمها عقودا طالت في بعضها إلى قرن وثلث قرن من الزمان، كما في الجزائر، ثم ثارت القوى الكامنة في الأمة، فطردت الاستعمار وتحررت من نيره.

وبعد ذلك دخلت الأمة معركة (العودة إلى الذات) بعد أن اكتشفت نفسها، وعرفت أنها لا شرقية ولا غربية، بل ربانية قرآنية إسلامية **﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾** النور: ٣٥ .

وجرت بينها وبين دعاة التغريب أو عبيد الفكر الغربي، من عبيد اليمين وعبيد اليسار، معارك شتى فكرية وسياسية، وكان التغريبيون مسنودين بالقوى المعادية من

الخارج، ممن يعادون الإسلام جهلا أو حقدا، أو خوفا أو طمعا، والقوى المستبدة من الداخل، ممن يعملون لحساب الخارج، أو يجهلون حقائق الإسلام، أو يخافون منه أن يحرمهم من امتيازاتهم المحرَّمة، أو يحرم عليهم شهواتهم المحظورة، فقالوا كما قال قوم لوط من قبل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ النمل: ٥٦ .

ولكن من فضل الله تعالى: أن هيأ للأمة رجالا وجماعات من أهل الإصلاح والتجديد حاولوا أن يجددوا لهذه الأمة دينها، وأن يحيوا يقينها، وأن يهدوها بكتاب ربها للتي هي أقوم.

وبعد معارك خاضوها، ومحن اجتازوها، وتضحيات قدموها، لم يضيع الله تعالى جهادهم ولا جهدهم، فإنه سبحانه لا يضيع عمل المحسنين، كما لا يصلح عمل المفسدين.

فكان من ثمار هذه الجهود: هذه الصحوة المباركة، التي عم نورها المشرق والمغرب، وهبَّت نفحاتها في الشمال والجنوب، داخل العالم الإسلامي وخارجه، وشملت المدن والقرى، وضمت الرجال والنساء، وكان عمودها الفقري هم الشباب، ولا سيما الشباب المتعلم في الجامعات والمعاهد والمدارس.

وقد رأيناها صحوة شاملة جامعة: صحوة عقول وأفكار، وصحوة قلوب ومشاعر، وصحوة إرادات وعزائم، وصحوة عمل وسلوك، وصحوة توعية ودعوة، وصحوة جهاد وغيرة.

ولقد شملت كل الميادين: التربوية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وحتى العسكرية، فقد رأينا أثرها في فلسطين وفي أفغانستان وفي كشمير، وفي البوسنة والهرسك وكوسوفا والشيشان والفلبين وغيرها.

ولقد كان من آثار هذه الصحوة امتلاء المساجد بالمصلين، وامتلاء المواسم بالحجاج والمعتمرين، وغدا جُلّ هؤلاء وأولئك من الشبان والشابات، وعاد حجاب المرأة المسلمة طواعية إلى الظهور.

ولكن شابَ هذه الصحوة بعض الشوائب، التي كدَّرت صفاءها، وشوَّشت عليها، وغبشت حقيقة جوهرها، وأساءت إلى سمعتها، مما اعتبرناه (أمراضا لهذه الصحوة) يجب أن تعالج ولا تترك، وأن تقوَّم ولا تهمل.

تجلى ذلك في مظاهر من الغلو والتطرف، ومن الاستعجال والانفعال، ومن الاشتغال بالشكل أكثر من الاشتغال بالجوهر، وبالمراء والجدل أكثر من العطاء والعمل، وبرز في بعض فصائلها ميل إلى التعصب والانغلاق، وإلى الجمود والتقليد، وإلى التعسير والتنفير، وإلى العاطفية والغوغائية، وإلى العناية بالفروع الجزئية بدل الأصول الكلية، وإلى الركون إلى العنف والنقمة، بدل الرفق والرحمة.

فكان على العلماء والدعاة والمفكرين والمربين: أن يبذلوا جهدهم لترشيد هذه الصحوة وتسديدها، والأخذ بيدها، حتى تستكمل مسيرتها، وتحقق غايتها، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وهذا ما شغلتُ به منذ نحو ثلث قرن، وأصدرتُ فيه عدة كتب تحمل عنوان الصحوة في بعض الأحيان، مثل: (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) و(الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي) و(الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم) و(من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا). وبعضها لا يحمل عنوان الصحوة مثل: (الحل الإسلامي فريضة وضرورة) و(أين الخلل؟) و(جيل النصر المنشود) و(أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة) و(في فقه الأولويات) وسلسلة (نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام) وقد صدر منها خمسة أجزاء.

ثم هاأنذا أضيف إلى هذا الجهد: هذا الكتاب الذي سميته (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد) راجيا أن يوفقني الله تبارك وتعالى لأسُدَّ به ثُغْرة، وأقوِّم به عوجا، وأحقِّق به هدفا، أعلِّم به جاهلا، أو أنبِّه به غافلا، أو أذكِّر به ناسيا، أو أشُدَ بهَ عزم متردد، أو أقوِّي به إرادة ضعيف، ولا أقول إلا ما قال نبي الله شعيب من قبل: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ هود: ٨٨.

الدوحة في ذي القعدة ١٤٢٢م — الفقير إلى عفو ربه

يناير ٢٠٠٢م — **يوسف القرضاوي**

تمهيد

خصائص مرحلة المراهقة:

المراهقة مرحلة يمرّ بها الإنسان الفرد في طريقه إلى الرجولة والرشد، وهي تتميز بعدة سمات:

١ـ القوة والنمو المتصاعد.

٢ـ الحيوية والنشاط الزائد.

٣ـ الأحلام الوردية والأماني العريضة، والإغراق في الخيال.

٤ ـ تأجج العاطفة، وغلبة الحماس والانفعال.

٥ـ الاستعجال وقلة الصبر، والاندفاع الثوري إلى حد الطيش أحيانا.

٦ـ الرغبة في إثبات الذات، ولو بالتمرد على من لهم حق الطاعة كالآباء والأمهات والمعلّمين.

٧ـ الإعجاب بالبطولات والمثاليات، ومحاولة تقليدها.

٨ ـ المبالغة والتطرف في تقدير الأمور، بالتهويل حينا، والتهوين حينا آخر.

وهذه السمات ليست شراً في ذاتها، ولكنها إذا لم تضبط قد تؤدي إلى شر على أصحابها، وعلى غيرهم أيضا.

ومرحلة الرشد تشترك مع المراهقة في استمرار القوة والنمو، واستمرار الحيوية والنشاط.

ولكنها تتميز عنها بأنها أكثر قابلية لتغليب العقل على العاطفة، والحكمة على القوة، والهدوء على الثورة، والأناة على العجلة، والواقع على المثال، والتفاهم على التمرد، والاعتدال على التطرف، والتسامح على التعصب، والجوهر على الشكل، والعمل على الجدل، والتعاون على التشاحن، والرفق على العنف، ورعاية السنن في الخلق وفي المجتمع، بدل الإغراق في الخيال، إلى حد طلب المحال.

الجماعات تمر بالمراهقة أيضا:

والجماعات والحركات البشرية كثيرا ما يعرض لها في مراحل نموها، ما يعرض للأفراد من طفولة ومراهقة ورشد وكهولة.

والصحوة الإسلامية المعاصرة: مرت بها فترة أشبه بفترة المراهقة، وهي تحاول الآن - أو ينبغي أن تحاول - أن تجتاز مرحلة المراهقة بسماتها وخصائصها، لتدخل في مرحلة جديدة، هي مرحلة الرشد والنضج بسماتها وخصائصها كذلك.

وينبغي على أهل العلم والفكر من المسلمين الذين رزقهم الله الرشد والاستقامة في التصور والسلوك، أن يقوموا بواجبهم في ترشيد هذه الصحوة، وتسديد خطاها، عملا بفريضة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة في الدين، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

اهتمامي بترشيد الصحوة:

ومنذ أوائل العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري - السبعينيات من القرن العشرين الميلادي - وأنا مشغول الفكر والقلب بالصحوة الإسلامية، وبخاصة صحوة الشباب، الذي هو العمود الفِقري للصحوة.

ولا عجب أن غدت هذه الصحوة أول همومي وأولاها. وما أكثر هموم العالم المسلم، والداعية المسلم، والمفكر المسلم، في الزمن الذي نعيش فيه.

ولكن الصحوة تأخذ المكان الأول، وتحتل الحيز الأوسع، بما لها من أهمية بالغة في حاضر الأمة ومستقبلها.

لهذا كان من الضروري تقويتها أبدا حتى لا تضعف، وتوعيتها دائما حتى لا تستغل، وترشيدها باستمرار حتى لا تنحرف، وتنبيهها على المهاوي والحفر في الطريق حتى لا تسقط، وإضاءة الإشارات الحُمْر عند المخاطر ومفارق الطرق حتى لا تَصْدِم أو تُصْدَم، فتحطِّم أو تتحطم. ودفعها إلى السير قدما إلى الغاية المنشودة. فلا تنقَطع في منتصف الطريق، ولا ترتد القهقرى، ولا تميل عن الخط المستقيم إلى اليمين أو اليسار.

وهذا هو دوري ودور أهل العلم والفكر عموما: أن يسهموا بإخلاص في (ترشيد) هذه الصحوة، وبعبارة أوضح: في نقلها من عاطفية المراهقة إلى عقلانية الرشد: قياما بواجب النصيحة، التي هي رأس الدين.

وكنت منذ سنوات في ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر، بجمهورية الجزائر الشقيقة سنة ١٩٨٤م ـ وكان موضوع الملتقى هو الصحوة الإسلامية ـ: قد أشرت إلى عدة نقاط ـ بلغت العشرين ـ لترشيد الصحوة، ذكرتها في دراسة لي بعنوان (أين الخلل؟) والتي اعتبرها المشاركون في المؤتمر: بمثابة برنامج مستقبلي، أو ورقة عمل للصحوة المنشودة.

واليوم أحاول أن أدمج هذه النقاط، أو الخطوط العشرين، بعضها في بعض، منعا للتكرار وطلبا للاختصار، لأجعل منها عشرة كاملة، يمكن أن نسميها (الخطوط العشرة، لترشيد الصحوة). أي لنقلها من مرحلة المراهقة والأحلام والطيش أحيانا، إلى مرحلة الرشد والنضج والاتزان، مرحلة الفعل لا الانفعال ولا رد الفعل.

الخطوط العشرة لترشيد الصحوة:

هذه هي الخطوط العشرة :

١ـ من الشكل والمظهر ، إلى الحقيقة والجوهر .

٢ـ من الكلام والجدل ، إلى العطاء والعمل .

٣ـ من العاطفية والغوغائية ، إلى العقلانية والعلمية .

٤ـ من الفروع والذيول ، إلى الرءوس والأصول .

٥ـ من التعسير والتنفير ، إلى التيسير والتبشير .

٦ـ من الجمود والتقليد ، إلى الاجتهاد والتجديد .

٧ـ من التعصب والانغلاق ، إلى التسامح والانطلاق .

٨ـ من الغلو والانحلال ، إلى الوسطية والاعتدال .

٩ـ من العنف والنقمة ، إلى الرفق والرحمة .

١٠ـ من الاختلاف والتشاحن ، إلى الائتلاف والتضامن .

وسنتحدث في الفصول القادمة ـ إن شاء الله ـ عن كل نقطة من هذه النقاط ، أو كل خط من هذه الخطوط : بما يشرحه ويلقي الضوء عليه ، حتى تتضح المفاهيم ، وتقوم الحجة ، ولا تلتبس الحقائق بالأباطيل ، وحتى يتعلم الجاهل ، ويقتنع المتردد ، وينهزم المكابر ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة . وبالله التوفيق .

١ ـ من الشكل والمظهر
إلى الحقيقة والجوهر

من الناس من لا يكاد يهمه من الإسلام إلا الشكل لا الجوهر، والصورة لا الحقيقة، فأهم ما يعنى به في دينه: إعفاء اللحية وتطويلها، وتقصير الثوب، وحمل المسواك، ولصق القدم بالقدم في الصلاة، أو وضع اليدين في القيام عند الصدر أو فوق السرة، والشرب قاعدا لا قائما، وتحريم جميع أنواع الغناء والموسيقى، وإيجاب لبس النقاب على المرأة، ونحو ذلك. وهذه كلها أمور تتعلق بالمظهر أكثر مما تتعلق بالجوهر، وكنت أود من إخوتي هؤلاء لو وجّهوا أكبر عنايتهم إلى الجوهر والروح في تعاليم الإسلام، بدل الشكل والمادة.

فالإسلام عقيدة: جوهرها التوحيد، وعبادة: جوهرها الإخلاص، ومعاملة: جوهرها الصدق، وخلق: جوهره الرحمة، وتشريع: جوهره العدل، وعمل: جوهره الإتقان، وأدب: جوهره الذوق، وعلاقة: جوهرها الأخوة، وحضارة: جوهرها التوازن.

فمن ضيع التوحيد في العقيدة، والإخلاص في العبادة، والصدق في المعاملة، والرحمة في الخُلُق، والعدل في التشريع، والإتقان في العمل، والذوق في الأدب، والأخوة في العلاقة، والتوازن في الحضارة: فقد ضيع جوهر الإسلام، وإن تمسك بظواهر الرسوم والأشكال.

وليس هذا القول مجرد دعوى بلا دليل، بل الأدلة على هذا القول من القرآن والسنة كثيرة.

يقول الرسول ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. ومن كانت فيه واحدة منهن: كان فيه شعبة من النفاق حتى يدعها: «إذا حدث كذب، وإذ اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» متفق عليه.

الإيمان بين الشكل والجوهر:

يحسب بعض الناس: أن الإيمان الذي ينجي الإنسان من النار، ويؤهله لدخول الجنة في الآخرة، ويجعله أهلا لولاية الله تعالى ونصرته ودفاعه في الدنيا: مجرد معرفة ذهنية، كثيرا ما يُحشَى بها عقله. وبعبارة أدق: تخزن في ذاكرته ـ في فترة الصبا ـ ويلقنها تلقينا: أن الله تعالى واحد لا شريك له، وأنه سبحانه متصف بكل كمال، منزه عن كل نقص، وأن له صفات عليا هي كذا وكذا.

وما زلت أذكر كيف كانوا يلقنوننا ـ ونحن في الكُتَّاب ـ العقيدة، على مذهب الأشاعرة المتأخرين، وهي: أن لله تعالى صفات عشرين هي: الوجود، والقدم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية، والعلم، والإرادة، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، وكونه تعالى عالما، ومريدا، وقادرا، وحيًا، وسميعا، وبصيرا، ومتكلّما.

وكنا نحفظ هذه الصفات بترتيبها هكذا، ولا نعرف من معناها شيئا.

وبعد أن كبرت ووعيت: حاولت أن أفهم الفرق بين العلم، وكونه تعالى عالما. وبين القدرة، وكونه تعالى قادرا. . إلخ. . ولم أستطع أن أفهم، ولم أجد من قدر على أن يفهمني، برغم أننا درسنا هذه الصفات: في المراحل الابتدائية، والثانوية، والعالية، من الدراسة في الأزهر الشريف.

وأهم من ذلك: أن هذه الدراسة للعقيدة، لم تكن تلمس في روح الإنسان وترا، أو تحرك له قلبا، أو تحيي فيه ضميرا. إنها دراسة جافة، خاوية من رحيق الإيمان الحق، الذي يقوم عليه منهج القرآن: في تكوين الإيمان، وفي تثبيت الإيمان.

وهو منهج يقوم على النظر والتفكر في آيات الله تعالى: في الأنفس، والآفاق: ﴿**أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ من شَيْءٍ**﴾ الأعراف: ١٨٥. ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ الذاريات: ٢٠، ٢١. ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ آل عمران: ١٩٠.

وقد أعجبت بالمنهج السلفي، لعنايته بالرجوع إلى القرآن الكريم، والسنة المطهرة في إثبات العقيدة وتثبيتها، مرجحا أساليب القرآن على أساليب فلسفة اليونان، حسب تعبير العلامة ابن الوزير اليماني.

كما أعجبني من هذا المنهج: تركيزه على تحرير التوحيد: من كل شوائب الشرك أكبره وأصغره، جليه وخفيه، وتحرير الإنسان من العبودية للإنسان، وتجريد العبودية لله وحده.

ولكن الاتجاه السلفي المعاصر: غرق في خضم الجدل في مسائل العقيدة، وغدا شغله الشاغل، ما يتعلق بما سماه: (آيات الصفات)، و (أحاديث الصفات) والمراد بها: الصفات الخبرية، التي وقع النزاع بين السلف والخلف حول تأويلها أو عدمه. وكأنما هي لب العقيدة، وجوهر التوحيد.

ومأخذي على هذا الاتجاه ـ كما يلقّن الآن ـ أمران:

الأول: تركيزه على هذا الموضوع المختلف فيه، على حساب المتفق عليه، والذي هو الأصل في العقيدة: من إثبات وجود الله تعالى، ووحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله، وتجريد العبادة له وحده، ووصفه بكل كمال يليق به عز وجل، ونفي كل نقص عنه: من الشريك والولد والنِّد والشبيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ٣، ٤.

والواجب تدريس هذه الأشياء المختلف فيها، كما جاءت في القرآن والسنة، لا أن يُجمع بعضها مع بعض، في سياق واحد، يعطي من الظلال ما لا يعطيه سياقها في مواقعها المتفرقة من الكتاب والسنة.

الثاني: أن هذا الاتجاه وقع فيما وقع فيه الاتجاه العقلاني الأشعري الآخر، من اعتبار الإيمان: مسألة معرفية ذهنية، وبعبارة أخرى: استيعاب عبارات مرصوصة، وحفظ جمل ومصطلحات مصبوبة في قوالب جامدة.

فمن حفظ هذه العبارات أو المصطلحات: فقد سلمت عقيدته، وصح إيمانه، وتحرر توحيده من الشركيات والكفريات.

وقد حضرت مجلسا ضم بعض أهل العلم، فكان مما قاله واحد منهم في الإنكار على شخص ما: إنه مختل العقيدة، مشوب التوحيد، إنه لا يعرف معنى (الرب)، ولا معنى (الطاغوت)، ولا معنى (توحيد الأسماء والصفات).

وكأن كل ما هو مطلوب من الإنسان ليسعد في الدنيا، ويفوز في الآخرة: أن يحفظ هذه التعريفات أو المصطلحات عن ظهر قلب، ويسمِّعها عندما تطلب منه.

وليس هذا بالإيمان الذي ذكر في القرآن، وذكرته السنة، ورتبا عليه آثاره وثماره في الدنيا والآخرة.

إيمان القرآن والسنة:

إن إيمان القرآن والسنة شيء آخر.

إنه نور يضيء كل جوانب النفس، ينير العقل، وينعش الوجدان، ويحرك المشاعر، ويحفز الإرادة. إنه قوة هادية، وقوة محركة، وقوة ضابطة، وقوة مطمئنة.

الإيمان قوة هادية:

هو قوة هادية، لأنه يحدد للإنسان وجهته، ويعرفه غايته ومنهاجه، فيحيا على نور، ويمضي على بصيرة.

﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ سورة التغابن: ١١. ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ سورة آل عمران: ١٠١. ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ سورة الأنعام: ١٢٢.

هذه القوة هي التي جعلت إبراهيم الخليل عليه السلام: يرفض ربوبية الكواكب والقمر والشمس، إذ يقول: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الأنعام: ٧٩.

قوة حافزة:

وهو قوة محركة، تحفز الإنسان إلى العطاء والبناء، وعمل الصالحات، واستباق الخيرات، ولذا قرن القرآن الإيمان بالعمل في نحو تسعين موضعا، ولهذا قال السلف: ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

وحين قال اليهود والنصارى: ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ رد عليهم القرآن بقوله: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ سورة البقرة: ١١١، ١١٢.

فهذا هو البرهان على صدق الإيمان: إسلام الوجه لله مع إحسان العمل.

والقرآن يجسد الإيمان في أخلاق ومشاعر وأعمال، لا في جمل وعبارات فقال: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ سورة الأنفال: ٢ ـ ٤.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ سورة الحجرات: ١٥.

يؤكد ذلك أحاديث الرسول الكريم، التي جعلت الإيمان بضعا وستين، أو بضعا وسبعين شعبة، ألفت فيها كتب جامعة، لبيانها وإحصائها وشرحها.

وفي الصحيحين: «الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان».

الإيمان هو الذي جعل إبراهيم الخليل، يقدم على ذبح ولده وفلذة كبده طاعة لله، وجعل ابنه الفتى المترعرع، يقول لأبيه وقد قال له: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ الصافات: ١٠٢.

قوة ضابطة:

والإيمان ـ كما أنه قوة دافعة إلى فعل الخير ـ هو كذلك قوة ضابطة تزع صاحبها عن الشر، وتلجمه بلجام التقوى، وتردعه عن الإثم، وعن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

الإيمان هو الذي يضع نصب عيني المؤمن دائما: رقابة الله تعالى، وحساب الآخرة، وعقيدة الثواب والعقاب، والجنة والنار، وبذلك يكون هو رقيبا على نفسه، يشارطها قبل العمل، ويحاسبها بعد العمل، ويلومها عند التقصير، وقد يعاقبها بالتقريع والتأنيب، وبغيرهما من وسائل التأديب. كما هو شأن (النفس اللوامة).

الإيمان هو الذي جعل ابن آدم الخيّر يقول لأخيه الشرير: ﴿**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ المائدة: ٢٨.

الإيمان هو الذي جعل يوسف بن يعقوب: يرفض الشهوة الحرام، وهو في عنفوان شبابه، وقوة رجولته، وهي التي سعت إليه، ولم يسع إليها، فهو يقول للمرأة التي هو في بيتها، والتي تملك أمره، والتي راودته عن نفسه بالتصريح لا بالتلميح. ﴿**وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ يوسف: ٢٣.

وحين لم يفلح معه الإغراء، جربت معه التهديد، فمن لم يثنه الوعد فربما ألانه الوعيد، فقالت أمام النسوة: ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ يوسف: ٣٢.

فما كان من هذا الشاب المؤمن، إلا أن لاذ بالركن الركين، والحصن الحصين، لاذ بربه، قائلا: ﴿**رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ يوسف: ٣٣.

مصدر للسكينة:

والإيمان بعد ذلك قوة تزرع في النفس السكينة، وفي القلب الأمن والطمأنينة، وهما ينبوع السعادة الحقيقية، التي تنبع من الداخل، ولا تستجلب من الخارج.

يقـول الله تعـالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ الفتح: ٤.

يحدثنا القرآن عن إبراهيم، إذ حاجه قومه وجادلوه، وخوفوه من آلهتهم أن تصيبه بسوء! فقال:

﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأنعام: ٨٠ـ٨٢.

ومعنى لم يلبسوا إيمانهم بظلم: أي لم يخلطوا توحيدهم بشرك، فهم لا يدينون إلا لله، ولا ينحنون إلا لله، ولا يرجون أو يخافون إلا الله.

وهذا التوحيد الخالص هو الذي وهبهم الأمن النفسي الذي حرمه غيرهم، ممن يخافون من كل شيء، حتى من الأوهام. كما هو شأن أهل الشرك الذين قال الله فيهم: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ آل عمران: ١٥١.

ومن هنا نجد المؤمن كالطود الأشم، تضطرب الدنيا من حوله، وتثور العواصف، وتزمجر الرعود، وتبرق البروق، وتنقلع الأشجار، وتفيض الأنهار، وتعلو أمواج البحار، وهو هو: ثابت لا يتزحزح، راسخ لا يتأرجح، فقد وضع قدمه على باب الله، ووضع يده في يد الله، ووصل حباله بحبل الله، فبه يعتصم، ومنه يستمد، وإليه يتوجه، وعليه يتوكل ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال: ٤٩.

شعاره ما قاله الله لرسوله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ سورة التوبة: ٥١.

لا تزيده الشدائد إلا إيمانا واطمئنانا، كالذهب الأصيل لا تزيده النار إلا صفاءً ولمعانا. وهكذا وصف الله المؤمنين من أصحاب رسوله ﷺ، في أشد الأوقات حلكة وسوادا، وأشد الأزمات حرجا وقلقا، كما في غزوة الأحزاب، حيث أحاط جيش المغيرين بالمدينة، إحاطة الأمواج بالسفينة، وظن الناس بالله الظنون، وابتُليَ المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا. هنا برز دور الإيمان يبعث الأمل، ويحيي الثقة، ويمنح القوة، كما نرى ذلك في وصف القرآن لجماعة المؤمنين ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ سورة الأحزاب: ٢٢.

ولا أستطيع أن أذكر هنا ـ ولو بالإيجاز ـ ثمار الإيمان القرآني، في النفس وفي الحياة. فقد كتبت في ذلك كتابا كاملا هو (الإيمان والحياة)، بينت فيه أثر الإيمان في حياة الفرد، وفي حياة المجتمع، وأنه ضرورة للفرد ليسعد ويتزكى، وضرورة للمجتمع ليتماسك ويرقى.

المهم أن هذا الإيمان هو الإيمان الحق، وهو الذي جاء به كتاب الله، وفصلته سنة رسول الله، وهو الذي عرفه وعاشه الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وعرفه الربانيون من أبناء هذه الأمة، فعاشوا به في جنة روحية دخلوها في الدنيا قبل الآخرة، وأحسوا معه بسعادة قال فيها قائلهم: لو علم بقيمتها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!

أما آفة مسلمي عصور الانحطاط، ومسلمي اليوم كذلك: فهي غياب هذا الإيمان الإيجابي الذي لا يقوم شيء مقامه من علم ولا أدب ولا فلسفة ولا قانون.

أجل، إن غياب المعاني الإيمانية الربانية، التي تربط القلوب ببرد اليقين، وتنعش الأرواح بنسائم المحبة والشوق إلى الله، وتمد العزائم ببواعث الرجاء في رحمة الله تعالى والخشية من عذابه: أبرز ثُغرة في حياة الإنسان المسلم، تحتاج إلى أن تسد، فلجأ إلى رحاب التصوف، يحاول أن يجد فيه ضالته التي ينشدها، والتي لم يجدها عند الذين أغرقوا الناس بفروع الفقه وخلافاته، ولا عند المجادلين في العقائد: من علماء الكلام الذين شغلوا الناس عن الله جل جلاله، بالجدل الحار الدائم حول أسمائه وصفاته سبحانه.

وإذا وجد المسلم صوفيا ملتزما بالكتاب والسنة، بعيدا عن الشِّرْكيَّات في العقيدة، والبدع في العبادة، والخلل في السلوك: فهذا من حسن حظه، ومن فضل الله عليه.

ولكن الخطر يتمثل في المخرفين والمنحرفين من أدعياء التصوف، من الذين اتخذوه مرتزقا وتجارة، أو من الذين لم يحسنوا فهم حقيقة التصوف، لأنهم لم يحسنوا فهم حقيقة الإسلام. وهؤلاء هم جل الموجودين على الساحة باسم التصوف، وما هم من التصوف في كثير ولا قليل.

التقوى بين الشكل والجوهر:

ومن أعظم مقامات الدين، وأطيب ثمار الإيمان، وأفضل ما يحرص عليه المؤمنون، ويتنافس فيه المتنافسون: مقام (التقوى) التي ناط القرآن بها كل خير وكل فضل، وكل أثر طيب في الدنيا والآخرة.

فهي سبب النجاة، والخروج من كل مأزق ومضيق: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ الطلاق: ٢، ٣.

وهي سبب اليسر والسعة كذلك: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ الطلاق: ٤.

وهي سبب تكفير السيئات وإعظام الأجر: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ الطلاق: ٥.

وهي سبب معية الله تعالى لعبده: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ١٩٤، والتوبة: ١٢٣.

وهي سبب محبة الله تعالى لعبده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة: ٤، ٧.

وهي سبب ولاية الله تعالى لعبده: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يونس: ٦٢، ٦٣.

وهي سبب لحفظه تعالى إياه من كيد أعدائه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ آل عمران: ١٢٠.

وهي سبب لإعطائه الفرقان، الذي يفرّق به بين الحق والباطل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ الأنفال: ٢٩.

وهي سبب للنجاة من النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ مريم: ٧١، ٧٢.

وهي سبب دخول الجنة: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ مريم: ٦٣.

وهي سبب قبول العمل عند الله: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧.

ولا غرو أن أمر الله بها عباده أجمعين، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ الحج: ١.

كما أمر بها عباده المؤمنين خاصة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ آل عمران: ١٠٢.

وهي وصية الله للأولين والآخرين: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ النساء: ١٣١.

هذه التقوى لها شكل وصورة، ولها جوهر وحقيقة.

فأما شكلها: فالمحافظة على رسوم العبادة، وطقوسها الظاهرة، والاهتمام بأعمال الجوارح، وطاعات الأبدان، لا بأعمال القلوب، وطاعات القلوب. والحرص على تجنب معاصي الجوارح، دون الحذر من الوقوع في معاصي القلوب، والعناية بالآداب الظاهرة التي تراها أعين الناس، دون الآداب الباطنة التي قلما يلتفتون إليها.

فأما جوهر التقوى وحقيقتها، فتتجلى في (القلب)، الذي هو موضع نظر الله تعالى، والذي هو أساس النجاة في الآخرة. كما قال تعالى على لسان إبراهيم حين دعا ربه، فكان من دعائه: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩. ولقد وصف الله إبراهيم بعد ذكر قصة نوح، فقال: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الصافات: ٨٣، ٨٤.

وإذا كانت سلامة القلب يوم القيامة هي محور النجاة، فإن إنابته إلى الله هي أساس الفوز بالجنة: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ ق: ٣١ ـ ٣٣.

ولهذا كانت حقيقة التقوى متعلقة بالقلوب، أكثر من تعلقها بالأبدان. ومن أجل هذا أضيفت إليها في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ الحج: ٣٢.

وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ أشار إلى صدره، وقال: «التقوى هاهنا. قالها ثلاثا».

ومن هنا عظم عليه الصلاة والسلام أمر القلب، وبين عظيم خطره، حين قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». (١)

كما عظّم رسول الله، ﷺ أمر (النية)، وجعلها مناط قبول الأعمال عند الله، فقال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها: فهجرته إلى ما هاجر إليه». (٢)

ومن أجل هذا عظم علماء الإسلام شأن هذا الحديث، فمنهم من جعله ربع الإسلام، ومنهم من جعله ثلث الإسلام، ومنهم من جعله نصف الإسلام: بناء على أن الإسلام ظاهر وباطن، وهذا يمثل قسم الباطن، وأساسه النية.

ولأهميته ابتدأ الإمام البخاري كتابه (الجامع الصحيح) به، واقتدى به كثيرون من العلماء. وجعله الإمام النووي أول حديث في (أربعينه) الشهيرة.

وجاءت جملة من الأحاديث الصحيحة، كلها تبين أهمية النية في دين الله، وفي قبول الأعمال عند الله.

---

(١) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

(٢) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب.

حتى إن النية لتشفع لصاحبها إذا أخطأ في عمله، فتصحح له العمل، كما في حديث الرجل الذي تصدق في الليل بصدقة، فوضعها في يد من لا يستحقها: من سارق، ومن زانية، ومن غني، وظن أن صدقته، ضاعت هدرا. فأُتيَ في نومه، وقيل له: «أما صدقتك على سارق، فلعله أن يستعف عن سرقته، وَأما صدقتك على زانية، فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما صدقتك على غني، فلعله يعتبر فينفق مما آتاه الله». (١)

ويخبرنا القرآن أن المؤمن يستوفي أجر عمله كاملا، وإن لم يتمه بالفعل: بفضل نيته، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ النساء: ١٠٠ .

بل إن النبي ﷺ: ليجعل المؤمن يثاب على العمل، وإن لم يعمله، كما في حديث: «لقد خلفنا بالمدينة أقواما، ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا، حبسهم العذر». (٢)

وقال ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدق، بَلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه». (٣)

وفي حديث آخر: «من أتى فراشه، وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عيناه حتى أصبح، كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه». (٤)

إن شكل التقوى: أن تهتم بأعمال العبادة الظاهرة، وحركات البدن المرئية، مثل القيام والركوع والسجود في الصلاة، دون أن تهتم بالخشوع وهو روح الصلاة، وهو الذي رتب الله تعالى عليه الفلاح، حين قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ المؤمنون: ١، ٢ .

وهكذا رأينا صلاته ﷺ، وصلاة أصحابه، وصلاة المتقين من خيرة هذه الأمة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري عن أنس (٢٨٣٩).
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه النسائي في قيام الليل (٣/ ٢٥٨) وابن ماجه (١٣٤٤) وابن حبان (٢٥٨٨) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (١/ ٣١١) كلهم عن أبي الدرداء.

وهذا ما جعله عليه الصلاة والسلام، يقول: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[1] وجعله يقول لمؤذنه بلال إذا جاء وقتها: «أرحنا بها يا بلال». فهو يجد في الصلاة راحة نفسه، وقرة عينه، وما أعظم الفرق بين من يقول: «أرحنا بها» ومن يقول: أرحنا منها!

على حين نجده ﷺ، يقول: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب قرص الشمس، حتى إذا كانت بين قرني شيطان (أي اقتربت من الغروب)، قام فنقرها أربعا، لا يذكر الله فيها إلا قليلا».[2]

وقال: «أسوأ الناس سرقة: الذي يسرق من صلاته، لا يُتِمّ ركوعها ولا سجودها».[3]

وفي الصيام: نرى شكل الصيام في الامتناع عن شهوتي البطن والفرج، أي عن الطعام والشراب والنساء، وهو ما يسميه الإمام الغزالي (صيام العَوَام). ولكن جوهر الصيام في الامتناع عن كل المعاصي، فيصوم لسانه عن اللغو والرفث، ويصوم سمعه عن اللهو والخنا، وتصوم يده عن الأذى للناس، وتصوم جوارحه كلها عن معصية الله. وبهذا يكون الصيام له جُنَّةٌ حقا.

وفي الحديث الصحيح: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».[4]

وقال: «رُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر، ورُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع».[5]

---

(١) جزء من حديث: «حبب إلي من دنياكم: النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» رواه أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس وذكره في صحيح الجامع الصغير (٣١٢٤).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد والطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وابن خزيمة (٦٦٣) والحاكم (١/ ٢٢٩) وقال: صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي.

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الصوم.

(٥) رواه ابن ماجة واللفظ له، والنسائي، وابن خزيمة في صحيحه (١٩٩٧) والحاكم (١/ ٤٢١) وقال: صحيح على شرط البخاري ووافقه الذهبي.

وكان ﷺ يتلذذ بصيامه، كما كان يتلذذ بصلاته، ويواصل الصيام، وينهى أصحابه عن الوصال: أي يصل أكثر من يوم ولا يفطر، فلما قالوا له: تنهانا عن الوصال وتواصل؟ قال: «وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني». [1]

وهو كناية عن استغراقه في صلته بربه، ومحبته له، وقرَّة عينه بعبادته، بحيث ينسى طعامه وشرابه وحاجة جسمه، كما قال الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الطعام وتلهيها عن الزاد

والحج له شكل وله جوهر أيضا. فشكله: أداء المناسك الظاهرة، وإن لم تكن له نية خالصة، ولا نفقة طيبة، ولا رحلة سالمة من الرفث والفسوق والجدال، وقد جاء في الحديث: «من حجَّ هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق: رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه» [2]. وقال: «الحج المبرور، ليس له ثواب إلا الجنة» [3].

وقال تعالى في هدايا الحج من بهيمة الأنعام: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ الحج: ٣٧.

وفي الصدقة أو الزكاة، لها شكل وجوهر: شكل الصدقة أن تخرج المال للفقير، وإن كان مالك غير طيب، وكانت نيتك فيه غير خالصة.

وحقيقة الصدقة المقبولة: أن تتصدق من مالك الحلال، فإن الصدقة بالحرام لا تقبل «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا» [4]. والزكاة لا تطهر المال الحرام، ولا يطهره إلا ردَّه إلى أصحابه، إن المال الحرام لا يطهره إخراج ربع عشره منه، بل إخراجه كله، وإرجاعه إلى أهله. وأن تكون قاصدا بإنفاقك وجه الله وحده. لا كالذي ينفق ماله رئاء الناس كما وصف الله الأبرار بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ الإنسان: ٨، ٩.

والعبادات كلها لا تقبل عند الله، إلا بشرط أساسي لا بد منه، وهو الإخلاص لله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ البينة: ٥.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة وأنس وعائشة وابن عمر، كما في اللؤلؤ والمرجان (٦٧٠ ـ ٦٧٤).
(٢) متفق عليه عن أبي هريرة. اللؤلؤ والمرجان (٨٥٦).
(٣) متفق عليه عن أبي هريرة. اللؤلؤ والمرجان (٨٥٥).
(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة.

طاعات القلوب:

وهناك عبادات قلبية، وهي التي تعرف بـ (طاعات القلوب). وهي أهم من طاعات الجوارح، حتى قال الإمام الغزالي: إن ذرَّة من أعمال القلوب، قد ترجح أوزان الجبال من أعمال الجوارح.

وهي التي يعنى بها المتقون، ويوجهون إليها أكبر جهدهم، مثل: التوكل على الله تعالى، والرجاء في رحمته، والخشية من عذابه، والحياء منه، والمحبة له، والشوق إليه، والشكر لنعمائه، والصبر على بلائه، والرضا بقضائه، والحب فيه، والبغض فيه، والإنابة إليه، والاستعانة به، والتوبة إليه. وهي التي يسميها رجال التصوف والسلوك: مقامات.

وهذه المعاني الربانية، والمقامات الروحية، إنما هي من دلائل الإيمان وثماره كذلك. فمن اكتمل إيمانه: تجلت فيه هذه المعاني وترسخت.

يقول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إبراهيم: ١١. ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٢٣. ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران: ١٧٥. ﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ يوسف: ٨٧. ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الزمر: ٥٣. ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ البقرة: ١٥٢ـ ١٥٣. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ الأنفال: ٢ ـ ٤. وقال: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور: ٣١.

ومما يؤسف له حقا: أن كثيرا من شباب الصحوة الإسلامية، ورجال الدعوة الإسلامية، مشغولون عن هذه الطاعات التي هي جوهر الدين ولُبُّه، والتي تمثل أهم شعب الإيمان، بالأعمال الظاهرة، أعمال الجوارح التي تراها الأعين، أو تسمعها الآذان، أو تلمسها الأيدي، وهي مطلوبة ولا شك، ولكن دون طلب أعمال القلوب، مع أنها أساس الفلاح في الآخرة، كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة: ٤، ٥.

وهي كذلك أساس الإمامة والتمكين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ السجدة: ٢٤. فبالصبر واليقين نالوا الإمامة في العالمين.

معاصي القلوب:

وكما رغَّب الإسلام في (طاعات القلوب)، التي هي جوهر التقوى، وروح الدين، حذر أبلغ التحذير من (معاصي القلوب) لعظم خطرها، وعميق أثرها، وتفاقم شَرِّها وشَرَرِها، على الإنسان فردا ومجتمعا، على دينه ودنياه، على معنوياته ومادياته معاً.

والإسلام - بلا ريب - يطارد المعاصي والخطايا كلها، ظاهرة كانت أو باطنة: من أعمال الجوارح أم من أعمال القلوب، كما قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٠.

ولكنه - كما بينا في كتابنا (التوبة إلى الله) -: يرى المعاصي الباطنة أشد خطرا من المعاصي الظاهرة. وبعبارة أخرى:

معاصي القلوب أشد خطرا من معاصي الجوارح، كما أن طاعات القلوب أهم وأعظم من طاعات الجوارح، حتى إن أعمال الجوارح كلها لا تقبل إلا بعمل قلبي، وهو النية والإخلاص.

ونقصد بمعاصي القلوب: ما كانت آلته القلب، مثل: الكبر، العجب، الغرور، الرياء، الشح، حب الدنيا، حب المال والجاه، الحسد، البغضاء، الغضب،

ونحوها، مما سماه الإمام الغزالي في (إحيائه): المهلكات، أخذا من الحديث الشريف: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوًى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه».

وإنما اشتد خطر هذه المعاصي والذنوب، لعدة أمور:

أولها: أنها تتعلق بالقلب، والقلب هو حقيقة الإنسان، فليس الإنسان هو الغلاف الجسدي الطيني، الذي يأكل ويشرب وينمو، بل هو الجوهرة التي تسكنه، والتي نسميها: القلب، أو الروح، أو الفؤاد، أو ما شئت من الأسماء. وفي هذا قال عليه الصلاة والسلام: «ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» متفق عليه، عن النعمان بن بشير.

وقال: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم عن أبي هريرة.

وجعل القرآن أساس النجاة في الآخرة: هو سلامة القلب، كما قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩.

وسلامة القلب تعني: سلامته من الشرك جليّه وخفيّه، ومن النفاق أكبره وأصغره، ومن الآفات الأخرى التي تلوثه، من الكبر والحسد والحقد، وغيرها.

وقال ابن القيم: سلامته من خمسة أشياء: من الشرك الذي يناقض التوحيد، ومن البدعة التي تناقض السنة، ومن الشهوة التي تخالف الأمر، ومن الغفلة التي تناقض الذكر، ومن الهوى الذي يناقض التجرد والإخلاص.

ثانيها: أن هذه الذنوب والآفات القلبية، هي التي تدفع إلى معاصي الجوارح، فكل هذه المعاصي الظاهرة إنما يدفع إليها: اتباع الهوى، أو حب الدنيا، أو الحسد، أو الكبر، أو حب المال والثروة، أو حب الجاه والشهرة، أو غير ذلك.

حتى الكفر نفسه، كثيرا ما يدفع إليه الحسد، كما حدث لليهود، فقد قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ البقرة: ١٠٩.

أو يدفع إليه الكبر والعلو في الأرض، كما قال تعالى عن فرعون وملئه وموقفهم من آيات موسى عليه السلام: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ النمل: ١٤.

أو حب الدنيا وزينتها، كما رأينا في قصة هرقل ملك الروم، وكيف تبين له صدق الرسول ﷺ في دعوته، وصحة نبوته، ثم لما هاج عليه القسس، غلّب حب ملكه على اتباع الحق، فباء بإثمه وإثم رعيته.

وإذا نظرت إلى من يقتل نفسا بغير حق، وجدت وراءه دافعا نفسيا أو قلبيا، من حقد أو غضب، أو حب لدنيا، حتى إن أول جريمة قتل في تاريخ البشرية، كان سببها الحسد، وذلك في قصة ابني آدم ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧. إلى أن قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ المائدة: ٣٠.

وكذلك كل من ارتكب معصية ظاهرة: من شهادة زور أو نميمة، أو غيبة أو غيرها، فلا بد أن وراء تلك المعاصي شهوة نفسية، وفي هذا جاء الحديث: « إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا »(١).

ثالثها: أن المعاصي الظاهرة التي سببها ضعف الإنسان وغفلته، سرعان ما يتوب منها، بخلاف المعاصي الباطنة، التي سببها فساد القلوب، وتمكن الشر منها، فقلما يتوب صاحبها منها، ويرجع عنها.

وهذا هو الفارق بين معصية آدم، ومعصية إبليس.

معصية آدم كانت معصية جارحة، حين أكل من الشجرة، ومعصية إبليس كانت معصية قلب، حين أبى واستكبر، وكان من الكافرين.

ومعصية آدم كانت زلة عارضة، نتيجة النسيان وضعف الإرادة، أما معصية إبليس فكانت غائرة متمكنة، ساكنة في أعماقه.

---

(١) رواه أبو داود الحاكم عن عبد الله بن عمر، كما في صحيح الجامع الصغير (٢٦٧٨).

لهذا ما أسرع ما أدرك آدم خطأه واعترف بزلته، وقرع باب ربه نادما تائبا هو وزوجته! ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف: ٢٣.

أما إبليس، فاستمر في غلوائه، متمردا على ربه، مجادلا بالباطل، حين قال له: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ سورة ص: ٧٥، ٧٦.

ولهذا كانت عاقبة آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ٣٧.

وكانت عاقبة إبليس: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ سورة ص: ٧٧، ٧٨.

رابعها: وهذا ثمرة للوجوه السابقة، وهو تشديد الشرع في الترهيب من معاصي القلوب، وآفات النفوس: لشدة خطرها، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة: من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» رواه مسلم عن ابن مسعود، وقوله: «دَبَّ إليكم داءُ الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين» [١].

وقوله: «لا تغضب» وكررها ثلاثا، لمن قال له: أوصني [٢].

وقوله في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري، تركته وشركه» [٣].

وقوله: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» [٤].

---

(١) رواه البزار عن الزبير بإسناد جيد كما قال المنذري. انظر: المنتقى (١٦١٥) والهيثمي (٨/ ٣٠).

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة وفي معناه عدة أحاديث. انظر: المنتقى (١٦٥١ ـ ١٦٥٤).

(٤) رواه مسلم عن جابر.

اتباع القرآن بين الشكل والجوهر:

القرآن هو روح الوجود الإسلامي، وعمدة الملة والأمة، وينبوع عقائدها وأخلاقياتها، ومصدر تشريعاتها وأحكامها. وكل المصادر الأخرى: من السنة والإجماع والقياس وغيرها، إنما تستمد شرعيتها من نصوصه وأدلته، فهو الذي يمنحها الحجية، ويعطيها الثقة، باعتباره النص الإلهي المعصوم، الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

أمر الله تعالى - منزل القرآن - الأمة باتباعه، والنزول على حكمه، كما قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ الأعراف: ٣.

وأمر الأمة كلها: أن تحتكم إليه، رعاة ورعية، حاكمين ومحكومين، فإنما أنزله الله ليحكم بين الناس، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ النساء: ١٠٥.

وقال جل شأنه: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ المائدة: ٤٨.

وقال: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ المائدة: ٤٩.

ويبين سبحانه أن بركة هذا الكتاب العظيم: إنما هي في اتباعه والعمل به، كما قال عز وجل: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٥.

فرتب بركة الكتاب: على وجوب اتباعه وتقوى الله فيه، ليكونوا على رجاء رحمة الله، تباركت أسماؤه.

وهذا ما عرفه الصحابة وتابعوهم بإحسان من خير قرون هذه الأمة، الذين أحسنوا التعامل مع هذا القرآن: تلوه فأحسنوا تلاوته، وخشعت له قلوبهم، ودمعت له أعينهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ الحديد: ١٦.

واستمعوا إليه يتلى عليهم، فأحسنوا الاستماع والإنصات له، بآذانهم وقلوبهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ الأنفال: ٢.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ التوبة: ١٢٤.

ولقد كان القرآن: هو المؤثر الأول في حياتهم عقليا ووجدانيا وسلوكيا، فهو الذي غير ما بأنفسهم، وبدل حياتهم تبديلا، يسمعونه غضا طريًا من فم رسول الله ﷺ، فيحرك سواكنهم، ويطهر بواطنهم، ويحول مناهجهم وقيمهم، وكثير منهم إنما دخل في الإسلام باستماع آيات من القرآن، كعمر بن الخطاب وغيره.

ولما بعث الرسولُ ﷺ مصعبَ بن عمير، إلى (يثرب)، كان عمله الأول: أن يتلو عليهم القرآن، فدخل أهل يثرب في دين الله أفواجا: باستماعهم القرآن.

وتجاوبوا مع القرآن في حياتهم الفردية، وحياتهم الأسرية، وحياتهم الاجتماعية، وحياتهم الجهادية، وحياتهم الاقتصادية، وحياتهم السياسية، فكانوا (أمة قرآنية) حقا، منه تستمد، وعليه تعتمد، وبه تعتصم، وإليه تحتكم، وعنه تصدر.

وكانوا يتلقون الوحي القرآني ليسارعوا بتنفيذه، ويتسابقوا في تطبيق أحكامه ووصاياه، رجالا كانوا أم نساء، كما دلت على ذلك وقائع وفيرة.

ورأينا الخلفاء منهم، حين يحاجهم أحد بالقرآن؛ لا يملكون إلا الإذعان له، والوقوف عند حدوده.

ولقد غضب عمر من كلمة نابية، قالها له أحد زعماء البدو، ولكن ابن أخي هذا الأعرابيّ ذَكَّر عمر بقول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الأعراف: ١٩٩. فسرّى عن عمر، وكان وقَّافًا عند كتاب الله.

وعارضته امرأة في المسجد، عندما أراد تحديد حدٍّ أعلى للمهور، فذكرته بقول الله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ النساء: ٢٠، فرجع عن قراره، وقال: أصابت المرأة وأخطأ عمر!

بل إن الحجاج بن يوسف ـ على طغيانه وجبروته ـ، حين أراد تبرير أخذ أحد السجناء، وهو بريء، ولكنه أخذ مكان قريب له، واستشهد في ذلك ببعض الشعر، فقال السجين: ولكن الله تعالى قال غير ذلك، قال: ماذا قال؟ فقال الرجل: قال على لسان يوسف: ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ** ﴾ يوسف: ٧٩ . فما كان من الحجاج الطاغية: إلا أن أخلى سبيل الرجل، وقال: صدق الله وكذب الشاعر!

ولقد كان قراء القرآن: هم أهل العلم والفقه في عصر النبوة، وعصر الصحابة، وكان القراء: هم أصحاب مشورة عمر، ولو كانوا شُبَّانا: مثل عبدالله بن عباس.

وكان القراء في المعارك: أكثر الناس إقداما واقتحاما للمخاطر، وخصوصا في حروب الردة، حتى كانوا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة!

وقال بعضهم في معركة اليمامة ـ الشهيرة مع مسيلمة الكذاب وقبيلته ـ: يا أهل القرآن! زينوا القرآن بالفعال.

وحفر بعضهم حفرة وقاتل فيها، وهو يقول: بئس حامل القرآن أنا، إن لم أقتل في سبيل الله.

لقد كان حامل القرآن إنما يحمل (نُورًا)، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ النساء: ١٧٤ . ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا** ﴾ التغابن: ٨ .

وهذا النور المبين المنزل من الله تعالى هدى عقولهم، وأضاء قلوبهم، وأنار حياتهم، وعرفهم غايتهم وطريقهم، فبعد أن اهتدوا بهداه، هدوا به العالم، وأخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور.

موقف المسلمين اليوم من القرآن:

ولكن السؤال الذي يبرز أمامنا الآن، هو: ما موقف المسلمين اليوم من القرآن؟

إنهم يُعْنَون بالقرآن شكلا، ولا يُعْنَون به جوهرا، يحفظونه حروفًا، ولا يحفظونه حدودا، يعقدون المسابقات، ترصد فيها الألوف بل الملايين لحفظه، ولكنهم لا يعطون مثل هذه العناية لتطبيقه، وإقامة أحكامه وتعاليمه.

وقد عبَّرت عن هذه الظاهرة الغريبة: عن موقف مسلمي اليوم من القرآن في كتابي (كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟) فقلت:

ما رأيت غائبا أشبه بحاضر، ومنسيّا أشبه بمحتفًى به: من القرآن الكريم في حياة المسلمين.

إن عشرات الألوف بل مئات الألوف، يحفظونه عن ظهر قلب، ومئات الملايين يتلونه أو يستمعون إليه صباحا ومساء، آناء الليل وأطراف النهار، وملايين آخرين يزينون بآياته الجدران، أو يتبركون بحمل المصحف في جيوبهم أو في سياراتهم، أو بحمل آية من آياته في حلية تزدان بها صدورهم، أو تميمة يستشفي بها عَوَامُّهم، بل رأينا بعضهم يفتحون عيادات للاستشفاء بالقرآن، والعلاج بالقرآن!

نرى المسلمين تفتح إذاعاتهم وتلفازاتهم بالقرآن، وتختم بالقرآن، بل هناك إذاعات كاملة مخصصة كلها للقرآن، ترتله وتجوده وتفسره.

ومع هذا كله، نرى المسلمين مقصرين في حق القرآن أبلغ تقصير؛ فالقرآن لم يصبح هو الموجِّه الأول لعقول المسلمين، ولا المؤثِّر الأول في قلوب المسلمين، ولا المحرك الأول لسلوك المسلمين، ولا المغيِّر الأول لما بأنفس المسلمين.

مظاهر العناية بالقرآن التي أشرنا إلى جملتها، بعضها يتصل بالشكل لا بالجوهر، بالصورة لا بالحقيقة، بالظاهر لا بالباطن، وبالفضول لا بالأصول. وبعضها يدخل في باب (المحدثات)، التي اخترعها الناس بأهوائهم، ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من شرع الله برهان. وقد حذرنا رسولنا الكريم من هذه المحدثات، فقال فيما رواه عنه العرباض بن سارية: «إياكم ومحدثات الأمور، فكل بدعة ضلالة»[1].

فاتخاذ القرآن (تمائم) في الصدور أو الأعناق، لم يكن من عمل الصحابة وتلاميذهم - رضي الله عنهم - وإن أجاز ذلك بعض العلماء، ولكن النهي عن (التمائم) جاء عاما، والأولى أن يبقى على عمومه، وسداً للذريعة أيضا، ولئلا

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣، ٤٤) وأحمد (٤/ ١٢٦، ١٢٧) والدارمي (١/ ٤٤).

يدخل به المسلم أماكن النجاسة، أو يحمله وهو جنب، أو تحمله المرأة وهي حائض.

والتداوي بالقرآن، أو الاستشفاء به من الأمراض المادية العضوية: لم يعرف عن عصر النبوة وعصر الصحابة. وكل ما عرف عن الصحابة: ما اقتبسوه من هدي نبيهم من الرقية بالقرآن وبالأدعية المأثورة، مثل ما صح في الحديث: «اللهم رب الناس! أذهب الباس. اشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما»، والرقية بالفاتحة وبالمعوِّذات ونحوها. وهذا بجوار الأخذ بالأسباب، ومراعاة سنن الله في دفع الداء وإزالته بما يلائمه من الدواء. فالمسلم الحق يتخذ الأدوية الروحية إلى جانب الأدوية المادية، ولا يلغيها.

لم يعرف عن الصحابة وتلاميذهم أنهم اشتغلوا بمداواة الناس بالقرآن وترك أدوية الأطباء. لم يفتح عمر، ولا علي، ولا ابن مسعود، ولا أبَي، ولا زيد، ولا ابن عباس، ولا ابن عمر، ولا مجاهد، ولا سعيد بن جبير، ولا الحسن، ولا عكرمة، ولا قتادة، ولا غيرهم من أهل القرآن، وعلماء الأمة: عيادات لمداواة المرضى وعلاجهم بالآيات القرآنية، كما يفعل بعضهم اليوم.

بل قال النبي ﷺ: «إنما الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، أو شرطة محجم، أو كية نار»[(١)].

ويلاحظ أن الحديث جاء بصيغة: (إنما) المفيدة للحصر، وهي تشير إلى أنواع المداواة، وهي: إما بالفم، أو الجراحة، أو الكي، ومثله العلاج بالكيماويات ونحوها.

وقد تداوى النبي ﷺ: بالأدوية المعروفة المختلفة، وأمر أصحابه بالتداوي بها. ولما سألته الأعراب عن التداوي، قال: «تداووا عباد الله، فإن الله ما أنزل داء إلا أنزل له شفاء»[(٢)]. ولما سئل عن الأدوية: هل تَرُدُّ من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قدر الله»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري وابن ماجه عن ابن عباس، صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٧٣٤).

(٢) رواه أبو داود (٣٨٥٥) والترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٤٣٦)، كلهم عن أسامة بن شريك.

(٣) رواه الترمذي (٢٠٦٥) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٣٤٣٧) وأحمد (٣/ ٤٢١) عن ابن أبي خزامة.

وهي كلمة نبوية تُعَدُّ غاية في الحكمة وبيان الحقيقة. فكما أن الأمراض من قدر الله، فالأدوية من قدر الله، فالله هو الذي قدَّر الأسباب، وقدر المسببات. والمؤمن الحق: هو الذي يدفع قدر الله، بقدر الله.

وقد أرشد النبي ﷺ بعض أصحابه للذهاب إلى (الحارث بن كلدة) الطبيب العربي المعروف، يطلب العلاج عنده.

أما قول الله تعالى عن القرآن: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ فصلت: ٤٤. فالمراد هنا: الشفاء المعنوي لا المادي والعضوي، شفاء العقول من الضلالة، والقلوب من العمى، ولذا قال في الآية الأخرى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ يونس: ٥٧. فبينت الآية: أن الشفاء، إنما هو (لما في الصدور)، أي أنه شفاء معنوي، يحمل الهداية للضالين، والنور للمتخبطين.

ولو أن المسلمين الأوائل ساروا على طريق هؤلاء الأواخر، الذين فتحوا (عيادات) يزعمون أنهم يعالجون الناس فيها بالقرآن، ما قامت للطب قائمة في الحضارة الإسلامية، ولا ظهر في الأمة عباقرة الأطباء، الذين طبقت شهرتهم الآفاق، وكانت كتبهم مراجع علمية عالمية لعدة قرون، ومنهم من جمع بين علم الطب وعلوم الدين، ونبغ في كل من المجالين، مثل (ابن رشد) صاحب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) في الفقه المقارن، وصاحب (الكليات في الطب)، الذي ترجم إلى اللاتينية، وانتفع به الأوربيون لعدة قرون. ومثل (الفخر الرازي) الذي كانت شهرته في الطب لا تقل عن شهرته في التفسير والأصول وعلوم الدين. ومثل (ابن النفيس) مكتشف الدورة الدموية الصغرى، الذي ترجم له ابن السبكي في طبقات الشافعية.

لقد عرف المسلمون ـ منذ عصر الصحابة ـ: أن بركة القرآن ليست في حمله، ولا تعليقه ولا تزيين البيوت به، ولا في الاستشفاء بآيات يتلوها شيخ أو مطوع، أو يكتبها في صحن ثم يمحوها ويشرب ماءها... إلخ هذه الغرائب... إنما بركة القرآن حقا في اتباعه والعمل به، وهو ما ذكره القرآن نفسه حين قال: ﴿ **وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ الأنعام: ١٥٥. فالبركة ـ كما تشير

الآية الكريمة ـ في اتباعه واتقاء الله به، وبهذا تُرجى رحمة الله أيضا: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

لا بديل إذن عن اتباع القرآن. كما قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ٣.

ومعنى اتباع القرآن: أن نجعله لنا إماما، يقودنا ونحن نمضي وراءه، لا أن نجعله خلفنا، ونتخذه وراءنا ظهريًا. فمن جعل القرآن أمامه: قاده إلى الجنة، ومن جعل القرآن وراءه: زخَّه في قفاه حتى يرديه في النار، وبئس القرار.

بل إن القرآن ليطالبنا: أن نتبع (أحسن ما أنزل إلينا من ربنا). ولا يكتفي بمجرد اتباع ما أنزل إلينا، يقول تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ الزمر: ٥٥.

وأثنى الله على قوم فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ الزمر: ١٧، ١٨.

وبهذا لا يقف الإنسان المؤمن عند (الحسن) فحسب، بل يرنو ببصره، ويتوق قلبه إلى (الأحسن).

وقد بين لنا القرآن: أن الله تعالى خلق هذا الكون بسماواته وأرضه، وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها، لهدف وحكمة، أن يبلونا ويختبرنا: أينا أحسن عملا.

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ هود: ٧. ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ الكهف: ٧. ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ الملك: ١، ٢.

تشير هذه الآيات: أن الاختبار الإلهي هنا، ليس المراد به أن يتبين المحسن من المسيء، بل المنشود: أن يعرف من الأحسن عملا؟ فالسباق ليس بين الحسن والسيئ، بل بين الحسن والأحسن منه.

ولا عجب أن رأينا القرآن: يأمر باستثمار مال اليتيم﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الأنعام: ١٥٢ والإسراء: ٣٤. ودَفْع السيئة ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ المؤمنون: ٩٦ وفصلت: ٣٤ . والجدال ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل: ١٢٥ . وذلك ليكون (الأحسن) في كل شيء، هو ما ينشده الإنسان المسلم القرآني.

إننا نريد أن يكون للقرآن تأثيره العملي في حياتنا، كما أثّر في حياة الصحابة والمسلمين الأوائل، وصنع منهم رجالا، والرجال قليل.

إن القرآن لم يعد ـ كما كان عند سلف الأمة ـ: مفجّر الطاقات، ومجنّد القدرات، وحافز الإرادات، بل أصبحت قراءته أو الاستماع له: للتسلية أو التلذذ بالألحان، وما عاد يحرك فينا ساكنا، حتى إننا لنسمعه من إذاعات أجنبية لا تؤمن بالقرآن، بل هي معادية للمسلمين، لأنها مطمئنة إلى أنه لم يعد ينبّه من الأمة غافلا، أو يحيي فيها مواتا.

وفي قصيدة قديمة لي، قلتها بمناسبة (ليلة القدر): ذكرت رسالة القرآن، وموقف المسلمين منها، وعنايتهم بالشكل لا بالجوهر من واجبهم نحو القرآن، فكان منها:

يا ليلة زانها ربي وشرفها	تنزيله في دجاها نور قرآن
دستور حق وتشريع وتربية	يبقى وإن زال هذا العالم الفاني
ربى رجالا ميامين اهتدوا وغَزَوْا	إن الرجولة من نور ونيران
أمسى بلال به من ذِلّة مَلكًا	وصار سلمان شيئا غير سلمان!
لله فتيان حق، لو رأيت فتى	منهم ترى مَلَكًا في زي إنسان!
هذا الكتاب غدا في الشرق واأسفى	شمسا تضيء، ولكن بين عميان!
يحاط بالطفل حِرْزًا من أذًى وردًى	وفيه حِرْزُ الورى من كل خسران!
يتلى على ميت في جوف مقبرة	وليس يحكم في حي بديوان!
فكيف نرقى، ومعراج الرقى لنا	أمسى يُجَر عليه ذيل نسيان؟!

الخلق القرآني:

ومن القيم الغائبة في حياة المسلمين - إلا من رحم ربك -: الخلق القرآني. وهو الذي وصفت به أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها: رسول الله ﷺ، حين سألها سائل: أخبريني عن خلق رسول الله، ﷺ، فقالت: إن خلق نبي الله كان القرآن(١).

ولله! درُّ عائشة: ما كان أبلغها وأصدقها وأروعها في هذه الكلمة الموجزة! التي لخصت بها السيرة المحمدية، والفضائل النبوية كلها.

فمن أراد أن يعرف: أخلاق محمد ﷺ، في حياته الخاصة والعامة، في تعامله في نهاره، وتعامله في ليله، تعامله مع ربه، وتعامله مع أهله، تعامله مع أصحابه، وتعامله مع أعدائه، تعامله في سلمه، وتعامله في حربه: فليفتح المصحف، ويقرأ فيه: أوصاف المؤمنين، والمتقين، والمحسنين، وأولي الألباب، وعباد الرحمن، وليقرأ أوامر الله تعالى ونواهيه، ليعرف من هذا كله: كيف كان محمد ﷺ؟.

وليقرأ سير الأنبياء السابقين، وما خصّهم الله به من فضائل ومكارم: ليعلم أن محمدا قد جمع الله له هذه المكارم كلها. فقد قال سبحانه له - بعد أن سرد عليه عددا من الرسل المقربين عند الله، بلغ ثمانية عشر رسولا -: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الأنعام: ٩٠. ولهذا أعلن ﷺ عن نفسه، وعن هدف رسالته فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٢).

ومن هنا جعله الله أسوة وإماما للمؤمنين، ليقتدوا به فيهتدوا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب: ٢١.

وكل مراقب لحياة المسلمين: يلاحظ أن عواطفهم نحو رسول الله ﷺ، عواطف جياشة بالحب، لا يذكر اسمه في مجلس: إلا ضجَّ بالصلاة والسلام عليه، ولاتكاد

---

(١) رواه مسلم في كتاب المسافرين. حديث (٧٤٦) كما رواه أصحاب السنن أيضا.

(٢) رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان. صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩).

توجد أسرة مسلمة: إلا وفي أبنائها محمد[1] أو أحمد أو غيرهما من أسمائه، ولا تمر ذكرى مولده أو هجرته في معظم ديار المسلمين: إلا احتفلوا بها.

ولكن أين هذا كله من خلق محمد، الذي هو خلق القرآن؟ وهو الذي تخلّق به أصحابه الكرام، وتلاميذهم من بعدهم، واقتبسوا من ضيائه، وتغذوا من غذائه، فكانوا بحق: خير أمة أخرجت للناس، وكانوا الشهداء على الناس حقا: بأخلاقهم وأعمالهم، لا بدعاويهم وأقوالهم. وهم بأخلاقهم القرآنية نشروا الإسلام في العالم»[2].

اتباع السنة بين الشكل والجوهر

إن السنة النبوية: هي المصدر الثاني للإسلام بعد القرآن، وقد أوجب الله طاعة رسوله واتباع سنته، حتى تنال محبة الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ آل عمران: ٣١.

ويقول: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ النور: ٥٤.

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ النساء: ٦٥.

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ النساء: ٨٠.

إن كثيرا من الذين يباهون بأنهم يحافظون على السنة، إنما يحافظون على شكلياتها، أكثر مما يحافظون على جوهرها.

حسن أن تهتم بالشكل والمظهر، فتعفي لحيتك، وتقصّر ثوبك، وتحمل في يدك أو في جيبك سواكا، ولكن ليس حسنا أن تجعل هذه الأشياء هي حقيقة السنة، أو هي الدين كله، كأنها من أركان الإيمان، أو مباني الإسلام، أو قواعد الإحسان.

---

(١) بل رأينا بعض الأسر يسمون كل أبنائهم محمدا، ثم يضيفون إليه اسما أو لقبا آخر، وقد يرقمون الأبناء محمد الأول، والثاني، إلى الرابع أو الخامس، كما رأيت في الهند، ونيجيريا.

(٢) انظر كتابنا: كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص٤٠٥ ـ ٤١٠ طبعة دار الشروق الثالثة.

وليس حسنا أن تتهم من لم يحافظ عليها بقلة الدين، أو بضعف اليقين، أو اتباع غير سبيل المؤمنين، وهي من التحسينيات في أمور الدين: لا من الضروريات ولا من الحاجيات، التي فصلها الراسخون من أهل الفقه والأصول.

وليس حسنا: أن تنسى ما أوصت به السنة من التيسير والتبشير، وما حذّرت منه من التعسير والتنفير، «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»(١).

وأن تذكر دائما الوعيد، وتنسى الوعد، وترهب من النار، ولا ترغّب في الجنة، وتحذر من غضب الجبار، ولا ترجّي في مغفرة الرحمن الرحيم.

ليس حسنا أن تغفل طريق رسول الله عليه وسلم، الذي كان يقلل التكاليف على الناس ما استطاع، وينهاهم عن كثرة السؤال، حتى لا يشددوا على أنفسهم فيشدد الله عليهم - كما فعل بنو إسرائيل مع موسى - يرغّب في الأخذ بالرخص تخفيفا وتيسيرا على خلق الله ويقول: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»(٢).

«إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه»(٣).

ويزجر من شدد على نفسه، فترك الرخصة وهو محتاج إليها كالذي صام وهو مسافر، والصيام شاق عليه، فقال له ولأمثاله: «ليس من البر الصيام في السفر»(٤).

واشتد نكيره على من نفَّر الناس بطول القراءة في الصلاة، وذلك عندما قال لمعاذ «أفتان أنت يا معاذ؟!!»(٥).

---

(١) متفق عليه من حديث أنس، اللؤلؤ والمرجان (١١٣٣١).

(٢) رواه أحمد وابن حبان والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، كما في صحيح الجامع الصغير (١٨٨٦).

(٣) رواه أحمد والبيهقي في السنن عن ابن عمر، والطبراني عن ابن عباس وابن مسعود، المصدر السابق (١٨٨١).

(٤) متفق عليه من حديث جابر، اللؤلؤ والمرجان (٦٨١).

(٥) رواه البخاري ومسلم من حديث جابر، اللؤلؤ والمرجان (٢٦٦).

وكان أشد الناس رفقا وإشفاقا على من أخطأ، وهو حديث عهد بالإسلام، أو من أهل البادية، ونحوهم: ممن لم يُتح لهم أن يتأدبوا بأدب أهل الحضر.

وهكذا عامل الأعرابي، الذي بال في مسجده: بروح المربي الرفيق، لا بعصا الشرطي الغليظة، وقال لأصحابه حين همُّوا به: «دعوه، لا تزرموه (أي لا تقطعوا عليه بوله). وصبوا عليه ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[1].

وأعظم من ذلك: أن يدعو إلى الرفق بأهل الخطيئة، إذا لمح في حناياهم بقايا الخير، وجذور الإيمان، فهو لا يقصر بصره على السطح الذي طفت عليه المعصية. بل ينفذ ببصيرته إلى الأعماق، فيجد فيها بذور اليقين والحب لله ورسوله.

وهذا ما قاله في شأن ذلك الصحابي، الذي ابتلي بشرب الخمر حتى أدمن، وضعفت إرادة الإيمان أمام مرض الإدمان، فأتي به مرة بعد مرة، سكران عند رسول الله ﷺ، فيضرب ويؤدب، ثم يعود فيشرب، فيؤتى به فيؤدب، فقال بعض الصحابة متبرما ضجرا: اللهم العنه! ما أكثر ما يؤتى به!

فما كان من رسول الله ﷺ - حين سمع الكلمة - إلا أن قال: «لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله»[2].

وفي حديث آخر قال: «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»[3].

هذا وهو شارب للخمر سكران، فكيف يُلعن أو يفسّق من لم يعف لحيته أو يقصّر ثوبه، أو صوّر له صورة فوتوغرافية أو زيتية، وهي من أمور اختلف الناس في حرمتها وحلّها قديما وحديثا، ولا يزالون مختلفين؟!

وليس حسنا دائما أن تضيق على الناس فيما وسّع الله عليهم فيه، وتفتيهم بالأثقل دائما، وتأخذهم بالأحوط أبدا، وتغيب عنهم الرخصة وهم أحوج شيء إليها.

---

(١) رواه البخاري و الترمذي من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري عن عمر في كتاب الحدود من صحيحه، باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة، حديث (٦٧٨٠).

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة، حديث (٦٧٨١).

فإن كنت تجهل السنة، فلمَ تُقحِم نفسك فيما لا تحسن، وتقول على الله ورسوله ما لا تعلم؟

ألم تقرأ: كيف أنكر النبي ﷺ، أشد الإنكار على قوم أفتوا رجلا أصابته جراحة: بضرورة الاغتسال من الجنابة، فاغتسل فمات، فقال عليه الصلاة والسلام: «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العيّ السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم» (١).

ما أبلغ هذه الكلمة «قتلوه قتلهم الله»! خبر عن جريمتهم، ودعاء عليهم! قتلوه: بفتواهم الجاهلة المعسّرة، وكان عليهم أن يسألوا، إذ لم يعلموا.

وإن كنت تعرف السنة، وما فيها من تيسير وسماحة ورفق، ولكنك تتبع طبيعتك الخاصة في التشديد والتغليظ، فأنت إذن متّبع لهواك، لا لهدي محمد ﷺ.

وإن كنت تحسب أن هذا هو الفقه، فقد خالفت الثقات الأعلام من سلف الأمة.

وحسبك ما جاء عن إمام الفقه والحديث والورع، سفيان بن سعيد الثوري، أنه قال: «إنما الفقه: الرخصة من ثقة. أما التشديد فيحسنه كل واحد» (٢).!

لقد قف شعر رأسي - حين سمعت أن واحدا من هؤلاء الذين يلصقون أنفسهم بالسنة - ذكر عنده داعية فاضل مجاهد، فقال: إنه فاسق! لا تؤخذ منه رواية، ولا تقبل له شهادة!

وأنا أعلم أن الرجل مسلم، ملتزم غيور على دينه، مؤدٍّ لفرائض ربه، حريص على اجتناب ما نهى الله عنه. فكيف وصف بالفسق، والله تعالى يقول: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾؟ الحجرات: ١١.

ثم عرفت أن سبب اتهام الرجل بالفسق: هو حلق اللحية، فحلق اللحية - في نظر ممثِّل الاتهام هذا - حرام قطعي.

---

(١) رواه أبو داود عن جابر، صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٢).

(٢) رواه الإمام النووي في مقدمات المجموع ج١ ص ٤٢.

قلت لمن نقل إليّ هذا الكلام: سلمنا أنه حرام، أليس من الصغائر التي تكفرها الصلوات والصيام والصدقات، بل يكفّرها مجرّد اجتناب الكبائر؟

قال محدثي: صاحبي كان يقول ذلك من قبل، ثم عدل عنه فقال: بل حلق اللحية من الكبائر والموبقات!!

وهذه قضية أخرى: مما سقط فيه الذين يفخرون بالانتماء إلى السنة، أو الحديث وأهله، وهي التوسع في (الكبائر) إلى درجة: أدخلوا فيها بعض الأمور المشتبهات التي اختلف فيها الكثير من الناس، ما بين محرّم وكاره ومبيح، والتي لم يفصل في حكمها نص محكم، صحيح الثبوت صريح الدلالة، مثل الغناء بآلة، وبغير آلة، وهو مجال خلاف طويل الذيول: بين السلف والخلف.

والمأثور عن الصحابة وممن تتلمذ عليهم: أنهم لم يكونوا يقولون عن شيء ما: «حرام»، إلا إذا علم تحريمه من دين الله جزما.

وهذا واضح من موقف الصحابة من شرب الخمر، فقد ظل عدد منهم يشربونها، برغم قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ البقرة: ٢١٩، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣.

ويقولون: «اللهم! بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا» حتى نزلت آية المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة: ٩٠.

فدل هذا على أن بيان الآيتين السابقتين: لم يكن شافيا لهم. ولا قاطعا في التحريم، لوجود بعض الاحتمال في الدليل. وهذا وأمثاله ما جعل علماءنا يقررون: أن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال، سقط به الاستدلال.

ولكن بعض الذين كتبوا في (الكبائر): أغفلوا هذه القاعدة، وأسرفوا في إدخال عدد من الأعمال في الكبائر، وهي محل خلاف، حتى في مجرد أنها حرام، بله أن تكون كبيرة، مثل خضب اللحية بالسواد، مع أن كثيرا من السلف خضبوا بالسواد.

بل أدخلوا في الكبائر: ما لم يثبت فيه حديث قط مثل (الشطرنج) الذي لم ينقل إلى المسلمين، إلا بعد العصر النبوي.

بركة السنة:

أخطأ المسلمون ـ في بعض عصور التخلف الثقافي الحضاري ـ: حين توهّموا أن بركة الحديث النبوي في مجرد قراءته، ولا غرو أن نجدهم عندما تعصف بسفينتهم رياح المحن، وتحيط بهم أمواج الشرّ من كل مكان، من عدو كافر يغير على ديارهم، أو حاكم فاجر يسلط على حرماتهم، أو أزمة خانقة تهدد حياتهم، يلجئون إلى صحيح البخاري يقرءونه في المساجد، يرجون أن ينزل الله به النصر، أو يفرّج به الكرب.

وقد نقل المؤرخون من ذلك الكثير.

وهذا أمر لم يكن من هدي سلف الأمة، من الصحابة ومن تبعهم بإحسان في خير القرون.

إنما بركة السنة ـ كبركة القرآن ـ في اتباعها، والعمل بها، الاهتداء بهداها، واتخاذ الأسوة من هدي صاحبها، عليه الصلاة والسلام.

يقول تعالى في شأن القرآن: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٥.

فبركة القرآن الكريم: في اتّباعه، واتقاء الله تعالى بالعمل به، لتكون على رجاء رحمة الله تعالى، والسنة هي شقيقة القرآن.

وهل كان رسول الله، ﷺ، عند الشدائد: يكتفي بمجرد تلاوة القرآن، ويدع إعداد العدة، واتخاذ الأسباب، والعمل الواعي الدءوب لمواجهة الموقف؟

هذا؛ مع أن من خصائص القرآن: أنه مُتَعَبَّد بتلاوته، وكل حرف يُتلى منه: بعشر حسنات، بخلاف السنّة.

ولكن ما المقصود باتباع السنة؟ أهو اتباع الجوهر، أم الشكل وحده؟ أهو التشبث بالأصول، أم التعلّق بالفروع؟ أهو العناية بآداب الظاهر أكثر من غيرها، أم التركيز على تزكية الأنفس وأعمال القلوب؟؟

دعوى من قال: ليس في الدين شكل وجوهر:

لكم ساءني حين قرأت لبعض الشباب المتحمس - في معرض دفاعه عن تحريم حلق اللحية، وتأثيم كل حليق - حمله بقسوة على الذين يقولون: إن في الدين شكلا وجوهرا، وصورا وحقائق، كأنما يرى: أن أحكام الدين وتعاليمه، كلها في منزلة واحدة، لا يفترق بعضها عن بعض.

وهذا الفهم مخالف للقرآن والسنة، وما جاء عن سلف الأمة.

فالقرآن الكريم يأخذ على اليهود: التفاتهم إلى الرسوم والأشكال في أمر الدين، واعتبارهم ذلك هو حقيقة البرّ أو التدين، وإهمالهم حقيقة البر التي تتمثل في صدق الإيمان، وفعل الخير، وإخلاص العبادة، والتحلي بمكارم الأخلاق، وفي ذلك جاء قوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ البقرة: الآية: ١٧٧.

ويعتبر القرآن أن محور النجاة في الآخرة: هو سلامة القلب وإنابته إلى الله تعالى: **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾** الشعراء: ٨٨، ٨٩.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ سورة ق: ٣١ - ٣٣.

ومن قرأ أوصاف عباد الله، المقبولين عنده في القرآن، سواء سماهم المؤمنين أم المتقين، أم عباد الرحمن، أم أولي الألباب، أم غير ذلك: عرف بيقين ماذا يحب الله من عباده وأوليائه. إنها صفات تتعلق كلها بجوهر الإنسان لا بشكله، اقرأ في ذلك - إن شئت - أوائل سورة البقرة، أو أوائل سورة الأنفال، أو أوائل سورة المؤمنون، أو أواخر سورة الفرقان، أو أواسط سورة الرعد، وغيرها: تعرف حقيقة الإنسان، الذي ينشده القرآن.

والسنة كالقرآن في ذلك، فتركيزها على الجوهر لا على المظهر، على نيات القلوب، قبل أعمال الجوارح.

ولعل هذا هو الذي جعل الإمام البخاري: يبدأ جامعه الصحيح بالحديث المشهور: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله: فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها: فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وتبعه في ذلك كثير من المصنفين، دلالة على أهمية النية وراء الأعمال.

وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

كما روي أيضا من حديث أبي هريرة: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، وأشار إلى صدره، بحسب امرئ من الشرّ: أن يحقر أخاه المسلم»[3].

وروى الشيخان، من حديث النعمان بن بشير: «ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت: صلح الجسد كله، وإذا فسدت: فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[4].

والسنة تحذّر كل التحذير: من الاهتمام بصور العبادة، على حساب روحها، وهو الإخلاص لله فيها، وأداؤها كما يحب ويرضى.

وفي هذا جاء الحديث: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[5].

والحديث الآخر: «رُبَّ صائم، ليس له من صيامه إلا الجوع، وربّ قائم، ليس له من قيامه إلا السهر»[6].

---

(١) هو الحديث الأول في صحيح الإمام البخاري.
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة (٢٥٦٤).
(٣) رواه مسلم.
(٤) روياه بألفاظ متقاربة، من طرق، كما قال النووي في الرياض (٥٨٦).
(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الصوم.
(٦) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ـ صحيح الجامع (٣٤٨٨).

كما تؤكد السنة كل التأكيد: العناية بالأخلاق، تحلّيًا بالفضائل، وتخلّيًا عن الرذائل، حتى إن رسول الله، ﷺ: ليجعل ذلك غاية رسالته « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق، أو مكارم الأخلاق »[1].

ويقول: « أثقل شيء في الميزان - يوم القيامة - خلق حسن »[2].

ويوصي أبا ذر فيقول: « اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن »[3].

لقد صحّ في الحديث، عن رسول الله ﷺ: « إن الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»[4].

وصحّ أيضا: « الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: « لا إله إلا الله وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق »[5].

وبين أعلى الشُّعب - التي نيّفت على السبعين - وأدناها: يقع كثير من الأعمال التي تزكو بها النفس، أو ينتفع بها الفرد، أو تسعد بها الأسرة، أو ينهض بها المجتمع، أو ترقى بها الأمة، أو يستفيد من ورائها العالم.

فالإيمان في السنة - كما هو في القرآن -: ليس كلمة يتفوه بها اللسان، ولا دعوى يدّعيها الإنسان، ولا ظواهر براقة، تُخفِي تحتها بواطن منتنة، إنما الإيمان عقيدة راسخة تستقر في قلب صاحبها، فتثمر في حياته: ربانية خالصة، وإنسانية فارعة، وأخلاقا فاضلة، وأعمالا صالحة.

---

(١) رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي كما رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد، صحيح الجامع (٢٤٦).
(٢) ابن حبان عن أبي الدرداء. صحيح الجامع الصغير (١٣٤) ونحوه عند الترمذي والبيهقي (١٣٥).
(٣) رواه أبو داود والترمذي وأحمد والبيهقي في الشعب عن أبي ذر، وأحمد والترمذي والبيهقي عن معاذ، صحيح الجامع (٩٧).
(٤) متفق عليه عن أبي هريرة، اللؤلؤ والمرجان (٢١).
(٥) رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبي هريرة، كما في صحيح الجامع الصغير (٢٨٠٠).

الإيمان: كلمة طيبة، كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين، بإذن ربها.

وقد لفت ـ الحديث المذكور في (تشعيب) الإيمان، وتفريعه إلى بضع وستين أو بضع وسبعين شعبة ـ أنظار علماء الأمة، فرأينا منهم من حاول استقصاء هذه الشعب، التي دلت عليها نصوص القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم.

وألف في ذلك الإمام البيهقي (ت٤٥٨) كتابه الكبير: (الجامع لشعب الإيمان) واختصره من بعده أبو المعالي القزويني: في جزء.

وفي رحاب هذه الشعب الفساح: يتنافس أهل الإيمان، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

٢ـ من الكلام والجدل
إلى العطاء والعمل

من مظاهر المراهقة في الصحوة: التشدق بالكلام، وكثرة القيل والقال فيما لا يبني ولا يجدي، على حساب العمل المنتج البنَّاء، الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض.

ولهذا المرض: عدة أعراض، نتحدث عن أهمها هنا:

الكلام عن أمجاد الماضي:

من المواقف السلبية، التي ينبغي أن تتجاوزها الصحوة: الإسراف في الكلام عن الماضي، والتغنِّي بأمجاده، وما كان لنا فيه من مآثر ومناقب: دون أن يتحول ذلك إلى عمل، في تحسين الحاضر وتطويره إلى ما هو أفضل، بغية أن يكون يوم المسلم خيراً من أمسه، وغده خيراً من يومه.

لا أعني هنا: أن ينسى الإنسان ماضيه، وألا يذكر مآثره، فهذا غير محمود شرعا، ولا عرفا، ولا عقلا، والإنسان يولد، وهو يحمل في إهابه: مواريث أمته، وخصائص فصيلته وأسرته، وليس من المعقول: أن يبدأ يومه منفصلا عن أمسه، ولا من المقبول: أن يتخلَّى عن مجد آبائه وأجداده، وقد قال النبي ﷺ يوم حنين:

أنا النبيُّ لا كذب   أنا ابن عبدالمطلب[1]

وقال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى هاشما من قريش، واصطفاني من هاشم»[2].

ومع هذا، قال: «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»[3].

الكلام عن أمجاد الماضي حسن، إذا كان بقدر ما يدفعنا إلى مواصلة السير في طريق الأمجاد، وأن يكون لنا دور في صنع الأمجاد، لا في مجرد الحديث عنها.

---

(١) رواه مسلم (١٧٧٦) عن البراء بن عازب.
(٢) رواه مسلم والترمذي عن واثلة.
(٣) رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة.

وقديما قال الشاعر العربي:

إنَّا وإن كرمت أوائلنا ... لسنا على الآباء نتّكل

نبني كما كانت أوائلنا ... تبني، ونفعل مثلما فعلوا

وقال الآخر:

كن ابن من شئت، واكتسب أدبا ... يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول: ها أنذا ... ليس الفتى من يقول: كان أبي!

وقال غيره:

لئن فخرت بآباء ذوي حسب ... لقد صدقت، ولكن بئس من ولدوا!

الكلام عن أخطاء الماضي ومآسيه:

ومثل ذلك في السلبية: الكلام عن الماضي، وما فيه من مآس، و محن، واجترار هذه الذكريات المريرة، دون السعي الإيجابي في تلافيها، أو تلافيً وقوع أمثالها.

والمرء إذا عاش في هذا الجو القاتم: لم يقدِّم شيئا لنفسه ولا لدينه، إلا التحسّر على ما فات، والوقوعَ في أسْر «لو» المتحسِّرة، و «ليت» المتمنية، وقد قال الشاعر:

ليت شعري، وأين منّيَ «ليتٌ»؟ ... إنّ «ليتًا» وإنّ «لوًا» عناء!

وقال الآخر:

وليس براجعٍ ما فات منّي ... بـ«لهف» ولا بـ«ليت» ولا «لوانّي»!

وقال الرسول ﷺ، وهو يرشدنا إلى معاني القوة، ويحذّرنا من أسباب الضعف: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ولا تقل، لو أني فعلت كذا: لكان كذا، ولكن قل: قدّر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»(1)، وقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ سورة آل عمران: ١٥٦.

---

(١) رواه مسلم في القدر عن أبي هريرة (٢٦٦٤).

الكلام عن أخطاء الآخرين:

ومثل ذلك: الحديث عن أخطاء الآخرين، والإسراف في ذكرها، ولوك اللسان بها تحت عنوان: « النقد »، أو « النصيحة »، أو غير ذلك من العناوين.

ولكن النقد شيء، والغيبة شيء آخر. والنصيحة شيء، والتشهير شيء آخر.. وهناك من يبحث عن الأخطاء، كأنها هواية عنده، فهو يفرح بها إذا وجدها ويضخّمها إذا عرضها، وهو يذكر دائما الخطأ، ولا يذكر أبدًا الصواب، وينشر المساوئ، ولا ينشر المحاسن في مقابلها، ويرى القذى في عين غيره، ولا يرى الخشبة في عينه هو! وطوبى لمن شغله عيبه، عن عيوب الناس.

وكان أولى من مهنة البحث عن الأخطاء، وتجسيمها وتجريح أصحابها، وتزكية النفس ـ صراحة أو ضمنا ـ بالسلامة منها: أن نقوم نحن بعمل إيجابي، وإن لم يخل من أخطاء، فمن يعمل ويخطئ: خير من القاعد الذي لا يعمل شيئا، إلا نقد العاملين. ولله درّ أبي الطيب حين قال: وكل اغتياب، جهد من لا له جهد!

والعجيب: أننا نوجّه سهام النقد إلى غيرنا، بدعوى النصيحة والإشفاق والحرص، والتواصي بالحق، إلى غير ذلك، ولكننا لا نرحب بنقد غيرنا إيانا، مع أن العاقل: يستفيد من نصح صديقه، ونقد عدوّه معا، لأن الصديق ينظر إليه بعين الرضا، فقد لا يبصر فيه كثيرا من العيوب، على حين ينظر العدو بعين السخط، فيبصر المساوئ ويتحدث بها.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، يقول: « رحم الله امرءا أهدى إليّ عيوب نفسي ».

الجدل العقيم:

ومن السلبيات المذمومة كذلك: الاشتغال بالجدل العقيم، في مسائل لا يجدي الجدال فيها شيئا، إلا إيغار الصدور، وتضييع الأوقات، والإلهاء عما هو أجدى، وهو الذي أطلقوا عليه قديما: اسم (الجدل البيزنطي)، حيث زعموا: أن أساقفة بيزنطة ورهبانها، ظلوا زمنا طويلا يتجادلون في موضوع: أيهما خلق أولا: الدجاجة أم البيضة؟ أي هل وجدت البيضة، ثم فقست وانبثقت عنها دجاجة، أم الدجاجة وجدت، ثم خرجت منها البيضة؟ وظلوا على هذا الجدل، حتى فوجئوا

بالمسلمين يفتحون مدينتهم ويدخلون عليهم، وهم لا يزالون يتجادلون دون الوصول إلى نتيجة!

وسواء صحّت هذه الحكاية أم لم تصح، فإن هذا النوع من الجدل موجود في الواقع، ولا يزال بعض الناس مولعين به. وهو الذي حذر منه النبي ﷺ، حين قال: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل»(1)، ثم تلا ﷺ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف: ٥٨.

وقال بعض السلف: إذا أراد الله بقوم شراً، رزقهم الجدل، وحرمهم العمل.

ومن الناس من يحتَدُّ في جدله: إلى حدّ اللَّدَد في الخصومة، وهو الذي قال فيه الرسول الكريم: «إن أبغض الرجال إلى الله تعالى: الألَدّ الخصم»(2). وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ البقرة: ٢٠٤.

وقد يبلغ اللّدد في الخصومة ببعض الناس حتى تراه يحاول أن يقلب الباطل حقا، والحق باطلا، كما قال تعالى ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ غافر: ٥.

ولهذا: أمر القرآن بجدال المخالفين بالتي هي أحسن، أي بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأجودها وأمثلها، على معنى إذا كانت هناك طريقتان للجدال - أي للحوار - إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، فإن القرآن يأمرنا أن يكون جدالنا وحوارنا: بالطريقة التي هي أحسن وأجود.

والجدال بهذه الطريقة، وهذه الصورة: عمل إيجابي بنَّاء، لأنه يقنع العقول، ويقرب القلوب، ويوضح الحقائق، بدون إثارة ولا تهييج لعداوة المخالفين.

ومما يدخل في هذا الجدال العقيم: الانشغال بالمسائل الخلافية بين العلماء، والتي لم تحسم في أي عصر من العصور، وضيقُ الصدر بها، وتبني رأي منها، ثم محاولة إبطال الآراء الأخرى، وشن الغارة عليها، وإشعال المعارك حولها، مع أنها موجودة منذ القرون الأولى، التي هي خير قرون هذه الأمة، وقد وسعتها صدورهم وعقولهم، ولم يضق بعضهم ببعض ذرعا، ولم يحاولوا يوما أن يمحو

---

(1) رواه الترمذي عن أبي أمامة في أبواب تفسير القرآن (٣٢٥٠) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة برقم (٤٨).

(2) متفق عليه عن عائشة. اللؤلؤ والمرجان (١٧٠٧).

هذا الخلاف، كما يحاول بعض المتدينين في أزماننا. بل وَسعَ بعضُهم بعضا، وصلى بعضهم خلف بعض، وعاشوا بنعمة الله إخوانا، كما أمَرهم الله تعالى.

ولو شاء الله تعالى: أن يجمع الناس على رأي واحد، لأنزل كتابه كله آيات محكمات، لا تحتمل إلا تفسيرا واحدا، ووجها واحدا، ولجعل أدلة الدين كلَّها نصوصا قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، فلا مجال فيها لاجتهاد ولا اختلاف.

ولهذا: سيظل الناس يختلفون، في كل ما ليس بقطعي من أمر الدين، وهو معظم الدين، وسيظل الراسخون في العلم: يأخذون بما ترجّح لديهم من الأقوال والآراء، ولا ينكرون على غيرهم: ما ترجّح لديهم من أقوال تخالفهم، فلغيرك من حق الاجتهاد والترجيح: مالك. ولا يجوز للمسلم: أن يترك رأيه الذي اقتنع بأنه الحق والصواب، لرأي غيره بالغا ما بلغ، وهو مسئول أمام الله جل شأنه، عن رأيه واجتهاده هو، وأن يدين به لا بغيره.

ولا ينبغي: أن يحاول بعضنا - ولو كان مخلصا - رفع الخلاف في العلم والفقه، فإن هذه المحاولة تزيد الخلاف، وتوسع دائرته. كما قلنا للذين يحاولون أن يمنعوا التمذهب بأي مذهب لكل الناس، وعلى كل المستويات: إنكم لم تزيدوا على أن تكوّنوا مذهبا جديدا، يضاف إلى المذاهب القديمة.

الخوض في الأغاليط:

ومن السلبيات المنهي عنها هنا: البحث عن (أغاليط المسائل). ويراد بها: صعاب المسائل التي لا ينبني عليها عمل أو لا يترتب عليها تصحيح عبادة أو معاملة، أو توضيح فكرة، أو إقامة حجة أو إزالة شبهة. وقد جاء في الصحيحين مرفوعا: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة أسئلتهم، واختلافهم على أنبيائهم» يشير إلى ما ذكره الإمام الشاطبي من قصة أصحاب البقرة. فقد روي عن ابن عباس أنه قال: «لو ذبحوا بقرة ما لأجزأتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم، حتى ذبحوها وما كادوا يفعلون.

وقال الربيع بن خيثم: يا عبدالله: ما علمك الله في كتابه من علم: فاحمد الله، وما استأثر عليك به من علم: فكلْهُ إلى عالمه، ولا تتكلف، فإن الله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ص: ٨٦.

وعن ابن عمر ؛ قال : لا تسألوا عما لم يكن ، فإني سمعت عمر يلعن من سأل عما لم يكن .

وفي الحديث : أنه عليه الصلاة والسلام ، «نهى عن الأغلوطات» [1] فسره الأوزاعي ، فقال : يعني صعاب المسائل .

وذكرت المسائل عند معاوية ، فقال : أما تعلمون : أن رسول الله ﷺ ، نهى عن عضل المسائل؟

وعن عبدة بن أبي لبابة ؛ قال : وددت أن حظِّي من أهل هذا الزمان : أن لا أسألهم عن شيء ولا يسألوني ، يتكاثرون بالمسائل ، كما يتكاثر أهل الدراهم بالدراهم .

وورد في الحديث « إياكم وكثرة السؤال » [2] .

وسئل مالك عن حديث : « نهاكم عن قيل وقال ، وكثرة السؤال » فقال : أما كثرة السؤال : فلا أدري أهو ما أنتم فيه مما أنهاكم عنه ، من كثرة المسائل ، فقد كره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، وقال الله تعالى : ﴿ **لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ** ﴾ المائدة : ١٠١ . فلا أدري : أهو هذا ، أم السؤال في الاستعطاء؟

وعن عمر بن الخطاب ، أنه قال على المنبر : أحرج بالله كل امرئ ، سأل عن شيء لم يكن [3] ، فإن الله بين ما هو كائن .

وقال ابن وهب : قال لي مالك ـ وهو ينكر كثرة الجواب للمسائل ـ : يا عبدالله : ما علمته فقل به ودُلَّ عليه ، وما لم تعلم : فاسكت عنه ، وإياك أن تتقلد للناس : قلادة سوء .

وقال الأوزاعي : إذا أراد الله أن يحرم عبده بركة العلم : ألقى على لسانه الأغاليط .

وعن الحسن ، قال : إن شرار عباد الله : الذي يجيئون بشرار المسائل ، يعنتون بها عباد الله .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن معاوية . وإسناده حسن .

(٢) روى البخاري من حديث المغيرة « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع هات ، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» .

(٣) يريد الافتراضات الصرفة أما ما يقع في العادة فإن الشريعة تكفلت به لا ينقصها منه شيء ، وهذا معنى قوله « فإنّ الله قد بين ما هو كائن» .

وقال الشعبي: والله! لقد بغَّض هؤلاء القوم إليَّ المسجد، حتى لهو أبغض إليَّ من كناسة داري! قلت: من هم يا أبا عمر؟ قال: الأرأيتيون! قال: ما كلمةٌ أبغضُ إليَّ من «أرأيت».

قال الشاطبي:

«والحاصل: أن كثرة السؤال، ومتابعة المسائل بالأبحاث العقلية والاحتمالات النظرية: مذموم. وقد كان أصحاب رسول الله، ﷺ قد وُعظُوا في كثرة السؤال، حتى امتنعوا منه. وكانوا يحبون أن يجيء الأعراب فيسألوا، حتى يسمعوا كلامه. ويحفظوا منه العلم»[1].

الثرثرة الفارغة:

ومن المذموم هنا كذلك: الثرثرة الفارغة، والتشدق بالقول، وملء المجالس بالكلام الخالي من الفائدة.

ولهذا كان من أخلاق المؤمنين في القرآن: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ المؤمنون: ٣.

واللغو: كل كلام لا فائدة فيه، ولا جدوى من ورائه: في دين ولا دنيا.

وقال تعالى ـ في الثناء على قوم مؤمنين ـ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ القصص: ٥٥.

ولقد بين لنا رسول الله، ﷺ ـ في بعض أحاديثه ـ أحب الناس إليه، وأبغض الناس إليه، فقال: إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني في الآخرة: أحاسنكم أخلاقا. وإن أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني في الآخرة: أسوؤكم أخلاقا، الثرثارون، المُتفَيهقُون المتشدِّقون»[2].

قال المنذري: الثرثار: هو الكثير الكلام تكلّفا. والمتشدق: هو المتكلم بملء فيه تفاصحا.

---

(١) الموافقات (٤/ ٣١٦، ٣١٧)، وقد افضنا الحديث عن قضية (الأغاليط) في كتابنا (كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف؟).

(٢) رواه الترمذي (٢٠١٩) عن جابر وقال: حديث حسن.

والمتفيهق: أصله من الفهق والامتلاء. وهو بمعنى المتشدق؛ لأنه الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه إظهارا لفصاحته وفضله، واستعلاء على غيره. ولهذا فُسِّر في إحدى الروايات بـ (المتكبر).

كما مدح النبي، ﷺ: الحياء و (العيّ)، وذمَّ البذاء والبيان، كما في الحديث الذي رواه أبو أمامة: «الحياء والعيّ: شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان: شعبتان من النفاق»[1].

قال الحافظ المنذري: والعيّ: قلة الكلام. والبذاء: هو الفحش في الكلام.

والبيان: هو كثرة الكلام، مثل هؤلاء الخطباء: الذين يخطبون فيتوسعون في الكلام، ويفصحون فيه: من مدح الناس فيما لا يرضي الله. انتهى.

وفي حديث آخر: «إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه، كما تتخلل البقرة بلسانها»[2].

والمراد بالبلاغة هنا: تزويق ظاهر الكلام، وإن خالف الباطن، والتصنُّع فيه إرضاء للناس.

القول المخالف للفعل:

ومن المذموم هنا بلا ريب: الكلام الذي لا يتبعه عمل، أو القول المخالف للفعل، فقوله مُشَرِّق، وفعله مُغَرِّب. وهو الذي أنكره القرآن بشدَّة في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ الصف: ٢، ٣.

ومثل هذا المسكين: تكذّب أفعاله أقواله، وتقيم الحجة عليه عند خصومه، ولاسيما إذا كان ممن نصب نفسه لدعوة الناس إلى الخير، وأمْرِهم بالمعروف،

---

(١) رواه الترمذي في البر وقال: حسن غريب (٢٠٢٨) والحاكم وصححه على شرط الشيخين (١/ ٥٢) ووافقه الذهبي، كما يبدو من تعليقه على شاهده.

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٦٥، ١٨٧) وأبو داود (٥٠٠٥) والترمذي وحسنه (٢٨٥٧) كلهم عن عبد الله بن عمرو.

ونهْيهم عن المنكر، وهو ما أنكره الله تعالى على بني إسرائيل، في كتابه الخالد حين قال: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾البقرة: ٤٠ـ٤٤.

ولهذا يقول الناس ـ لمن أمرهم بالبر والخير، ونسي نفسه ـ ما قاله الشاعر العربي قديما: (وهو ينسب لأبي الأسود الدؤلي):

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم؟
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى	كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهتْ عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك ـ إذا فعلت ـ عظيم

ومن هنا: كان واجب الذين نصبوا أنفسهم للدعوة: أن يكونوا أمثلة عملية للناس بأخلاقهم وسلوكهم، لا بمجرّد أقوالهم ودعاويهم، فما أكثر الدعوى، وما أعزّ المعنى!

والمسلمون الأولون: لم ينشروا الإسلام بالخطب، ولا بالرسائل والكتب، وإنما نشروه: بحسن الأخلاق، واستقامة السلوك، وحب الخير للناس، وبذل المعروف لهم، وكف الشر عنهم. وبهذا أحبهم الناس، وأحبوا الدين الذي رباهم على هذه الفضائل، ودعاهم إلى هذه المكارم، فدخلوا في دين الله أفواجا، طائعين غير مكرهين.

ضرورة العمل:

إن الصحوة الإسلامية: يجب أن تشغل نفسها وفكرها ووقتها: بالعمل والعطاء، لا بالجدال والمراء. وهذا ما يفرضه الإسلام على المسلم في كل حين، وخصوصا في أوقات المحن والفتن، التي تصيب الأمة، وتذر الحليم فيها حيران.

يقول الرسول، ﷺ: «إن من ورائكم أيام الصبر. الصبر فيهن: مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله. وفي بعض الروايات: قالوا: منا أو منهم؟ قال: بل منكم»[1].

ويقول الله تعالى في كتابه، مخاطبا رسوله: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التوبة: ١٠٥.

ولقد اختلف علماء الكلام وغيرهم، في مكان العمل من الإيمان: أهو جزء منه، أو شرط له، أو مكمل له؟ ولكن الشيء الذي لا خلاف عليه: أن الإيمان الصادق، لا يتحقق إلا بالعمل.

ولهذا رأينا القرآن الكريم: يعرض الإيمان في صورة أعمال، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المؤمنون: ١ ـ ٩.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ الأنفال: ٢ ـ ٤.

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١) والترمذي في التفسير (٣٠٦٠) وابن ماجه في الفتن (٤٠١٤) كلهم عن أبي ثعلبة الخشني، وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الحجرات : ١٥ .

وفي أحيان أخرى : يقرن القرآن العمل بالإيمان ، وذلك في عشرات الآيات ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ الكهف : ٣٠ . ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر : ١ ـ ٣ .

وفي سياق آخر : يجعل دخول الجنة بالعمل : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ الزخرف : ٧٢ . ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل : ٣٢ .

واعتبرت السنة النبوية : الأعمال الصالحة (شعبا) للإيمان ، كما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » [1] .

وقد ألَّف الإمام البيهقي كتابا كبيرا ، سماه : (الجامع لشُعَبِ الإيمان) ، فصَّل فيه هذه الشُّعَب : بما ورد فيها من القرآن والحديث .

أيكم أحسن عملا:

ومما يحسن التنبيه عليه هنا : ما أشار إليه القرآن العظيم ، في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ وقد ورد هذا التعبير ثلاث مرات ، في كتاب الله .

في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ هود : ٧ .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ الكهف : ٧ .

وفي قوله سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ الملك : ٢ .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة (٣٥، ٥٨) ورواه البخاري دون (فأفضلها . . إلخ) .

ومعنى هذه الآيات الكريمة: أن الله جل شأنه خلق هذا العالم علويه وسفليه، بسماواته وأرضه، وجعل ما على الأرض زينة لها، وخلق الموت والحياة، لحكمة بالغة، عبّر عنها بقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي ليمتحنكم ويختبركم: أيكم أحسن عملا. لم يقل: ليبلوكم: أيكم يعمل صالحا، وأيكم يعمل سيئا. فكأنّ الاختبار المقصود هنا، ليس للتمييز بين الحسن والسيئ، بل بين الحسن والأحسن. وهذا ما تفيده عبارة: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ و﴿ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فهم يتنافسون في هذه (الأحسنية) المطلوبة.

ولهذا لم يطلب الإسلام مجرد عمل، بل يطلب العمل المتقن، ويجعل إحسان العمل: فريضة دينية، كما قال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة: ١٩٥. وقال ﷺ: « إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة »[١]، وكلمة (كتب): تستعمل في القرآن لما هو فرض مؤكد، كما في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ البقرة: ١٨٣.

ولهذا: رأينا الصحابة في عهد النبوة، يتنافسون في عمل الصالحات، ويتسابقون في الخيرات، حتى بين الفقراء والأغنياء. فعن أبي ذر؛ رضي الله عنه: أن ناسا من أصحاب رسول الله، ﷺ، قالوا للنبي: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالأجور: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم! قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة »[٢].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: أن فقراء المهاجرين، أتوا النبي ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العُلى والنعيم المقيم فقال: « وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! فقال رسول الله ﷺ: « أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل صنيعكم؟» قالوا: بلى، يا

---

(١) رواه مسلم عن شداد بن أوس برقم (١٩٥٥) وهو من أحاديث الأربعين النووية الشهيرة.
(٢) رواه مسلم (٧٢٠، ١٠٠٦).

رسول الله! قال: « تسبحون وتكبرون وتحمدون - دبر كل صلاة -: ثلاثا وثلاثين مرة » قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله، ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله! فقال رسول الله، ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[1].

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

العمل المطلوب:

ليس المهم أن نعمل، ولكن المهم أن نعمل صالحا، كما هو شأن (الذين آمنوا وعملوا الصالحات). المهم أن نحسن العمل، بل نسعى إلى العمل الأحسن، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك: ٢، ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الإسراء: ٥٣، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فصلت: ٣٤، ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الأنعام: ١٥٢. فالمسلم لا ينشد العمل الحسن فحسب، بل العمل الذي هو أحسن:

ومن إحسان العمل: أن نعمل الشيء في إبَّانه، وفي موضعه، فلا نعمله قبل أوانه، ولا نؤخره عن أوانه، وبهذا علمنا الإسلام دقة التوقيت في الصلاة والصيام: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ النساء: ١٠٣. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ البقرة: ١٨٧.

ومن إحسان العمل: أن نقدم ما حقه التقديم، ونؤخر ما حقه التأخير، ونضع كل عمل في مرتبته التي وضعها له الشرع، فلا نقدم النافلة على الفريضة، ولا الفرع على الأصل، ولا نقترف حراما لنفعل مندوبا، أو نضيع فرضا لنتجنب مكروها. أو نقدم فرض الكفاية على فرض العين، أو نقدم فرض الكفاية الذي قام به عدد كاف: على فرض الكفاية الذي لم يقم به أحد، أو لم يقم به من يكفي ويغني. أو نقدم فرض العين المتعلق بحق الأمة، على فرض العين المتعلق بحق الأفراد... وهكذا.. وهذا ما سميته: (فقه الأولويات).

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٨٤٣، ٦٣٢٩) ومسلم (٥٩٥).

ومن المهم هنا كذلك: أن يكون عملنا محدد الهدف، واضح الغاية، فإن المسلم لا يعيش لغير غاية، ولا يعمل شيئا اعتباطا. كما أن علينا أن نحدد بوضوح - ما استطعنا - طريقنا إلى تحقيق أهدافنا، في ضوء ظروفنا وإمكاناتنا، مراعين قاعدة التدرج، والعمل بالمراحل، بحيث تسلم كل مرحلة إلى ما بعدها، حتى تصل إلى الغاية المنشودة. ومن سار على الدرب وصل، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

العمل للدين والدنيا معا:

ومن الواجب هنا: أن ندرك أن العمل للدنيا جزء من العمل بالدين. وأننا إذا أضعنا دنيانا، فلن يبقى لنا دين.

إن ميزة الإسلام: أنه لم يفرق بين الدنيا والآخرة، ولم يقم عداوة بينهما، كيف، وقد كان النبي ﷺ، أكثر ما يدعو بدعاء القرآن الجامع: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ البقرة: ٢٠١.

وجعل القرآن إعطاء الدنيا وطيباتها وزينتها: بعض جزاء المؤمنين، يعجله لهم قبل الجزاء الأوفى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ آل عمران: ١٤٨. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل: ٩٧.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ نوح: ١٠ - ١٢.

والعمل إذن: ليس مطلوبا في أمر الدين وحده، بل هو مطلوب كذلك في أمر الدنيا، فمن أراد أن يعيش في الدنيا عيشة طيبة، ويحيا حياة حسنة: فلا يمكنه أن يتوصل إلى ذلك إلا بالعمل. ولذا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ النحل: ٩٧.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ الملك: ١٥.

فمن استجاب لأمر الله تعالى، ومشى في مناكب الأرض التي ذللها الله له، والتمس رزقه في خباياها: كان خليقا أن يأكل من رزق الله فيها، ومن تكاسل وتقاعس وقعد في قعر بيته، ولم يمش في مناكب الأرض: كان حريا أن يحرم من رزق الله.

ذلك: أن الله تعالى أقام هذا الكون على سنن يجب أن تراعى، وعلى شبكة متوازنة من الأسباب والمسببات، فكل سبب استوفى مقوماته، وشرائطه، ولم يقم مانع يمنع تأثيره: فإنه يفضي إلى مسببه قدرا وشرعا.

ومن هنا رأينا الصحابة وتابعيهم بإحسان، حينما أخذوا بأسباب النصر، واستوفوا شروطه الدينية والدنيوية، المادية والروحية، استحقوا النصر على أعظم إمبراطوريات الأرض.

ورأينا: أن حضارة الإسلام حينما أخذت بأسباب الرقيّ والتقدم العلمي، والإبداع المادي. أقامت أرقى حضارة في العالم، تعلمت منها الدنيا كلها، وجمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين الروحانية والمادية، ووصلت الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة.

العمل السياسي وحده، لا يكفي:

ومن فصائل الصحوة الإسلامية من يجعل أكبر همه: العمل السياسي، واستغراق الجهود في تجنيد الأفراد له، وتعبئتهم الفكرية والشعورية والتنظيمية، ضد الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، ويغفل عن ألوان كثيرة من العمل النافع والضروري والممكن، مثل العمل الفكري، والعمل التربوي، والعمل الاجتماعي.

وهذه الأعمال: ليست منفصلة عن العمل السياسي، بل هي مقدمات لازمة له، إذ لا بد من تكوين قاعدة جماهيرية عريضة، تناصر العمل السياسي الإسلامي، وتؤيد المطالبة بالحكم بما أنزل الله، كما لا بد من تحرير (النخبة المثقفة): من رواسب الغزو الفكري، التي غرسها في عقولها الاستعمار الثقافي إبّان سطوته وسيطرته على ديار الإسلام. وذلك من خلال خطاب علمي موضوعي معاصر، يلائم

ثقافتها، ويخاطب عقولها، ويناقش أصولها الفكرية التي اعتمدت عليها، ولا يكتفي بمخاطبتها بما تخاطب به الجماهير التي تكفيها الموعظة الحسنة، وتحركها الكلمة المخلصة. وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إبراهيم: ٤.

فلا بد للعالم والداعية: أن يخاطب خواص المثقفين، بغير ما يخاطب به عوام المسلمين، فلهؤلاء لسان، ولأولئك لسان، وكل ينبغي أن يكلَّم بلسانه حتى يبين له.

ولا بد كذلك من تربية جيل مسلم واع لدينه، فاهم لدنياه، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مستقيم الأخلاق، قادر على البناء والعطاء، صالح في نفسه، مصلح لغيره، وكل أولئك لازم لنجاح العمل السياسي.

ومن المهم هنا: ألا تضيع جهود الدعاة وأوقاتهم وطاقاتهم المتنوعة في (الصراع مع الحكام)، والدخول في معارك غير مجدية، ليس وراءها إلا تبديد القوى، وتعطيل الطاقات، وشغل الأمة بعضها ببعض. وبذلك تقر أعين القوى المعادية للإسلام وأمته، والتي زرعت فتيل الفتنة بينهم، وأغرت بعضهم ببعض، لتجعل بأسهم بينهم، وتقف هي متفرجة مسرورة بما أنتجه كيدها لهم، ومكرها بهم.

والواجب على أهل الدعوة: أن يبحثوا كيف يُفوِّتون عليها غرضها، وأن يفتحوا باب الحوار مع عقلاء الحكام، للتفاهم على ما فيه خير الدين والوطن، ما وجد إليه سبيل: ولو في الحدود الدنيا [١].

العمل العسكري، لمن لا يقدر عليه:

ومن فصائل الصحوة: من يرى أن العمل المفيد، والعمل الوحيد، الذي لا عمل غيره، ولا فائدة للنجاح سواه، هو العمل العسكري، شعارهم قول أبي تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حده الحدُّ بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

---

(١) انظر حديثنا عن هذا الحوار في كتابنا: (أولويات الحركة الإسلامية).

ويحتج بعضهم بالحديث الصحيح المشهور: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

قالوا: إننا لا نرضى لأنفسنا المرتبة الدنيا: مرتبة التغيير بالقلب، وهي أضعف الإيمان، بل ولا المرتبة الوسطى وهي التغيير باللسان. إنما نطمح إلى المرتبة العليا، التغيير باليد.

ونسوا أن كل مرتبة من المراتب الثلاث: إنما شرعت لمن يقدر عليها. فالتغيير باليد: لكل ذي سلطان في سلطانه، كالأب مع صغار أولاده، وكذلك كل ولي - في غيبة الأب - مع من يلي عليهم، والزوج مع زوجته، باعتبار أن الرجال قوامون على النساء، والرجل راع في أهل بيته وهو مسئول عن رعيته.

ومثل ذلك الحاكم في دائرة حكمه، وصاحب الشركة في حدود شركته.

فهؤلاء: لهم حق التغيير بالقوة، بل هو عليهم واجب.

ومن المقرر فقها: أن المنكر يُسكت عنه، إذا ترتّب على محاولة تغييره بالقوة منكر أكبر منه.

ولهذا ليس العمل العسكري أو التغيير بالقوة: كلأ مباحا، يرعاه كل من شاء، متى شاء، وإن ترتب عليه سفك الدماء، وهدم البناء، وبقاء الحال على ما كان، بل ربما زاد الطين بلة، والداء علة.

ولقد تعلمنا من التاريخ ومن الواقع: أن محاولة الخروج المسلح على الحكام - من فعل أفراد أو جماعات -: باءت كلها بالإخفاق والفشل، وخلفت وراءها ضحايا بغير ضرورة، وسنعرض لهذا بتفصيل أكثر في حديثنا عن العنف.

المعوقات عن العمل المنشود:

ولا بد لدعاة الإسلام: من العمل وبذل الجهد، من أجل التغلّب على العقبات في الطريق، والمعوقات عن العمل المنشود: لتمكين دين الله في دنيا الناس.

ولا نزاع أن هناك عوائق خارجية، وعوائق داخلية.

---

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري (٤٩)، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

فالعوائق الخارجية: تتمثل في القوى التي تكيد للإسلام، وتتربص بأهله، وتبذل الأنفس والأموال للحيلولة دون تحقيق نمائه، ونشر ضيائه، وتكتل أبنائه، وقوة علمائه، وصلاح أمرائه، وبذل أغنيائه.

وهذا أمر متوقع، وقد نبهنا عليه القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ البقرة: ٢١٧.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ الأنفال: ٣٦.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة: ٣٢.

وهذا بيِّنٌ معروف لكل الدارسين، من تعاون القوى المعادية للإسلام على المسلمين، وتداعيها عليهم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، كما صورهم الحديث النبوي المعروف. وكما نجد ذلك مجسدًا في الصهيونية العالمية، والصليبية الغربية، والوثنية الشرقية، والشيوعية الإلحادية، والفلسفة الإباحية، والاتجاهات العلمانية، ونحوها.

ولكن الذي أحب أن أركز عليه هنا: هو العوائق الداخلية، ولا سيما العوائق المعنوية منها: الفكرية والدينية والنفسية خاصة.

عائق اليأس من جدوى العمل:

أول هذه العوائق المعنوية: اليأس من جدوى العمل.

فمن المسلمين المتدينين من يدع العمل، لأنه يائس من مستقبل أي عمل إسلامي، وأن العمل الإسلامي كله: زرع بلا حصاد، وغرس بلا ثمر.

يقول هذا الصنف: لقد مضت عشرات السنين على الحركة الإسلامية، ولم نرها في بلد واحد حققت أهدافها، وأنجزت موعودها، بل نراها تضرب من خارجها، أو تتآكل من داخلها. فما قيمة عمل لا يحقق نتائجه المرجوة منه؟ وما فائدة غرس تقضي عليه الآفات قبل إثماره؟ الخلاصة: أن العمل الإسلامي لا مستقبل له!

وردنا على مقولة هؤلاء: من عدة أوجه:

أولا: أن اليأس ليس من شيمة المؤمن أبدا، وإن اكفهر الجو من حوله، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، يقول تعالى على لسان يعقوب: ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ يوسف: ٨٧ . وقال على لسان جده إبراهيم: ﴿ **قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ** ﴾ الحجر: ٥٦ .

فالمسلم الحق: لا ييأس ولا يقنط، وهو يعلم أن مع اليوم غدا، وأن مع العسر يسرا، وأن بعد الليل فجرا، وأن دوام الحال من المحال، وأن كثيرا من حقائق اليوم كانت أحلام الأمس، فلا غرو: أن تصبح أحلام اليوم، حقائق الغد.

وقد قال الشاعر:

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة   إن استعنت بصبر أن ترى فرجا

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته   ومُدمن القرع للأبواب أن يلجا

ثانيا: أن المؤمن لا يعمل لمجرد النجاح والانتصار، وإنما يعمل امتثالا لأمر الله تعالى، وقياما بحق عبوديته له، وابتغاء لمرضاته.

فإن تحقق له ـ مع ذلك ـ النجاح في مسعاه، والانتصار في معركته، فهو خير وبركة، وفضل من الله ونعمة.

وإذا لم يتحقق ذلك: فحسبه أنه أدى واجبه، وبلّغ رسالته.

وقد قلت في كتابي: (الحل الإسلامي فريضة وضرورة):

« إن الله لا يسأل الناس يوم القيامة: لماذا لم تنتصروا، ولكن سيسألهم لماذا لم تعملوا؟ ».

وكم رأينا من أصحاب الرسالات: من الأنبياء والمؤمنين، من خر شهيدا من أجل دعوته، ولم يحقق في حياته آماله من ورائها.

وحسبنا في ذلك المؤمنون، الذين أشار القرآن إلى قصتهم في سورة البروج فقد استشهدوا عن آخرهم، إحراقا بالنار التي لا ينبغي أن يعذِّب بها إلا الله، ولكن بقي ثباتهم وصبرهم في سبيل الله مثلا يحتذى، وعبرة تحكى للأجيال، ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ البروج: ٤ ـ ٩ .

وفي سورة الأعراف: قصة فيها عبرة أي عبرة، لكل داعية إلى حق لا يجد قبولا له في أنفس الناس من حوله، كما نرى من خلال الحوار الذي سجله القرآن بين اليائسين من نتيجة الدعوة والموعظة، والمؤمنين بوجوب الدعوة على أي حال، يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ سورة الأعراف: ١٦٤، ١٦٥. فهؤلاء الدعاة قاموا بالدعوة؛ إعذارًا إلى الله، وأملا في استجابة الآخرين ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وهكذا كانت عاقبة المصرِّين على الموعظة والدعوة، الناهين عن السوء: النجاة من العذاب البئيس، الذي أخذ الظالمين والساكتين.

ثالثا: أن من الظلم البين، والإجحاف الصارخ: أن يقال: إن الدعوة الإسلامية لم تحقق أي هدف لها، وأن العمل الإسلامي باء بالإخفاق الكامل، وأن جهوده خلال تلك العقود ذهبت سُدًى.

وحسبنا من ثمار العمل الإسلامي: هذه الصحوة الإسلامية المعاصرة، التي شرّقت وغربت، وأثرت في العقول والمشاعر والإرادات، وبرز أثرها في الرجال والنساء، وخصوصا الشباب والشابات، وكان لها تأثيرها في مجالات الحياة المختلفة: في الالتزام بالفرائض والعبادات، في الأخلاقيات والسلوكيات، في التزام المرأة بالحجاب. في الاقتصاد والسياسة، في الجهاد والتحرير، في التربية والثقافة، في الدعوة والإعلام، في الصحافة والإذاعة والقنوات الفضائية، وثراء المكتبة الإسلامية في تخصصات شتى.

وفي قيام منظمات إسلامية كبيرة في مجالات مختلفة، مثل: منظمة المؤتمر الإسلامي، والبنك الإسلامي للتنمية، والمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، والمصارف الإسلامية في عدد من الأقطار، وجمعيات العمل الخيري الإسلامي وغيرها..

وكان من آثارها: قيام دولة شيعية، تعلن الالتزام بالإسلام في إيران.

وأخرى سنِّية، تعلن الالتزام بالإسلام في السودان.

وانتصار الإسلام على الشيوعية، في أفغانستان، والمقاومة الإسلامية في فلسطين ولبنان.

وازدهار الدعوة الإسلامية: بين الأقليات الإسلامية، في الغرب والشرق.

عائق المثالية الحالمة:

وهناك أناس لا يعملون؛ لأنهم يعيشون في عالم مثالي، وفي دنيا النظريات الطوباوية، لا يخرجون منها، يريدون أن يبدأ الشيء كاملا، وأن يولد الإنسان شابا، وأن يولد القمر بدرا، وأن تثمر الشجرة منذ توضع البذرة، وهكذا يريدون أن يولد العمل الإسلامي عملاقا، لا يمر بمراحل النمو، ولا يتعرض لأمراض البيئة، وآفات الحياة، ومتاعب الطريق الطويل.

فهم لا يعجبهم العجب، ولا الصيام في رجب، كما يقول المثل. وهم للأسف لا يعملون، ولا يدعون العاملين يعملون.

كل ما لديهم لسان طويل، على ذراع قصيرة، وبراعة في النقد، وإخفاق في العمل، وهمة في الهدم، وقعود عن البناء.

أكبر هم هؤلاء: تتبع العثرات والأخطاء للعاملين، وتجميعها من هنا وهناك ثم النظر إليها من خلال مجهر مكبر مقرب، فإذا الحبة قبة، وإذا النملة فيل!

لا يلتمسون لعامل عذرا، ولا يحسنون بأحد ظنا، ولا يقدرون للظروف المحيطة قدرها، ولا يعرفون أن للضرورات أحكامها.

وهؤلاء لأنهم لا يعملون، تجدهم لا يخطئون، لأن الخطأ نتيجة الاجتهاد في العمل

وهؤلاء الإخوة الطيبون مغرورون، غرتهم الأماني، وغرهم بالله الغرور.

فالذي يعمل وفق ما هداه إليه اجتهاده وإن أخطأ معذور، بل مأجور عند الله تعالى، له أجر الاجتهاد، إذا حرم أجر الإصابة للحق.

والخطأ عادة: إنما يكون في الوسائل والكيفيات، التي تتطور بتطور الحياة، وتغير الأوضاع، وتبدل الزمان والمكان والإنسان.

أما المهم: فهو تحديد الأهداف بما يتفق مع نصوص الإسلام ومقاصده الكلية، وقواعده العامة، ثم ليجتهد كل في تحقيقها بما يهديه الله إليه، مهتديا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مستفيدا من تراث السابقين، وتجارب اللاحقين، ملتمسا الحكمة من أي وعاء خرجت، غير مغلق على نفسه بابا يمكن أن يدخل عليه منه الضياء والهواء.

أما أن يدع العمل، ويقف متفرجا على العاملين، يوسعهم نقدا وذما، فما أجدر أن نذكّره بقول الشاعر:

أيها الناقد أعمـال الورى	هل أريت الناس: ماذا تعمل؟
لا تقل عن عمل: ذا ناقص	جـئ بأوفى، ثم قل: ذا أكمل
إن يغب عن ليل سار قمر	فحـرام أن يـلام المشعل!

وفي الحديث الصحيح: «إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكُهم»[1]، روي بضم الكاف وفتحها. ومعنى الحديث بضم الكاف: أنه أكثرهم وأشدهم هلاكا، لغروره بنفسه، وإعجابه بعمله، وسوء ظنه بالآخرين. فقوله هذا يتضمن تزكية مبطنة لشخصه.

ومعناه بفتح الكاف: أنه هو الذي أهلكهم، أي تسبب في هلاكهم باستعلائه عليهم، ويأسه منهم، وسوء ظنه بهم.

ولهذا اتفق العلماء والشُّرَّاح: على أن هذا الذم، إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس، واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، فأما من قال ذلك تحزنا لما يرى في نفسه وفي الناس، من النقص في أمر الدين: فلا بأس عليه.

قال الإمام الخطابي: معناه: لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساوئهم، ويقول: فسد الناس وهلكوا، أو نحو ذلك، فإذا فعل ذلك: فهو أهلكهم، أي أسوأ حالا منهم، بما يلحقه من الإثم في عيبهم، والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه، ورؤيته أنه خير منهم.

---

(١) رواه مسلم في البر عن أبي هريرة (٢٦٢٣).

دور أحاديث الفتن وأشراط الساعة:

ومن جماهير المتدينين المسلمين: من يَدَعِ العملَ لنصرة الإسلام وتمكينه في الأرض، بدعوى أننا اليوم في آخر الزمان، وفي عصر (الفتن) التي تذر الحليم حيران.

وعلى المسلم في زمن الفتن أن يسعه بيته، ويبكي على خطيئته، ويعنى بخويصة نفسه، ويدع أمر العامة أو الجمهور، فالشر أقوى من أن يقاوم، والخير أضعف من أن يصمد، والباطل يزداد ظهورا، والحق يختفي أمام طغيانه. والساعة على وشك القيام.

ويستند هؤلاء إلى أحاديث نبوية، وردت في أبواب (الفتن) و (أشراط الساعة): من كتب الحديث. فهموا منها ألا فائدة في أي محاولة للإصلاح، أو أي جهد يبذل للتغيير.

وقد ناقشنا هذه الأفهام المغلوطة للأحاديث، في مواضع من كتبنا، مثل حديث: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء» رواه مسلم. وحديث: «لا يأتي على أمتي زمان، إلا والذي بعده شرٌّ منه» رواه البخاري. وبينًّا أن الرسول الكريم: لا يمكن أن يوئس المسلمين من العمل لإصلاح حالهم، وتغيير ما بأنفسهم ليغير الله ما بهم. كيف وقد أمر المسلم أن يعمل لصلاح دنياه إلى آخر رمق في الحياة، في حديثه البليغ: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة (نخلة صغيرة)، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»[١].

فليغرسها، والساعة تقوم، وهو لن ينتفع بها ولا أحد من بعده، ليظل المسلم عاملا في الحياة معطاء لها حتى تلفظ آخر أنفاسها. فإذا كان هذا موقفه من العمل للدنيا، فهل يكون الدين عنده أهون من الدنيا، حتى يدع العمل له، والدعوة إليه، بمجرد ظهور الفتن والفساد؟

ولقد بينت في رسالتى (المبشرات بانتصار الإسلام) من وسائل ترشيد الصحوة: الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، المبشرة بمستقبل هذا الدين، والقاضية بأن الغد له ولأمته، فلا يجوز أن ندع هذه النصوص المحكمات ببعض المتشابهات، ولا أن نغفل الأدلة القطعية ببعض الظنيات المؤولات.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٤١) والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٨٦) عن أنس بن مالك.

الاتجاه إلى العمل بدل الانتظار:

لقد آن للتفكير عندنا أن يتغير من انتظار عبقريٍ فذٍّ موهوب يصنع المعجزات، ويتخطى المستحيلات: للتوجه إلى حركة شعبية جماعية، تقوم بقيادة سفينة التغيير والإصلاح.

لقد كنا ننتظر دائما هذا المنقذ الفرد، سواء على المستوى السياسي، أم على المستوى الديني.

وعلى المستوى السياسي: نجد الجماهير معلقة أبدا بزعيم ملهم، يقود مسيرتها في معركة التحرير أو معركة البناء.

وعلى المستوى الديني: ننتظر دائما (مهديا) أو (مجددا) واحدا، تبعثه العناية الإلهية، ليقوم عن الناس بإصلاح ما أفسد الدهر.

وطالما سادت هذه الفكرة عند أقوام كثيرين، حتى تحرروا منها، وأخذوا يتحملون المسئولية: أمام الله، والناس، والتاريخ.

كان اليهود من قديم: ينتظرون (قدوم مسيح) ترسله السماء، ليخرجهم من الشتات والضياع، ويقيم لهم ملك إسرائيل الموعود.

وظلوا قرونا ينتظرون هذا المسيح الموعود، حتى ظهرت الحركة الصهيونية العالمية، لتقوم هي بدور المسيح، وتعد العدة لإقامة ملك إسرائيل، وأمكنها أن تحقق الحلم، على حسابنا، بل على أنقاضنا، في فلسطين. وإن كان بعض اليهود المتدينين يرون أن ظهور هذه الدولة مضاد لدينهم، ومعارض لقضاء الله عليهم أن يظلوا مشتتين، ولذلك يؤمنون بأن هذه الدولة ستزول حتمًا.

وكان الشيعة الاثنا عشرية من اثني عشر قرنا، ينتظرون عودة (الإمام الغائب) يملأ الأرض عدلا، كما ملئت ظلما وجورا، يقيم لهم الدولة التي طالما حلموا بها، وكان كل ما يصنعون أن يدعوا الله له في صلواتهم وخطبهم: أن يفرج الله عنه، ويرد غيبته.

ثم تغير تفكير القوم، حين طفق الإمام الخميني يدعو إلى ما سماه (ولاية الفقيه) نيابة عن الإمام، ومضى العمل جادا دائبا حتى قامت الثورة الإسلامية، والجمهورية الإسلامية في إيران.

وعند كثير من المسلمين من أهل السنة، ينتظرون المهدي الذي يملأ الأرض عدلا، بعد أن ملئت جورا، ويسمونه (المهدي المنتظر). فهم يرتقبون ظهوره، ليحل العقد المزمنة، ويعالج المشاكل العويصة، ويحارب الأعداء الأقوياء، ويحرر الأمة من ظلم الحكام، وحكم الظُّلاَّم.

والآن، قد ثار تيار الصحوة على مفهوم (الانتظار)، لتخرج إلى مفهوم العمل والعطاء المتواصل.

إن (الانتظار): أمر سلبي لا يغير من الواقع شيئا، فلا بد من عمل إيجابي، ولا بد أن يكون هذا العمل جماعيا، ولا بد أن يستند إلى قاعدة جماهيرية كبرى. فإن يد الله مع الجماعة، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.

من يجدد الدين؟

وأود أن أناقش قضية، كثيرا ما فهمت خطأ، وهي قضية (تجديد الدين) وانتظار (مجدد) فرد يجود به القدر الأعلى على الناس، دون جهد منهم ولا عمل من جانبهم، ليجدد لهم دينهم الذي ضيعه منهم من ضيعه، وأضعفه منهم من أضعفه.

وحجتهم في ذلك: الحديث الشهير، الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة: من يجدد لها دينها»[1].

وقد ذهب أكثر شُرَّاح الحديث: إلى أن المجدد (فرد متميز) تبعثه العناية الإلهية، لتجديد الدين وإحيائه وتقويته. وقد حددوا بالفعل المجددين وسموهم على رأس القرون الهجرية، واتفقوا أحيانا، كما في مجدد المائة الأولى الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز (ت١٠١هـ)، ومجدد المائة الثانية الإمام الفقيه محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ)، ومجدد المائة الخامسة الإمام أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، ومجدد المائة السابعة الإمام تقي الدين بن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ) واختلفوا في مجددي المئات الأخرى.

---

(١) رواه أبو داود في الملاحم عن أبي هريرة (٤٢٩١) وصححه عدد من الأئمة.

ولكن هناك رأي معتبر: ذهب إليه عدد من كبار الشُّرَّاح، كابن الأثير والذهبي، يقول: إن كلمة (من) في الحديث المذكور تصدق على (الجمع) كما تصدق على (الفرد). فلماذا نحملها على المفرد فقط؟ والأولى أن تحمل على الجمع هنا. فقد يكون المجدد أكثر من واحد، في أكثر من بلد، وأكثر من مجال. فقد يجدد بعضهم في مجال العلم، وبعضهم في مجال العمل، بعضهم فقيه، وبعضهم قائد مجاهد، وبعضهم حاكم عادل، وبعضهم داعية بليغ، وبعضهم مرب مؤثر.

وأنا أقول: قد يكون المجدد جماعة، أو مدرسة فكرية أو دعوية أو تربوية، أو جهادية، تعمل في مجال أو أكثر لإصلاح المجتمع، وتغيير حال الأمة، وتجديد دينها: تجديد الفهم له، والإيمان به، والعمل به، والعمل له، والدعوة إليه.

وأرى أن هذا الفهم لا يخرج عن مفهوم الحديث: «يجدد لها دينها»، ولكنه يوسع دائرة التجديد ويعمقها.

وهذا الفهم الواسع للحديث: يخرج الأمة من السلبية، أي من مجرد الانتظار، فبدل أن يكون سؤال المسلم هنا: متى يظهر المجدد؟ يكون سؤاله: ما دوري في حركة التجديد؟ فالتجديد قائم عن طريق الجماعات، والحركات الداعية إلى الإسلام ـ على تفاوتها في الأهداف والمناهج، وقربها أو بعدها عن الرشد والصواب، أو الأرشد والأصوب ـ وعلى المسلم أن يختار المدرسة التي ينتمي إليها، والجماعة التي يعمل من خلالها، متعاونا مع إخوانه: على البر والتقوى، متواصيا بالحق والصبر.

منتظرو الدولة الإسلامية:

وشبيه بهؤلاء (المهدويين): الذين يوقفون كل سائر، ويجمدون كل متحرك، حتى تقوم (الدولة الإسلامية)، وعلى رأسها خليفة المسلمين، وأمير المؤمنين!

فلا جهاد لعدوٍّ، حتى تقوم الدولة الإسلامية.

ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، حتى تقوم الدولة الإسلامية.

ولا قيام بعمل إصلاحي في المجتمع، من معالجة مريض، أو إطعام جائع، أو رعاية يتيم، أو إيواء مشرد، حتى تقوم الدولة الإسلامية!

بل يرون فعل الخيرات، وتضميد الجراحات، وسد جوعات الجائعين، ومسح دموع المحزونين من البشر: معوقا للدعوة الإسلامية، ومُؤَخِّراً لقيام الدولة الإسلامية!

وهذا هو رأي (حزب التحرير). وقد سمعته شفاها من عدد من قادتهم في الأردن، حينما زرته لأول مرة في صيف سنة ١٩٥٢م، وناقشوني فيه مناقشة حامية الوطيس، وكنت في مقتبل الشباب، منتقلا إلى السنة النهائية بكلية أصول الدين، واستنكروا أشد الاستنكار: أن يشغل أصحاب الدعوة أنفسهم بغير الدعوة.

وكان ردي عليهم يتلخص في الحجج التالية:

١ـ أن فعل الخير: جزء من مهمة المسلم في الحياة، كما أمره الله. فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ الحج: ٧٧، ٧٨. فعلاقة المسلم بربه: العبادة، وعلاقته بمجتمعه: فعل الخير، وعلاقته بأعدائه: الجهاد في الله. وفعل الخير داخل في قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٢. ولا يسع المسلم أن يعيش في قرية لا يجد مرضاها العلاج، أو لا يجد أيتامها الكفالة، أو لا يجد فقراؤها القوت، ثم يقف متفرجا، لا يمد إليهم بالعون يدا، ولا يضمد لهم جرحا، ولا يمسح دمعة! حتى تقوم الدولة المسلمة!

٢ـ أن هذا يعد جزءاً من نشر الدعوة أيضا، فنشر الدعوة لا يتخذ صورة المحاضرة أو الحديث أو الكتاب فقط. فإن مما يحبب فكرتك إلى الناس أن تقدم إليهم عملا صالحا، أو تسدي إليهم معروفا، فتفتح قلوبهم لحبك، وعقولهم لفهمك، وآذانهم للإصغاء إليك. وقديما قالوا: الإنسان أسير الإحسان. وقال أبو الفتح البستي:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمو فطالما استعبد الإنسان إحسان!

وروي عن الإمام الشافعي قوله:

اللهم! لا تجعل لفاجر عليّ مِنَّة، فتجعل له في قلبي محبة!

ولقد رأينا إرساليات التبشير المسيحي: تعتمد اعتمادا كثيرا على هذا الأسلوب، فتؤسس مشروعا خيريا أو مستشفى أو نحو ذلك، لتَنْفُذ من ورائه: إلى نشر العقيدة الكاثوليكية، أو البروتستانتية.

كما أن في هذه الأعمال الاجتماعية: مجالا للتعرف على أحوال الناس، ودراسة مشكلاتهم، والاتصال اليومي معهم، وهذا مهم لأصحاب الدعوات.

٣- ليس كل أعضاء الحركة الإسلامية: قادرين على نشر الدعوة باللسان، أو القلم. فإن مواهب الناس تختلف، وقدراتهم تتنوع، ولا عجب أن تجد كثيرين قادرين على العمل الاجتماعي، غير قادرين على العمل الفكري أو الثقافي أو الدعوي، فمن الخير: أن يُشغل هؤلاء بما يناسب استعدادهم وخبراتهم، بدل أن يتركوا في فراغ، فيملوا أو يفتروا، أو ينقطعوا.

٤- أن هناك هدفا بعيدا: هو الهدف الأساسي، وهو إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي، وهذا الذي ينبغي أن ينال القسط الأول من الاهتمام والجهود. ولكن بجواره أهداف قريبة يمكن تحقيقها بجهود أقل، دون أن تؤثر على الأهداف الأساسية. وقد ضربت لذلك مثلا: ببستان يغرس صاحبه فيه الشجر والنخيل، وهذا هو الهدف الأساسي منه. ولكن حيث كانت بعض الأشجار تظل عدة سنين حتى تثمر. فإن البستاني الناجح هو الذي يستغل الأرض في زراعة بعض الخضراوات السريعة الإنتاج، فيستفيد ويفيد، ما دام ذلك لا يعوق خدمة الهدف الأساسي، وهو الأشجار والنخيل»[1].

لا بديل عن العمل:

والحق أنه: لا بديل عن (العمل) والعمل الدائب، والعمل المستطاع، لخدمة الإسلام، وإعلاء كلمته، ونصرة شريعته، وتوحيد أمته، وتحريرها وتطويرها.

وهو عمل في جملة ميادين، كل منها يستغرق جهودا وجهودا.

إنه العمل مع النفس، والعمل مع الأسرة، والعمل مع المجتمع.

---

(١) انظر كتابنا: الحل الإسلامي فريضة وضرورة ص٢٢١، ٢٢٢ طبعة الرسالة.

العمل مع المسلمين، والعمل مع غير المسلمين.

إنه العمل بالإسلام، والعمل للإسلام.

العمل باللسان، والعمل بالقلم، والعمل باليد، والعمل بالفكر، والعمل بالبذل.

العمل في الدعوة، والعمل في التربية، والعمل في الثقافة، والعمل في الاقتصاد، والعمل في خدمة المجتمع.

إنه العطاء المتجدد، من كلٍّ حسبَ طاقته، ولا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، عطاء بالمعروف حقا على المؤمنين.

حسن البنا والعمل:

ولم أر من الدعاة المصلحين في عصرنا: من أشاد بالجانب العملي، ودعا إلى العمل وأكده، بكل أنواعه، وعلى كل مستوياته، وفي كل مجالاته، مثل الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

لقد كان حريصا كل الحرص: على الجانب العلمي، والثقافي، في حركته وتربية إخوانه، ولهذا جعل (الفهم) هو الركن الأول في أركان (البيعة)، التي تعني الالتزام الصادق بالجماعة وأهدافها، ومناهجها، ولكنه كان حريصا كل الحرص، كذلك على ألا يعيش أبناؤه ورجال دعوته، في الآفاق النظرية وحدها، وألا يستهلكهم الجدل في المثاليات والفرعيات، والخلافيات، التي لا تنتهي، وكان كثيرا ما يذكر الحديث النبوي الشريف، الذي رواه الترمذي عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ؛ أنه قال:

«ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل»[1].

ومن هنا: جعل (العمل) أحد أركان البيعة، وجعل له عدة مجالات حيوية، بعضها يعمل فيه الأخ المسلم فردا، وبعضها يعمل فيه بوصفه عضوا في الجماعة، حتى إنه سمى الصفوة من جنوده، ورجال فكرته: (الإخوان العاملين) فاختار وصف (العمل)، على أي وصف آخر.

---

(١) رواه الترمذي في أبواب تفسير القرآن برقم (٣٢٥٠) وقال: حسن صحيح.

مراتب العمل السبع:

لنقرأ شرحه لمعنى (العمل) ومجالاته، كما ذكره في رسالة (التعاليم)، يقول: «وأريد بالعمل: ثمرة العلم والإخلاص: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التوبة: ١٠٥.

ومراتب العمل، المطلوبة من الأخ الصادق، هي:

١- **إصلاح نفسه حتى يكون:** قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادرا على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهدا لنفسه، حريصا على وقته، منظما في شئونه، نافعا لغيره، وذلك واجب كل أخ على حدته.

٢- **تكوين بيت مسلم،** بأن يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام في كل مظاهر الحياة المنزلية، وحسن اختيار الزوجة، وتوقيفها على حقها وواجبها، وحسن تربية الأولاد والخدم، وتنشئتهم على مبادئ الإسلام، وذلك واجب كل أخ على حدته كذلك.

٣- **وإرشاد المجتمع،** بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرذائل والمنكرات وتشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائما، وذلك واجب كل أخ على حدته، وواجب الجماعة كهيئة عاملة.

٤- **وتحرير الوطن:** بتخليصه من كل سلطان أجنبي - غير إسلامي - سياسي، أو اقتصادي، أو روحي.

٥- **وإصلاح الحكومة** حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة، وأجير عندها، وعامل على مصلحتها، والحكومة إسلامية: ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفرائض الإسلام، غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه.

ولا بأس بأن تستعين بغير المسلمين عند الضرورة: في غير مناصب الولاية العامة، ولا عبرة بالشكل الذي تتخذه ولا بالنوع، مادام موافقا للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي[1].

---

(١) انظر: كتابنا (من فقه الدولة في الإسلام) نشر دار الشروق.

٦ـ **وإعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية**، بتحرير أوطانها، وإحياء مجدها، وتقريب ثقافتها، وجمع كلمتها، حتى يؤدي إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة.

٧ـ **وأستاذية العالم** بنشر دعوة الإسلام في ربوعه، ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ البقرة: ١٩٣. ﴿**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ**﴾ التوبة: ٣٢.

وهذه المراتب الأربع الأخيرة: تجب على الجماعة متحدة، وعلى كل أخ باعتباره عضوا في الجماعة، وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات، يراها الناس خيالا ويراها الأخ المسلم حقيقة، ولن نيأس أبدا، ولنا في الله أعظم الأمل ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ يوسف: ٢١.

ونراه في (الأصول العشرين)، التي وضعها لتكون أساسا لوحدة الفهم عند العاملين للإسلام: يحذّر من الأغلوطات، والمسائل النظرية والجدلية التي تستهلك الجهود والأوقات، ولا يترتب عليها عمل نافع، فنراه يقول في (الأصل التاسع):

« وكل مسألة لا ينبني عليها عمل، فالخوض فيها: من التكلف الذي نهينا عنه شرعا، ومن ذلك: كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية، التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم، وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته، وجزاء نيته، وفي التأول مندوحة »[(١)].

ثم نراه بعد ذلك في نهاية رسالة (التعاليم) أو (البيعة): يضع (برنامجا مفصلا)، يشتمل على كل ما ينبغي للأخ (العامل) أن يراعيه ويلتزم بتنفيذه.

فيفصل له ما يجب عليه نحو بدنه، وخلقه، وماله، ومجتمعه، ودعوته.

حتى بلغت هذه الواجبات التفصيلية ٣٨ (ثمانية وثلاثين) بندا، استغرقت كل جوانب الحياة.

---

(١) انظر: شرحنا لهذا الأصل في كتابنا: (كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف) وهو الجزء الخامس من سلسلة (نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام).

٣ـ من العاطفية والغوغائية
إلى العقلانية والعلمية

العاطفة جزء من الكيان الإنساني:

العاطفة، أو الوجدان، أو الشعور، أو الانفعال، ـ سمه ما تسميه ـ: هو جزء من كيان الإنسان النفسي، الذي يقسمه علماء النفس إلى الجانب الفكري، والجانب العاطفي أو الانفعالي، والجانب الإرادي أو النزوعي.

وكان العرب يعبرون قديما عن العاطفة: بـ(القلب). فهو الذي يحب ويكره، وهو الذي يرضى ويغضب، وهو الذي يرغب ويرهب، وهو الذي يفرح ويحزن، إلى آخر هذا النوع: من الوجدانات والمشاعر.

الإنسان إذن: ليس عقلا فقط، وليس إرادة فحسب، بل هو كذلك عاطفة وشعور. وإذن لا تذمّ العاطفة في الإنسان لذاتها، ولا يذم الجانب الانفعالي في الإنسان لذاته: مادام جزءا من كيانه الذي فطره الله عليه.

وإذا كان الفيلسوف الشهير (ديكارت)، قال: أنا أفكر، إذن أنا موجود! فمن حق غيره أن يقول: أنا أريد، إذن أنا موجود! وأن يقول آخر: أنا أحب وأكره، إذن أنا موجود.

صحيح: أن عقل الإنسان هو الرئيس، وهو المميز عن الحيوان، وهو مناط التكليف الإلهي للإنسان، فبه يخاطب، وبه يثاب ويعاقب، ولهذا: رفع قلم التكليف عن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يفيق.

ولكن تقرير هذه الحقيقة: لا ينفي أن العاطفة جزء من الإنسان، كل إنسان.

ليس مطلوبا من الإنسان إذن: أن يعلن الحرب على عواطفه، ويعيش (عقلانيا) صرفا، فهذا غير ممكن، كما أنه غير مطلوب.

وقد وصف الله المؤمنين من عباده في القرآن: بصفات عاطفية متنوعة. مثل: الوجل من ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا** .... ﴾ الأنفال: ٢.

ومثل: الفرح بفضل الله، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يونس: ٥٨.

ومثل: الرجاء في رحمة الله، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ الزمر: ٩.

ومثل: الرضا عن الله، كما قال تعالى في شأن المؤمنين: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ البينة: ٨.

وهذه الوجدانات الروحية، هي التي عُني بها علماء التصوف والسلوك في الإسلام، وسموها (الأحوال)، أو (المنازل)، أو غير ذلك، كما تحدث عنها شيخ الإسلام الهروي، في رسالة (منازل السائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين) وشرحها ابن القيم في كتابه الكبير: (مدارج السالكين). وهي التي كتب فيها الداعية الكبير الشيخ محمد الغزالي كتابه: (الجانب العاطفي من الإسلام).

ولكن ليست كل العواطف والمشاعر والانفعالات: من هذا النوع الراقي من العواطف والوجدانات الروحية. فإن العواطف الطبيعية والعادية: لها تأثيرها على الإنسان، كل إنسان.

وما جاء في القرآن والسنة: في شأن العواطف والوجدانات، أو الانفعالات النفسية: لا يسلم منها إنسان حتى الأنبياء أنفسهم، فهم يفرحون ويحزنون، ويضحكون ويبكون، ويرجون ويخافون، ويرضون ويغضبون.

وقد قال نبينا ﷺ: «إنما أنا بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر، فأيما مسلم سببته أو جلدته: فأجعلها له كفارة»[1].

وقد قص علينا القرآن قصة غضب موسى على قومه، حين رجع إليهم، فوجدهم قد عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ....﴾ الأعراف: ١٥٠.

لقد غضب لله حقا، ولكن الغضب جعله يلقي ألواح التوراة، وفيها كلام الله، ويأخذ برأس أخيه يجره إليه، وهو نبي مرسل معه.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة: البخاري (٦٣٦١) ومسلم (٢٦٠١).

ما ننكره: هو تغليب العاطفة على العقل:

وإذا كان هذا شأن العاطفة وضرورتها في حياة البشر، فما الذي ننكره منها؟

لا ريب أن الذي ننكره هنا، هو: أن تغلب العاطفة على عقل الإنسان، فتؤثر على صواب إدراكه، وتحرفه عن طريق السداد. إذ الواجب على الإنسان أن يحكم عقله في عواطفه وانفعالاته، لا العكس، فإن الذي يتبع عواطفه، ويسير وراءها حيثما وجهته، إنما يتبع هواه. واتباع الهوى يُعْمِي ويصم، ويضل عن الطريق المستقيم.

ولهذا قال الله لنبيه داود: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ص: ٢٦.

وقال الله تعالى لرسوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ القصص: ٥٠.

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ الجاثية: ٢٣.

والآية تشير إلى أن من اتخذ إلهه هواه: لا يستفيد من أدوات الإدراك التي وهب الله له: من السمع والبصر والفؤاد، فإنه قد عَطَّلها. ومن عَطَّلَ هذه الوسائل: فقد غدا أشبه بالأنعام أو أسوأ، كما قال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ الفرقان: ٤٣، ٤٤.

ومن هنا جاءت التوجيهات النبوية، تنهى الإنسان المسلم: أن يستسلم لعواطفه وانفعالاته مثل الغضب، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، وقال له: أوصني. قال: «لا تغضب». فردد مرارا، قال: «لا تغضب»[1].

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة (٦١١٦) وهو من أحاديث الأربعين النووية.

وذلك: أن الإنسان إذا غضب، قد يقع منه من الأقوال والأعمال ما لا يرضى عواقبه، حتى إنه قد يدعو بالشر علي نفسه، وعلى أهله وولده ومن يحب، كما قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ الإسراء: ١١.

وفي صحيح مسلم[١] «عن عمران بن حصين: أنهم كانوا مع النبي ﷺ، في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضَجِرت، فلعنتها، فسمع النبي ﷺ، فقال: خذوا متاعها، ودعوها».

وفيه أيضا، عن جابر قال: سرنا مع رسول الله، ﷺ في غزوة، ورجل من الأنصار على ناضح له (أي بعير)، فتلدَّن (تلكأ وتوقّف) عليه بعض التلدُّن، فقال له: شَأْ لعنك الله! فقال رسول الله ﷺ: «من هذا اللاعن بعيره؟» قال: أنا يا رسول الله! قال: «انزل عنه، فلا تصحبنا بملعون! لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم: لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء، فيستجيب لكم»[٢]، وكلمة (شَأْ) كلمة زجر للبعير.

وإنما يدعو الإنسان على نفسه أو على ولده، أو على ماله مثل البعير والناقة: بدافع انفعال الغضب والضجر، وقد يستجيب الله هذا الدعاء، فيصيبه شر كثير، لم يكن يريده.

وقال عطاء بن رباح: ما أبكى العلماء بكاء آخر العمر: من غضبة يغضبها أحدهم فتهدم عمل خمسين سنة، أو ستين سنة، أو سبعين سنة! ورب غضبة قد أقحمت صاحبها مقحما ما استقاله![٣].

وقال ﷺ: «لا يقضي القاضي بين اثنين، وهو غضبان»[٤].

وإنما نُهي القاضي عن القضاء بين اثنين في حالة الغضب، لأن الغضب يؤثر في سلامة حكمه، ويشوش عليه تفكيره. ويصيبه بشيء من الغشاوة، التي قد تحجب

---

(١) هو في صحيح مسلم برقم (٢٥٩٥).
(٢) هو في صحيح مسلم برقم (٣٠٠٩) في الزهد والرقائق من حديث جابر الطويل.
(٣) ذكره ابن رجب في (جامع العلوم والحكم) ج ١ ص٣٧٤، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.
(٤) رواه أحمد والبخاري وأبو داود وابن ماجه عن أبي بكرة، كما في صحيح الجامع الصغير (٧٧٥٥).

عنه الرؤية الصحيحة والكاملة للأشياء، وتدفعه لأن يقول ما لم يكن يحب أن يقوله، ويفعل ما لم يكن يريد أن يفعله، ويقرر ما لم يكن يريد أن يقرر. وهذا ما جعل عددا من الفقهاء المحققين يقولون: بعدم إيقاع طلاق الغضبان، مستدلين بالحديث الشريف: «لا طلاق ولا عتاق، في (إغلاق)»[1]. فسره بعضهم بالإكراه، وبعضهم بالغضب. وكتب ابن القيم رسالته القيمة (إغاثة اللهفان، في حكم طلاق الغضبان).

وجاء النهي عن قضاء القاضي وهو غضبان، حتى يذهب عنه الغضب، ويعود إلى حالته السوية: من الرضا والهدوء، وسكينة النفس. وقد قاس العلماء عليه كل أنواع الانفعال الأخرى: من شدة الحزن، أو شدة الفرح، أو شدة الخوف، أو شدة الجوع، ونحوها: مما يُخرج الإنسانَ عن سواء حالته، ويعرضه لخطر البعد عن السداد.

ومن المعروف: أن الإنسان في حالة الطفولة، وفي حالة المراهقة، يتصرف وفق العواطف والغرائز، أكثر مما يتصرف وفق مقتضى العقل والحكمة.

فالإنسان الراشد: هو الذي يحكِّم عقله في عاطفته، ويزن أقواله وأعماله بميزان العقل. وأنا أعني: العقل المؤمن، المهتدي بنور الوحي، ليكون له نورا على نور.

وكثير من الناس: إذا غضب: أخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي: أدخله رضاه في الباطل، وإذا اشتد فرحه أو حزنه: شرد عن الصواب. وينشدون للإمام الشافعي:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا!

ومن المأثور: «حبك الشيء يُعمي ويُصم».

ومن هنا: كان خطر (العاطفة) إذا غلبت العقل في حياة الفرد، وفي حياة الجماعة. والمطلوب إذن: أن يوازن المرء بين عاطفته وعقله، فلا يلغي عاطفته ومشاعره تماما، فهذا ليس بمطلوب، وليس بممكن، ولكن لا يدع عواطفه تحكم عقله، وتوجّه سيره، فهو يحب ولكن حبه لا يجعله يتحيّز لمن يحبه في الحق

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الطلاق عن عائشة (٢١٩٣) وابن ماجه في الطلاق أيضا (٢٠٤٦).

والباطل، وهو يبغض، ولكن بغضه لا يجعله ينحاز ضد من يبغضه، في كل حال. وهذا ما أمر به القرآن أهل الإيمان.

فقد أمرنا بالقيام بالقسط والعدل مع من نحب، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ النساء: ١٣٥.

كما أمرنا بالقسط والعدل مع من نبغضه أو يبغضنا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٨. والشنآن هو: شدة البغض، سواء كان منا أم منهم.

عاطفية الجماعات:

وإذا كانت غلبة العاطفية على العقلانية: مذمومة في الأفراد، فلا ريب أنها كذلك مذمومة في الجماعات والحركات.

وقد غلب على كثير من فصائل الصحوة الإسلامية، في بعض الأوقات: الجانب العاطفي، والخطاب العاطفي، وتقلص الخطاب العقلاني والعلمي الذي يقوم على الدراسة المتأنية، وعلى الموازنة الموضوعية، ويستند إلى الأرقام والإحصاء.

ولذا تروج في هذه الحال: بضاعة الخطباء المهيجين، والكُتّاب المثيرين، والصحفيين المبالغين.

وهذا النوع من الخطاب: يدغدغ عواطف الجماهير، ويسلب عقولهم من رءوسهم، ويبقيهم أجساما بلا أحلام، يسوقهم من يريد سوقهم إلى ما يريد، دون أن يناقشه أحد قبل القرار، أو يحاسبه بعد القرار، وكأنه لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون!

مظاهر العاطفية في الصحوة:

ولا شك: أن الصحوة الإسلامية في بدايتها ـ وخصوصا لدى عدد من فصائلها: اتسمت بكثير من مظاهر العاطفية في توجيهاتها وأحكامها وتصرفاتها، منها:

تمجيد الذات:

١ـ المبالغة في تزكية النفس، وتمجيد الذات وتضخيمها، بحيث يغطي ذلك على عيوبها، ويبرز حسناتها، ويخفي سيئاتها، وبهذا لا تُقَوِّم نفسها تقويما عادلا، لا طغيان فيه ولا إخسار، وقد أمرنا أن نكون قوامين بالقسط شهداء لله، ولو على أنفسنا أو الوالدين والأقربين. كما نهينا أن نزكّي أنفسنا. قال تعالى: ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ النجم: ٣٢.

وقد ذم القرآن اليهود الذين يزكون أنفسهم، ويزعمون أنهم ـ وحدهم ـ (شعب الله المختار)، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ النساء: ٤٩.

وقال تعالى آمرا المؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ النساء: ١٣٥.

إن تزكية النفس، وتضخيم الذات، كثيرا ما تؤدي إلى عمى الإنسان عن رؤية عيوب نفسه، ومعرفة جوانب القصور والتقصير فيها، ابتغاء إصلاحها، والاشتغال بعيوب الآخرين. وهذه آفة خطيرة، ينبغي على فصائل الصحوة تلافيها.

ومما يذكر هنا: أن يهود بني قينقاع، بعد أن انتصر الرسول الكريم وأصحابه في غزوة بدر الكبرى، قال له هؤلاء اليهود في عجب وغرور: لا يغرنك أنك لقيت قوما لا خبرة لهم بالحرب، فانتصرت عليهم، فلو لقيتنا لعلمت أننا الناس!

وكان هذا التبجح والإعجاب بالنفس: سبب جلائهم عن المدينة، بعد أن نقضوا العهد الذي أبرمه الرسول ﷺ، معهم.

ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ آل عمران: ١٢، ١٣.

الإسراف في الحب والبغض:

٢ـ الإسراف في الحب والبغض، وقد ورد: «أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما»، وفي الأمثال: لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا. وقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الممتحنة: ٧.

الاستغراق في الأحلام:

٣ـ الاستغراق في الخيال، ومد حبال الأماني والأحلام، دون أن يكون لها رصيد من واقع الأشياء، وقد ذم الله اليهود والنصارى حين تعلقوا بدخول الجنة دون عمل يؤهلهم لها، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ البقرة: ١١١. وقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ النساء: ١٢٣.

وفي الحديث: «العاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله»[١].

وقال علي رضي الله عنه، لابنه الحسن: «وإياك والاتكال على المنى، فإنها بضائع النَّوكى» أي الحمقى.

وقال الشاعر:

ولا تكن عبد المنى فالمنى ... رءوس أموال المفاليس!

الاستعجال في قطف الثمرة:

٤ـ الاستعجال في قطف الثمرة قبل أوانها، وهذا ما أوقع كثيرا من الشباب المخلصين في أعمال ليس لها جدوى: إلا الانتحار الجماعي، وتقديم ضحايا في غير عدو، وفي غير ميدان جهاد حقيقي.

---

(١) رواه الترمذي عن شداد بن أوس في صفة القيامة (٢٤٦١) وقال: حديث حسن، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠).

وكثير من الشباب: يريد أن يزرع اليوم، ويحصد بعد شهر أو أسبوع. بل ربما زرع اليوم، وأراد أن يحصد غدا، على خلاف سنة الله في الزرع والحصاد، ومن صادم سنة الله تعالى: صدمته وقهرته، لأنها غَلابة قَهَّارة، ولا تخضع لعواطف الناس ولا لأمانيهم.

الاعتماد على حسن النية، دون تحري الصواب:

٥- ومن دلائل العاطفية، وغياب العلمية والعقلانية: الاعتماد في الأمور على مجرد (حسن النية) وتوافر الإخلاص، دون بذل الجهد في تحري الصواب والأصوب.

وهذه آفة كثير من الناس (الطيبين)، كما نسميهم. فهم يكتفون بأن لديهم نوايا حسنة، ورغبة في الخير، ومحبة للحق، ولكنهم يرتكبون من الأخطاء، ويقعون في خطايا قد تضيع دينهم ودنياهم معا.

فهم لا يتصورون الأمور على حقيقتها، ولا يتعرفون على الأشياء، كما ينبغي أن تعرف، ولا يميزون بين طيب وخبيث، ومن أخطأ تصور الأمر الذي يريده، أو أخطأ الطريق إليه، فلا يمكنه أن يصل إليه، فقد يشرِّق، ومراده في الغرب. أو يغرِّب، ومقصوده في الشرق.

ومعظم البدع التي لحقت بالدين، ولوثت نقاءه، وكدّرت صفاءه، كان سببها: الرغبة الصالحة في عبادة الله، والإخلاص له، دون الاجتهاد في (تصويب العمل) والاطمئنان إلى صحته، ومضائه على النهج القويم الذي يعبر عنه بـ (السنة).

وهذا ما نبه عليه سلف الأمة الواعون، كما روي عن الفضيل بن عياض أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ الملك: ٢، يا أبا علي: ما أحسن العمل؟ قال: أحسن العمل أخلصه وأصوبه. إن العمل إذا كان صوابا ولم يكن خالصا: لم يقبل، وإذا كان خالصا ولم يكن صوابا: لم يقبل، ولا يقبل إلا إذا كان خالصا وصوابا، وخلوصه: أن يكون لله. وصوابه: أن يكون على السنة.

فما لم يكن على السنة: أعني المنهج الشرعي. لم يقبل، وإن كان خالصا لله.

ولهذا كان من الأدعية المأثورة: اللهم! أرنا الحق حقا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا، وارزقنا اجتنابه.

ومعنى هذا: أن رؤية الحق حقا، ورؤية الباطل باطلا، أي تصور الأمور وإدراكها على ما هي عليه: أمر مطلوب، بل ضروري.

من أجل هذا حذّر القرآن من غبش الرؤية، وضلال المرء عن الحقيقة، فتزين له الأشياء، فيراها عكس ما هي عليه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ فاطر: ٨.

وكان من عمل الشيطان في إضلال البشر: (التزيين)، و(الإغواء)، كما قال تعالى على لسانه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ الحجر: ٣٩، ٤٠.

والتزيين يعني: تزويق الأشياء لهم، بحيث يرونها على غير حقيقتها، فيريهم الباطل في صورة الحق، والشرّ في صورة الخير، ويريهم السراب يظنونه ماء، حتى إذا جاءوه لم يجدوه شيئا، ويريهم السيئات، تخيل إليهم حسنات.

ولا غرو أن زيَّن الشيطان لكثير من الناس أعمالهم، فصدهم عن السبيل، وعن الصراط المستقيم.

كما قال تعالى -على لسان الهدهد، في ملكة سبأ وقومها-: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ النمل: ٢٤.

ولِمَ ضل كثير من الناس عن الحق؟ لأنهم لم يبحثوا عنه كما يجب، ولم يُعملوا عقولَهم في التمييز بين التوحيد والشرك، وبين النور والظلمات، فوقعوا في الضلال المبين. استمع إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الكهف: ١٠٣، ١٠٤.

وهذا هو الخطر الأكبر، على الإنسان العاقل المكلف: أن يعيش تابعا لغيره، ويمشي وراء الآخرين، فاقدا عقله الذي ميزه الله به، لا يفكر ولا يوازن، ولا يختبر ما عنده وما عند الآخرين، يأخذ القضايا الكبيرة (مُسَلَّمات): دون أن يمتحنها ويعرف صدقها وصوابها. كما قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأعراف: ٣٠.

خطوات في طريق البحث عن الصواب والأصوب:

إن المطلوب من المسلم - مع حسن النية وإخلاص القصد -: هو تحري الصواب، بل البحث عن الأصوب، ما استطاع.

والبحث عن الصواب والأصوب، يلزمه جملة أشياء:

١- ألا يأخذ كل ما يلقنه قضية مُسلَّمة، بل يمتحن ما عنده حتى يطمئن إلى صحته تماما، مترقيا من مرتبة إلى مترتبة حتى يصل إلى (حق اليقين)، وقد ذكر القرآن لنا نموذجا يتمثل في أبينا إبراهيم عليه السلام: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** ﴾ البقرة: ٢٦٠.

وقال رسول الله، ﷺ: «نحن أحق بالشكّ من إبراهيم» رواه البخاري.

والمراد بالشكّ هنا: طلب اليقين الحق بالمشاهدة.

٢- أن يوازن بين ما عنده مما يعتقده صوابا، وما عند غيره، فلعله يستفيد من ذلك: تصويب بعض ما عنده، أو الوصول إلى أصوب وأمثل، أو ينتهي بتثبيت ما عنده، فبضدها تتميز الأشياء، والضد يظهر حسنه الضد، كما قال الشعراء قديما.

٣- أن يسأل غيره فيما يجهله كلية، أو يعرف بعضه ويجهل بعضا آخر، فليس هنا من يعلم كل شيء إلا الله، والله تعالى يقول: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ الإسراء: ٨٥. ويخاطب خاتم رسله وصفوة خلقه، فيقول: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ طه: ١١٤. والناس يتعلم بعضهم من بعض، ﴿ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾ يوسف: ٧٦. وقديما تعلم ابن آدم الأول من غراب. وتعلم نبي الله سليمان من الهدهد: حين أحاط بما لم يحط به، وجاءه من سبأ بنبأ يقين.

وفي حديث: أن النبي ﷺ، قال عن قوم أخطئوا الفتوى: «هلا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العي السؤال» [١].

ولكن من المهم هنا: ألا يسأل جاهلا بالمسألة مثله أو أجهل منه، إنما عليه أن يسأل خبيرا بها، عارفا متقنا لها، كما قال تعالى: ﴿ **فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا** ﴾ الفرقان: ٥٩. وقال: ﴿ **وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ فاطر: ١٤.

---

(١) رواه أبو داود عن جابر، صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٢).

وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ النساء: ٨٣. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ النساء: ٥٩. قال غير واحد من السلف: أولو الأمر: العلماء. وقال بعضهم: الأمراء حكام على الناس، والعلماء حكام على الأمراء.

٤ـ ألا يقحم نفسه فيما لا يحسنه، فيفسد أكثر مما يصلح، ويهدم أكثر مما يبني، كالطبيب الذي يعالج المرضى وهو غير متخصص، وهذا يضمن ما أتلفه من النفوس والأعضاء، ولا يغتفر له خطؤه، كما يغتفر لأهل الاختصاص إذا لم يقصروا تقصيرا بينا. وفي الحديث: «من تطبب ولم يعلم عنه طب: فهو ضامن»[(١)].

وكذلك الذي يدخل نفسه في ميدان الفتوى، فيفتي بغير علم فيضل ويضل، كما في الحديث المتفق عليه: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالما: اتخذ الناس رءوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[(٢)].

وفي حديث الرجل الذي أصابته جراحه، فأفتاه جماعة ـ وقد أصابته جنابة ـ أن يغتسل برغم جراحته، فاغتسل فمات، من تفاقم جرحه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «قتلوه قتلهم الله! هلا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما دواء العي السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم»[(٣)].

فمن الفتاوى ـ الصادرة عن الجهل ـ ما يقتل، ولا عجب أن دعا عليهم النبي الكريم «قتلوه قتلهم الله!».

---

(١) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو في كتاب الديات (٤٥٨٦) والنسائي في القسامة (٤٨٣٤) وابن ماجه في الطب (٣٤٦٦) وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦١٥٣).

(٢) متفق عليه عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه أبو داود عن جابر في الطهارة (٣٣٦) وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٢).

العجلة والارتجال:

ومما يجانب العقلانية والعلمية: الارتجال، والاستعجال في رسم السياسات المهمة، واتخاذ القرارات الخطيرة: دون أن تأخذ حقها من الدراسة والمناقشة والإنضاج. بل تسلق الأمور سلقا، وتلهب الظهور بالسوط والعصا لما يريد السلطان تنفيذه، بدعوى أن (خير البر عاجله) وأن البطء والتواني يقتل الحركة، ويضيع البركة.

وغفل هؤلاء: أن بديل العجلة والارتجال ليس هو التواني أو التباطؤ والتمادي، بل بديل ذلك: هو التأني والتريث، حتى تستبين المعالم، وتتضح المحجة ويزول الالتباس.

وفي الحكمة المأثورة: في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة. ومن تأنى نال ما تمنى.

وفي الحديث الشريف: «الأناة من الله، والعجلة من الشيطان»[١].

وقال الرسول الكريم لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين، يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة»[٢].

والواجب على كل من يريد أن يرسم سياسة أو يصدر قرارا، في أمر من الأمور العامة: ألا يتعجل في ذلك، دون أن يُعد العدّة له، بتقديم الدراسة الواعية، لقضية يريد أن يقدم عليها ويتخذ فيها موقفا، بالإيجاب أو السلب، على معنى أنه ينبغي عليه أن يتأنى ويتريث في اتخاذ المواقف، وإصدار القرارات، في الموضوعات والقضايا ذات الأهمية، وليحذر الرأي الفطير، أو الرغبة الجامحة، أو الاستجابة لتحريض من حوله: من ذوي المصالح والأهواء، أو العاطفيين المستعجلين من الناس.

وفي عصرنا ـ عصر المعلومات ـ: يستطيع الباحث في أمر ما، أن يجد له من المراجع المتصلة به، ومن المصادر التي تتحدث عنه الكثير الكثير، وخصوصا على شبكة المعلومات الشهيرة (الإنترنت). وسيجد من الإحصاءات والأرقام والرسوم البيانية والمقارنات، ما لم يخطر له على بال.

---

(١) رواه الترمذي عن سهل بن سعد الساعدي وقال: حسن غريب.

(٢) رواه مسلم والترمذي عن ابن عباس. صحيح الجامع الصغير (٢١٣٦).

فلا يجوز لنا في القرن الخامس عشر ـ أو القرن الحادي والعشرين ـ: أن ندع هذا الكم الهائل، من المعلومات الحية والجديدة (الطازجة)، ونكتفي بمعلومات قديمة جزئية قاصرة، غير موثقة ولا مقنعة.

ويجب على من يريد تبني موقف، أو اتخاذ قرار مهم: أن يستشير أهل الشورى، فمن الأمور ما يحتاج منه: إلى أن يشاور المختصين الفنيين في الموضوع، الخبراء فيه، الذين يعرفون مورده ومصدره، وأوله وآخره، فعليه أن يشاورهم، وينصت إليهم.

ومن الأمور: ما يحتاج إلى مشاورة (أهل الحل والعقد) في الأمر، كالأمور المتعلقة بالسياسة والسلم والحرب، والعلاقات الدولية، والقرارات الاقتصادية الخطيرة: كفرض الضرائب، ونحوها، مما يتعلق بـ (الأمر العام) الذي جاءت النصوص الشرعية تطلب المشاورة فيه، كما في قوله تعالى، في سورة الشورى، في وصف المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ الشورى: ٣٨.

وفي سورة آل عمران: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ آل عمران: ١٥٩. فـ (الأمر) في الآيتين: هو الأمر العام، الذي يهم المجتمع المسلم كله. فيجب على وليّ الأمر المسلم ـ وكل ذي سلطان في سلطانه ـ: أن يشاور أهل الحل والعقد، وهم أهل شوراه في الموضوع، وعلى كل منهم: أن يشير برأيه بشجاعة وصراحة، دون لفٍّ ولا دوران، لا يخاف في الله لومة لائم، وعليه أن يناقشهم، فإن أجمعوا: نزل على إجماعهم، وإن اختلفوا: أخذ برأي الأكثرية، فرأي الاثنين: أقرب إلى الصواب من رأي الواحد، وقد جاء في الحديث «إن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد».

التوكل دون أن يعقل الناقة:

جاء في الحديث: أن أعرابيا أتى النبي، ﷺ، ومعه ناقته، وأراد أن يدخل عند النبي، ﷺ في المسجد، فسأله: أأعقل ناقتي (أقيدها)، يا رسول الله؟ أم أدعها وأتوكّل على الله؟

فقال له ﷺ: «اعقلها وتوكل».

وصارت مثلا بين المسلمين: من يومها وإلى الآن، وما بعد الآن، (اعقلها وتوكل)، أو (قيدها وتوكل).

ومعنى الحديث: أن التوكل لا ينافي اتخاذ الأسباب المشروعة، التي ربط الله تعالى بها مسبباتها.

فمن أراد أن يحصد: فلا بد أن يزرع، ومن أراد أن يجني: فلا بد أن يغرس. ومن أراد أن يشفى: فلا بد من أن يتناول الدواء، ومن أراد أن يأكل من زرق الله: فلا بد أن يمشي في مناكب الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ**﴾ الملك: ١٥.

ولما رأى سيدنا عمر: جماعة في المسجد بعد صلاة الجمعة، قد بقوا جالسين، والناس قد انتشروا في الأرض، سألهم: من أنتم؟ قالوا: متوكلون! قال: بل أنتم متأكلون. لا يقعدنّ أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم! ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. إنما يرزق الله الناس بعضهم من بعض. أما قرأتم قول الله تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ**﴾ الجمعة: ١٠. وأخرجهم من المسجد.

إننا نجني على الدين، ونجني على الحياة، ونجني على أنفسنا: إذا أهملنا الأسباب، بدعوى أننا متوكلون على الله تعالى. فقد كان أفضل الخلق وسيد الرسل: محمد عليه الصلاة والسلام: أعظم المتوكلين على ربه، ولكنه لم يُغفل الأسباب في حياته، وسيرته الشخصية والعامة.

إغفال السنن في الكون والمجتمع:

ومن دلائل العاطفية والغوغائية في التفكير والسلوك: تجاهل سنن الله في الكون والمجتمع، وإسقاطها من الاعتبار، وإجراء الأمور على أعنتها، كأن هذا الكون يمضي اعتباطا، أو تسيره المصادفات وحدها، فهو يتخبط يمينا حينا، وشمالا أخرى، فليس يجري على قاعدة ولا نظام، ولا قانون.

وأقول: للأسف هذا ما يدور في أذهان كثير من العوام، وأشباه العوام من المتعلمين، فهم يفهمون (القدر) فهما أعوج أعرج، كأنما يعني الفوضى في الكون والحياة والمجتمع. يقول أحدهم:

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبيتنّ إلا خالي البالي

يوما تريش خسيس الحال ترفعه إلى السماك، ويوما تخفض العالي!

وكأن الشاعر: يحسب أن المقادير ترفع الخسيس إلى السماء، وتُنزل العالي إلى الحضيض: على غير سنن معلومة، وقوانين مرسومة. وهذا ليس بصحيح، فإن هذا كله: يجري على سنن مرعية، من عرفها ووعاها ورعاها: رعته، ومن لم يعرفها ولم يرعها: صدمته، ولم تبال به، أيا كان مكانه ومكانته.

إن المسلمين أخطئوا: في غزوة أحد ـ ومعهم رسول الله الأعظم ـ، فدفعوا ثمن غلطتهم، وانكسروا بعد انتصار، وسقط منهم شهداء سبعون من أمثال حمزة ومصعب، وسجل ذلك عليهم القرآن حين قال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ آل عمران: ١٦٥. وقال في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ آل عمران: ١٥٢.

إن لله تعالى سننا في (النصر)، لا بد أن تراعى، وسننا في (التغيير) لا بد أن تراعى. ولا ينبغي لنا: أن نطمع في النصر ونحن نتجاهل سنن النصر، التي عرفها الناس بعقولهم ونظرهم، وعرفها لنا الشرع بآياته ونصوصه. وعرفها الناس بتجاربهم وممارساتهم: طوال التاريخ.

من سنن النصر: أن تُعد لعدوك ما تستطيع من قوة، سواء كانت هذه القوة مادية، أم معنوية، عسكرية أم اقتصادية، وهو ما أمر به الله تعالى في كتابه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الأنفال: ٦٠.

ومن هذه العدة المعنوية: تجميع قوى الأمة، لدخول المعركة صفا واحدا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ الصف: ٤. والتحذير من التنازع والتفرق، ولا سيما عند لقاء الأعداء، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الأنفال: ٤٦.

ومن سنن النصر: أنه لا يتم إلا بالمؤمنين، ولا يكون إلا بالمؤمنين، فالنصر لهم، والنصر بهم، كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم: ٤٧. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غافر: ٥١.

وقال أيضا: يخاطب رسوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الأنفال: ٦٢، ٦٣. فهو سبحانه كما أيده بنصره، أيده بالمؤمنين المؤتلفة قلوبهم.

صحيح: أنه أنزل عليهم ملائكته في أكثر من غزوة، ولكن الملائكة لا تتنزل في فراغ، إنما تتنزل على المؤمنين، ليكثر سوادهم، وتشد أزرهم، ويكون ذلك بشرى لهم، وليطمئن به قلوبهم، كما قال تعالى في غزوة بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الأنفال: ١٢.

وهكذا رأينا أمر الله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: لا بد أن يوجد ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وأن يثبتوا وجودهم، حتى ينزل عليهم، وتنزل عليهم الملائكة بشرى وتثبيتا.

اعتماد المبالغة:

ومما ينافي الاتجاه العقلاني والعلمي، ويدخل في العاطفية والغوغائية: اعتماد أسلوب (المبالغة) في تصوير الأشياء، وعرضها، مادية أو معنوية، مشاكل كانت أو حلولا.

فهي تصور (مكبرة) بأضعاف حجمها: إن أريد لها (التهويل)، أو (مصغرة) دون حجمها بكثير: إن أريد (التهوين). وبين التهويل والتهوين: تضيع الحقيقة.

خذ مثلا: الحديث عن (الكيان الصهيوني)، فهناك من يهون من أمره، ويعتبره شيئا تافها، وأنّا قادرون على أن نلقي الصهاينة في البحر، كما كان يقال في الستينيات.

وفي مقابل هؤلاء: من يهول من أمر الصهاينة، ويعتبرهم كأنهم حكام العالم، وأنهم يحركون قوى العالم من وراء ستار، كما نرى بعض الكتب التي تتحدث فإن (الدنيا لعبة إسرائيل)، وأن العالم (أحجار على رقعة الشطرنج). وعن (الحكومة الخفية) التي تحكم العالم، وأن دولة الكيان الصهيوني، هي (القوة التي لا تقهر) إلى آخر تلك المقولات، التي تزرع الرعب في القلوب، وتضخم أمر العدو في النفوس، ناسين ما ذكره الله تعالى في كتابه، من أوصافهم: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ** ﴾ البقرة: ٩٦.

التهريج و(الديماغوجية):

ومما يدخل في ذلك أيضا: أسلوب (التهريج) والصراخ، ومحاولة كسب الآخرين، أو التغطية عليهم بإعلاء الصوت، وإظهار الضجيج، على نحو ما قال المشركون قديما، فيما حكاه عنهم القرآن: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ فصلت: ٢٦.

فهم يريدون أن يغلبوا بهذا الأسلوب الرخيص: اللغو، والتشويش بالباطل على الحق، حتى لا يحسن الناس أن ينصتوا إليه ويتفهموه.

وهناك أساليب كثيرة، يتخذها هذا النوع من الناس، الذين يسمونهم (الديماغوجيين) منها: (السفسطة) وهي تزيين الأباطيل، لتقبل عند العوام الذين لا يزنون الأمور بميزان المنطق، ولا يدققون في فهمها، بحيث توصل مقدماتها إلى نتائجها، دون خلل أو اضطراب.

خذ مثلا ما ينسب إلى أبي نواس:

دع المساجد للعبّاد تعمرها	وطف بنا نحو خمار ليسقينا
ما قال ربك: ويل للألي سكروا	بل قال ربك: ويل للمصلين!

قعد يروج هذا الكلام لأول وهلة: عند الأغبياء من الناس، ولكنهم إذا تأملوه، وجدوه زائفا، وعاريا عن الحقيقة. فإن الله لم يقل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ ثم سكت، بل قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ الماعون: ٤، ٥.

وقوله: (ما قال ربك ويل للألي سكروا) ليس صوابا، بل قال ما هو أشد من ذلك، حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة: ٩٠.

ومن الكتاب والصحفيين والإعلاميين، بل ومن المؤلفين: من يستخدم هذا الأسلوب النوّاسي في التسويق لما يعتنقه من أفكار، وما يدعو إليه من فلسفات.

السطحية في فهم القضايا ومعالجتها:

ومن دلائل العاطفية ومنافاة العقلانية: السطحية في معالجة الأمور الكبيرة، والقضايا الخطيرة، وتبسيط الأشياء المعقدة، على طريقة ما يسميه العامة بـ (الفهلوة).

من مظاهر هذه السطحية: في فهم القضايا الكبيرة ومعالجتها، ما يأتي:

أ- التسليم بما يشيع بين الناس، وما يشتهر على الألسنة والأقلام، إذا كان فيه مدح لنا، أو قدح لعدونا، وإن لم يكن له أساس علمي، مثل التصديق لما سمي (بروتوكولات حكماء صهيون)، وإن لم يقم عليها دليل عند الراسخين في العلم، والمختصين في هذا المجال.

على أن هذا يقيم الحجة علينا أكثر: أن أعداءنا خططوا ورتبوا، واجتمعوا ودبروا، ثم صمموا ونفذوا، ونحن نكتفي بالتشنيع عليهم، ولم نجتهد أن نجتمع كما اجتمعوا، ونخطط كما خططوا، وندبر كما دبروا. بل ما زلنا نبدئ ونعيد، ونكرر: أننا ضحايا لمخطط جهنمي يكيد لنا، ويمكر بنا. فإلى متى نظل ضحايا تخطيط غيرنا، ولا نخطط نحن لأنفسنا؟!

ب- تقبل التفسير التآمري للتاريخ، وللأحداث والوقائع الحديثة والمعاصرة، فكل ما يقع في الكون عامة، وفي كوننا نحن خاصة: إنما هو من تدبير الصهيونية العالمية، والصليبية الغربية، والإمبريالية الأمريكية، وما نحن إلا (أحجار على رقعة الشطرنج)، وما الدنيا كلها إلا (لعبة إسرائيل)!

وهذا يوقعنا في لون من (الجبرية السياسية)، التي تسلبنا كل حول وقوة، وتنفي عنا الإرادة والاختيار، فهي أشبه بـ (الجبرية الدينية)، التي تجعل الإنسان كريشة في مهب رياح الأقدار، تعبث بها كيف تشاء.

ثم إن هذا ـ كما أشرت في بعض كتبي[1] ـ: يعوقنا عن محاسبة أنفسنا، أو النقد الذاتي لها، والمحاولة المخلصة لاكتشاف عيوبنا، ومعرفة حقيقة أمراضنا، ودراسة أخطائنا وخطايانا: الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، والاجتهاد في تقصي الأسباب، لتشخيص الداء، ووصف الدواء. فلن يكون هذا ممكنا ما دام كل قصور أو تقصير، أو فساد، أو خراب أو خلل، سببه تخطيط أجنبي ماكر، وليس من عند أنفسنا. مع أن المنهج القرآني يعلمنا: أن نرجع ـ قبل كل شيء ـ باللوم على أنفسنا، والبحث عن السبب في داخلنا، كلما ألمت بنا هزيمة، أو أصابتنا مصيبة، كما قال تعالى بعد غزوة أحد: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ آل عمران: ١٦٥.

ج ـ البكاء على الأطلال، والتغني بالأمجاد، والتفاخر بما حققه الأسلاف الكرام: من حضارة شماء، ومن إنجازات في مجال العلم ومجال السلوك، على أن هذا لا يجدينا نفعا في حاضرنا، إذا لم نصله بماضينا. وماذا يفيد الرماد البارد أن يقول: كنت في الزمن الماضي جمرا ملتهبا! وماذا ينفع العظام النخرة أن تقول: كنت قديما جسدا نابضا بالحياة والحركة!

إن الذي يثبت وجودنا حقا: هو عملنا نحن اليوم، لا أعمال أجدادنا بالأمس. وإن الناس سيردون علينا ـ إذا تباهينا بهم ـ بقول الشاعر:

لئن فخرت بآباء ذوي حسب ... لقد صدقت، ولكن بئسما ولدوا!

د ـ مواجهة عصر الثورة الإلكترونية، والثورة الفضائية، والثورة الجينية، والثورة الاتصالية، والثورة المعلوماتية: بعقلية عصور ما قبل الثورة الصناعية الأولى. كأنما نريد أن نواجه عصر سفن الفضاء، بعصر الجَمَل سفينة الصحراء!

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية. فصل (فكر علمي).

وما زال بعض المتدينين منا: يحسبون أننا بـ (العلم الديني) وحده، نستطيع أن نرقى بالأمة، وأن بحسبنا أن نأخذ العلم (العلم الدنيوي): أي العلوم الطبيعية والرياضية، وتطبيقاتها التكنولوجية من الغرب، الذي سخره الله لنا، كما زعم بعض الدعاة القاصرين، الذي خطب يوما فقال: الحمد لله الذي سخر لنا الإفرنج الكفرة: ليصنعوا لنا ما نريد من آلات وأدوات ومنتجات، وسخرنا نحن لطاعته ومعرفة دينه!!

وما يدري هذا المسكين: أن هذا الذي يعتبره نعمة وفضلا، إنما هو جريمة في حق الدين، وفي حق الأمة التي يفرض عليها دينها فرضا كفائيا: أن يكون فيها من الخبراء والعلماء بعلوم الدنيا والطبيعة: ما يكفي الأمة كفاية ذاتية، ويسد ثغراتها، ويغطي حاجاتها، وإلا أثمت الأمة كلها. كما قرره المحققون من فقهائها.

ومن عجيب ما قرأته: أن بعض مشايخ الدين، ذهب إلى أن كل ما ورد في القرآن والسنة من الثناء على العلم، والتنويه بفضله وأهله: إنما يقصد به علم الدين وحده، ولا يدخل فيه علم الدنيا، أي العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية ونحوها.

وهو قول ترد عليه آيات كثيرة في القرآن الكريم، كما بينا ذلك في كتابنا (العقل والعلم في القرآن الكريم) [1].

هـ ـ الاستكثار من: المرجِّيات والمبشرات ومنعشات الآمال، مع تعمد إغفال العوائق والعقبات الكبرى، والمثبطات عن السير، وقاطعات الطريق، من الأعداء الحقيقيين، ومن المخذلين وضيقي الأفق من أبناء قومنا.

صحيح أن العمل الإسلامي في حاجة إلى بواعث الأمل، وطوارد اليأس، حتى يمضي في طريقه، وإلا قتلته المؤيسات والمثبطات وما أكثرها..

وهذا ما جعلني: أخطب وأكتب في (المبشرات: بانتصار الإسلام)، معتمدا على مبشرات القرآن، ومبشرات الحديث، ومبشرات التاريخ، ومبشرات الواقع، ومبشرات السنن. وإنما فعلت ذلك: لأواجه دعاة اليأس، ومروجي القنوط، حتى باسم الدين نفسه، عن طريق: إشاعة (أحاديث الفتن)، التي ستقوم وتظهر في آخر الزمان.

---

(١) انظر: فصل: شمول العلم وتنوعه في لسان القرآن ص١٤٩ ـ ١٦٦ نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

ولكني لم أغفل العوائق والعقبات: من خارج الحركة الإسلامية، ومن داخلها. وقد سجلت ذلك من قديم، في كتابي: (الحل الإسلامي فريضة وضرورة) وفي كتابي: (أين الخلل؟) وغيرهما.

ومن المهم هنا: التركيز على العوائق الذاتية والداخلية، بدل التركيز على العوائق والعقبات الموضوعة في طريقنا بالمؤامرات الخارجية.

إلى العلمية والتخطيط:

إننا نريد للصحوة الإسلامية ـ وقد أدركت سن الرشد ـ: أن تنتقل فكريا وسلوكيا: من مرحلة (العاطفية) وما يصحبها من ارتجال واعتباطية وغوغائية، إلى مرحلة (العقلية) أو (العلمية)، وما يلزمها من تخطيط وإعداد للمستقبل.

معنى (العلمية) المنشودة:

فماذا نريد بـ (العلمية) في هذا المقام؟

لسنا نريد بـ (العلمية): تحصيل (العلوم) الطبيعية والرياضية، التي تعمقت وتعاظم شأنها في هذا العصر، وبلغت شأوا بعيدا: استطاع به الإنسان أن يصعد إلى القمر، وأن يحاول غزو الكواكب التي هي أبعد منه بكثير، وأن يربط العالم بشبكة من آليات الاتصال، من الطائرات المتطورة، إلى الفاكس والهاتف المحمول، وشبكة الإنترنت، إلى غيرها، مما سمي (ثورة الاتصالات)، حتى أصبح العالم اليوم قرية صغيرة..

واستطاع هذا العلم أخيرا: أن يكتشف (الجينوم البشري)، أو (الخريطة الجينية) للإنسان، وهو اكتشاف خطير قد يترتب عليه آثار، لا يعلم عواقبها إلا الله.

وقبل ذلك: اكتشف هذا العلم الذرة وحطمها، واستخدمها في الحرب وفي السلم، كما صنع هذا الجهاز العجيب الذي تطور تطورا هائلا، حتى قلب حياة الناس رأسًا على عقب، ألا وهو (الكمبيوتر).

لسنا نريد بـ (العلمية): تحصيل هذا العلم، وإن كان تحصيله وهضمه والتفوق فيه: من فروض الكفاية على الأمة، التي لا تزال عالة على غيرها في معظم مجالاته.

وكل ما أريد أن أثبته هنا: هو أن العلم الذي نوّه به الإسلام، وأثنى على أهله القرآن: ليس مقصورا على علم الدين، كما زعم زاعمون، أو توهم متوهمون.

فليس علم آدم، الذي علمه ربه الأسماء كلها، ولا علم يوسف تأويل الأحاديث، ولا علم داود وسليمان، ولا علم صاحب سليمان الذي أحضر له عرش بلقيس من اليمن إلى الشام في لمح البصر، ولا علم طالوت الذي زاده الله بسطة في العلم والجسم، ليس هذا كله: من (علم الدين) الخاص بالعقيدة أو بالشريعة.

وإنما المراد بـ(العلم): كل ما تنكشف به حقائق الأشياء، سواء كان موضوعه: الكون، أم الإنسان، أم الغيب، وسواء كانت وسيلة معرفته: العقل، أم الحس، أم الوحي.

على كل حال، أود أن أؤكد أن (العلمية) التي أقصدها هنا: أن تتحرر الصحوة الإسلامية: من النزعة العاطفية، والذاتية، والتبريرية، والتمجيدية، والخيالية، لتتجه إلى (النزعة العقلانية الموضوعية الحيادية الواقعية): في تقدير الأمور، وفي تقويم الأعمال، وفي تفسير الأحداث، وفي تفسير التاريخ، وفي النظر إلى الأنصار والخصوم، وفي تحديد المواقف واتخاذ القرار.

١ ـ سيادة الروح العلمية:

أؤكد هنا ما ذكرته في كتابي: (أولويات الحركة الإسلامية) في فصل (فكر علمي) وهو: أن يسود (التفكير العلمي) و (الروح العلمية).

نريد أن يسود: (التفكير العلمي)، وتسود (الروح العلمية): كل علاقتنا ومواقفنا وشئون حياتنا، بحيث ننظر إلى الأشياء والأشخاص والأعمال، والقضايا والمواقف: (نظرة علمية)، ونصدر قراراتنا الإستراتيجية والتكتيكية، في الاقتصاد والسياسة والتعليم، وغيرها: بعقلية علمية، وبروح علمية، بعيدا عن الارتجالية والذاتية، والانفعالية، والعاطفية، والغوغائية، والتحكمية، والتبريرية: التي تسود مناخنا اليوم، وتصبغ تصرفاتنا إلى حد بعيد، فمن سلم من أصحاب القرار من اتباع هواه الشخصي، أو هوى فئته وحزبه: كان أكبر همه اتباع ما يرضي أهواء الجماهير، لا ما يحقق مصالحها، ويؤمن مستقبلها، في وطنها الصغير، ووطنها الكبير، والأكبر.

و(للروح العلمية) دلائل ومظاهر أو سمات، كنت أشرت إليها، أو إلى أهمها في كتابي: (الحل الإسلامي فريضة وضرورة)، في مجال «النقد الذاتي» للحركة الإسلامية، يحسن بي أن أذكّر بها هنا، وأؤكدها، في مجال تأكيد حاجة الصحوة الإسلامية إليها، وفي بعض الإعادة إفادة.

سمات الروح العلمية المطلوبة:

وللروح العلمية سمات: أشرنا إليها في بعض ما كتبنا، قديما، ولا بأس من إعادته هنا، مع بعض الإضافة والتهذيب [1]. أبرز هذه السمات:

أ - النظرة الموضوعية: إلى المواقف والأشياء، والأقوال، بغض النظر عن الأشخاص كما قال علي بن أبي طالب: «لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله».

ب - احترام الاختصاصات، كما قال القرآن: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ النحل: ٤٣، ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ الفرقان: ٥٩، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ فاطر: ١٤. فللدين أهله، وللاقتصاد أهله، وللعسكرية أهلها، ولكل فن رجاله، وخاصة في عصرنا، عصر التخصص الدقيق، أما الذي يعرف في الدين، والسياسة، والفنون، والشئون الاقتصادية والعسكرية، ويفتي في كل شيء: فهو في حقيقته لا يعرف شيئا.

جـ - القدرة على نقد الذات، والاعتراف بالخطأ، والاستفادة منه وتقويم تجارب الماضي تقويما عادلا، بعيدا عن النظرة (المنقبية): التي تنظر إلى الماضي على أنه كله مناقب وأمجاد! أو النظرة (التبريرية): التي تحاول أن تبرر كل خطأ أو انحراف، ولو بطريقة غير مقبولة، لا شرعا ولا وضعا.

د - استخدام أحدث الأساليب وأقدرها على تحقيق الغاية، والاستفادة من تجارب الغير حتى من الخصوم، فالحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها: فهو أحق الناس بها. وبخاصة ما يتعلق بالوسائل والآليات، كالتقنيات ونحوها، فنحن في سعة من استخدامها: ما دامت تخدم مقاصدنا وغاياتنا الشرعية.

---

(١) انظر: كتابنا (الحل الإسلامي فريضة وضرورة) تحت عنوان (فقدان الروح العلمية) ص٢٥٢، ٢٥٣ طبعة مؤسسة الرسالة. بيروت، ومكتبة وهبة القاهرة.

هـ- إخضاع كل شيء - فيما عدا المُسَلَّمات الدينية والعقلية -: للفحص والاختبار، والرضا بالنتائج: كانت للإنسان أو عليه.

و- عدم التعجُّل في إصدار الأحكام والقرارات، وتبني المواقف: إلا بعد دراسة متأنية مبنية على الاستقراء والإحصاء، وبعد حوار بناء، تظهر معه المزايا، وتنكشف المآخذ والعيوب.

ز- تقدير وجهات النظر الأخرى، واحترام آراء المخالفين في القضايا ذات الوجوه المتعددة، في الفقه وغيره، ما دام لكلٍّ دليله ووجهته، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع، ومن المقرر عند علمائنا: أن لا إنكار في المسائل الاجتهادية، إذ لا فضل لمجتهد على آخر، ولا يمنع هذا من الحوار البناء، والتحقيق العلمي النزيه: في ظل التسامح والحب.

٢ـ سيادة العقلية العلمية لدى أبناء الصحوة:

نريد: أن تتكون لدى أبناء الصحوة (العقلية العلمية)، التي حرصت تعاليم القرآن على إنشائها وتكوينها لدى المسلم. لا (العقلية العامية) الخرافية، التي تقبل كل ما يلقى إليها، ولو كان من الأباطيل والأوهام.

والعقلية العلمية التي ينشئها القرآن، تقوم على دعائم معروفة [(١)]:

أ- فهي ترفض اتّباع الظن، في مقام يطلب فيه اليقين، مثل تأسيس العقائد ونحوها، ولهذا ذم القرآن المشركين بقوله: ﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ النجم: ٢٨.

ب- ترفض اتباع الهوى، والإذعان للعواطف، حيث تكون (الموضوعية) هي المطلوبة ولا يغني غيرها. ولذا قال تعالى عن المشركين أيضا: ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ** ﴾ النجم: ٢٣.

---

(١) بيناها بتفصيل بأدلتها في كتابنا (العقل والعلم في القرآن الكريم) ص٢٤٧ ـ ٢٨٢، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

ج ـ تنكر التقليد الأعمى، والجمود على ما كان عليه الآباء، أو السادة الكبراء. كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ البقرة: ١٧٠.

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾ الأحزاب: ٦٧.

د ـ تؤمن بوجوب النظر والتأمل: في آيات الله في الكون كله، وفي النفس، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ يونس: ١٠١. ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأعراف: ١٨٥. ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ سبأ: ٤٦.

هـ ـ لا تقبل دعوى بغير برهان يثبتها في أي مجال. ولذا تكرر في القرآن قوله للمخاطبين: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة: ١١١. والنمل: ٦٤. والبرهان يعني: الدليل العقلي في العقليات، والدليل التجريبي في الحسيات، والدليل التاريخي في النقليات.

و ـ الخضوع لمنطق العلم في كل شيء، كما قال تعالى في مناقشة الكفار: ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الأنعام: ١٤٣. ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨. ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ الأحقاف: ٤.

٣ـ استخدام لغة الأرقام والإحصاء:

ومن سمات العقلية العلمية: استخدام (لغة الأرقام)، التي يفهمها كل الناس مهما تختلف ألسنتهم، وهي لغة قاطعة الدلالة: إذا استوفت شرائطها. ولا يجوز لأبناء الصحوة، في القرن الحادي والعشرين الميلادي: أن يستعملوا أساليب القرون البائدة، التي تعتمد الخطابيات والوجدانيات في الإقناع والتأثير،

أو تعتمد على المصادفات والاعتباطات، فما عاد هذا يسوغ في عصرنا. كما لا يسوغ في منطق ديننا.

وإذا كان عصرنا، يعتبر استخدام أسلوب الإحصاء: من أبرز دلائل الطريقة العلمية في معالجة الأمور، وهو فارق مميز بين العلميين، والعشوائيين أو الغوغائيين من الناس، فإن النبي ﷺ، قد بادر إلى الانتفاع بالإحصاء منذ عهد مبكر من إقامة دولته بالمدينة.

فقد روى البخاري ومسلم، عن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فقال: «احصوا لي: كم يلفظ الإسلام».

وفي رواية للبخاري، أنه قال: «اكتبوا لي: من يلفظ بالإسلام من الناس» قال حذيفة: فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل [(١)]. . الحديث.

فهو إحصاء كتابي، يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام مقدار القوة البشرية الضاربة، التي يستطيع بها أن يواجه أعداءه المتربصين به، ولهذا كان الإحصاء للرجال فقط، أي القادرين على القتال.

والإحصاء الذي تم في عهد مبكر: من حياة الدولة المسلمة، وتم بأمر من الرسول نفسه في سهولة ويسر: يرينا إلى أي حد يرحب الإسلام باستخدام الوسائل العلمية.

وفي مقابل هذا، نجد في «العهد القديم»: أن أحد أنبياء بني إسرائيل، أراد أن يعمل لهم إحصاء، فنزلت عقوبة سماوية بهم! كأنما (الإحصاء) يمثل تحديا للقدر أو للإرادة الإلهية، وهذا ما استنبط منه الفيلسوف المعاصر الشهير «برتراند راسل» أن «التوراة» والكتاب المقدس: لا يتيح مناخا مناسبا لإنشاء عقلية علمية.

٤ـ التخطيط للمستقبل:

وإذا كان الإحصاء من دلائل الطريقة العلمية، فالتخطيط كذلك، بل هو أوضح دلالة عليها، والتخطيط إنما يعتمد على الإحصاء، ويراد بالتخطيط: وضع خطة لمواجهة احتمالات المستقبل، وتحقيق الأهداف المنشودة.

---

(١) انظر: جامع الأصول، ج١٠ ص١٠٠ حديث ٧٥٧٠ تحقيق عبد القادر الأرناؤوط.

ومن الناس من يتصورون، أو يصورون: الدين في موقف المعارض أو المناقض لفكرة التخطيط العلمي للمستقبل. وهذا من أثر الفكرة القديمة التي جعلت العلم مقابلا للإيمان، فهما ضدان لا يجتمعان، أو خطان متوازيان لا يلتقيان.

والحقيقة: أن فكرة الدين في جوهرها، قائمة على أساس التخطيط للمستقبل. ففيه يأخذ المرء المتدين من يومه لغده، وبعبارة أخرى من حياته لموته، ومن دنياه لآخرته، ولا بد له: أن يخطط حياته، ويضع لنفسه منهاجا يوصله إلى الغاية، وهي رضوان الله ومثوبته.

وفي القرآن الكريم: قصة جعلها الله عبرة لأولي الألباب، وهي قصة نبي الله يوسف عليه السلام. وفيها: يذكر القرآن لنا مشروع تخطيط، للاقتصاد الزراعي لمدة خمسة عشر عاما، لمواجهة أزمة غذائية عامة. عرف يوسف - بما ألهمه الله، وعلمه من تأويل الأحاديث - أنها ستصيب المنطقة كلها، من خلال رؤيا ملك مصر يومئذ، وقد اقترح يوسف عليه السلام مشروع الخطة للملك، ووكل إليه تنفيذها، وكان فيها الخير والبركة على مصر وما حولها، ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يوسف: ٤٧ - ٤٩.

وقد كان لهذه الخطة المحكمة: أثرها في الخلاص من الأزمة، لما فيها من الاحتياطات، والأخذ بكل الأسباب الممكنة، من ترك القمح في سنبله، وتقليل الأكل والاستهلاك، في أيام السعة والخصب، ادخارا لأيام الشدة، والاستهلاك بحساب وتقدير في سنوات الأزمة، بدليل قوله لهم: (ما قدمتم لهن) وإحصان بعض البذور وادخارها لإعادة بذرها، عندما يأتي الغيث والماء.

ويظن آخرون: أن التخطيط للغد، ينافي التوكل على الله، أو الإيمان بقضائه، وقدره، ولهذا يستبعدون كل الاستبعاد: أن يقبل الدين فكرة التخطيط، فضلا عن أن يوجه إليه، أو يحث عليه.

والحق: أن الذي يتعمق في دراسة كتاب الله، وسنة رسوله: يتبين له أنهما يرفضان الارتجال والعشوائية، وترك الأمور تجري في أعنّتها بغير ضابط، ولا رابط،

ولا نظام. وقد بين الرسول، ﷺ: أن التوكل على الله لا يعني اطراح الأسباب أو إغفال السنن، التي أقام الله عليها نظام هذا الوجود، ولا يكاد مسلم يجهل قصة الأعرابي الذي جاء إلى النبي، ﷺ، وترك ناقته أمام المسجد قائلا: يا رسول الله! أأعقل ناقتي وأتوكل، أم أطلقها وأتوكل؟ فقال: «اعقلها وتوكل» [1]. وقد غدا هذا الحديث - الذي يعد من جوامع الكلم - حكمة شائعة، وقاعدة متوازنة، يحفظها الخاص والعام من المسلمين، ويتمثلون به في حياتهم.

ومن قرأ سيرته ﷺ: وجد أنه كان يُعدُّ لكل أمر عدته، ويهيىء له أسبابه وأهبته، آخذا حذره، مقدرا جميع الاحتمالاتَ، واضعا ما أمكنه من الاحتياطات: مع أنه كان أقوى المتوكلين على الله تعالى. كما بينت ذلك في كتابي: (الرسول والعلم).

فهو حين أمر أصحابه - بعد أن اشتد إيذاء قريش لهم -: بالهجرة إلى الحبشة، لم يكن هذا الأمر اعتباطا، أو رمية بغير رام، بل كان نتيجة معرفة بالظروف الجغرافية، والدينية، والسياسية: للحبشة في ذلك الوقت.

فلم يكن من الحكمة، ولا من حسن الخطة: أن يأمرهم بالهجرة إلى مكان - مهما بعد في شبه جزيرة العرب - فإن قريشا، بما لها من نفوذ ديني أو أدبي، تستطيع أن تلاحقهم.

ولم يكن من الحكمة، ولا من حسن الخطة: أن يذهبوا إلى بلد تحت سيطرة الفرس أو الروم، حيث يحكمها أباطرة، لا يقبلون مثل هذه الدعوة الجديدة.

ولم يكن من الحكمة، ولا من حسن الخطة: أن يذهبوا بعيدا إلى بلاد الهند والصين، حيث تنقطع أخبارهم، وتكون الهجرة مهلكة لهم.

ولقد كانت الحبشة: هي المكان المناسب جغرافيا، فهو ليس جد بعيد، ولا جد قريب، بل بينه وبين قريش بحر.

---

(١) رواه الترمذي من حديث أنس، وقال: غريب أي ضعيف، وأنكره يحيى القطان لكن أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث عَمْرو ابن أمية الضمري، وإسناده - كما قال الزركشي: - صحيح - ورواه عنه أيضا ابن خزيمة في صحيحه بلفظ: «قيدها وتوكل» وإسناده - كما قال الزين العراقي - جيد - انظر: فيض القدير ص٧ حديث: ١١٩١.

وكانت الحبشة: هي المكان المناسب دينيا، فقد كانوا أهل كتاب من النصارى الذين يُعدّون أقرب مودة للمسلمين.

وكانت الحبشة: هي المكان المناسب سياسيا، فقد كان يحكمها رجل اشتهر بالعدل والنصفة، ولهذا روي أن الرسول قال لأصحابه: «إن بها ملكا لا يظلم عنده أحد»[1].

وهذا يدلنا على أن الرسول وأصحابه: لم يكونوا في عزلة عن العالم من حولهم، برغم صعوبة المواصلات بين الأقطار بعضها وبعض.

ويدل على ذلك أيضا: موقفهم من حرب الفرس والروم، وما كان من جدل بين المسلمين والمشركين في هذا، مما نزلت فيه أوائل سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ الروم: ٢، ٣.

وهكذا... فقد كانوا ـ وهم في فجر الدعوة، وبرغم الضعف والاضطهاد ـ على صلة بالصراع العالمي، بين الدولتين العظميين في ذلك العصر، أو المعسكرين الكبيرين: الشرقي والغربي.

٥ ـ إقرار منطق التجربة في الأمور الدنيوية:

ولعل أظهر ما يميز «العلم»، بالمفهوم العصري أو الغربي: أنه لا يقوم على المنطق الشكلي أو الصوري أو القياسي، الذي ينسب إلى أرسطو، وإنما يقوم على منطق الملاحظة والتجربة، ويخضع في نتائجه لما تأتيان به؛ ولهذا يسمى: «العلم التجريبي» ويسمى منهجه: «المنهج التجريبي».

وهنا أيضا: نجد الرسول ﷺ، سبق إلى إقرار مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، مثل أمور الزراعة والصناعة والطب وما شاكلها، فما أثبتت التجربة نفعه في هذا: فهو مطلوب شرعا، وما أثبتت ضرره: فهو مرفوض شرعا.

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عليه الصلاة والسلام: من قضية تأبير النخل، حين رأي أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٣).

بمكة، وهي واد غير ذي زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير بها إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها: أنها من أمر الوحي والدين الذي لا يجوز مخالفته. فتركوا التأبير في ذلك الموسم، فخرج التمر رديئا. فلما علم ذلك عليه الصلاة والسلام: بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحي الإلهي، بل من باب المشورة الدنيوية. حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم في النهاية: «أنتم أعلم بأمر دنياكم». فهذه الشئون الدنيوية الفنية المحض، متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها وفقا لمصلحتهم. وليس من شأن الوحي أن يتدخل فيها، فهم بها أدرى وأعلم من نبيهم ﷺ.

والقصة في صحيح مسلم، ومسند أحمد وغيرهما، رواها عدد من الصحابة منهم: طلحة بن عبيد الله، ورافع بن خديج، وعائشة، وأنس، رضي الله عنهم.

ففي صحيح مسلم [1] من رواية رافع بن خديج، أنه قال لهم: «إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي: فإنما أنا بشر».

وفيه من رواية عائشة وأنس [2]: أنه ﷺ، قال لهم بعد أن خرج التمر شيصا - بسرا رديئا - ما لنخلكم؟! قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

فالقانون الذي يجب الخضوع له هنا: هو القانون الذي تنتجه الخبرة والممارسة، أو المشاهدة والتجربة. ويكفي العقل الإنساني في هذه الأمور: هاديا ودليلا. أما الوحي فحسبه أن يضع للناس: القيم، والمبادئ العامة، والضوابط. ثم يدع البشر يتصرفون تبعا لما يعلمون. وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

٦- مراعاة السنن في الأنفس والآفاق:

ومن سمات العلمية والعقلانية المطلوبة:

مراعاة سنن الله تعالى وقوانينه في الآفاق والأنفس، في الكون والمجتمع.

وهي سنن تتميز بالشمول والصرامة والثبات، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد

---

(١) رواه مسلم من حديث رافع بن خديج برقم (٢٣٦٢).
(٢) رقم (٢٣٦٣).

لسنة الله تحويلا . فهي تجري على المؤمنين كما تجري على الكافرين، وتجري على أهل الشرق، كما تجري على أهل الغرب، وتجري على الناس قبل عشرين أو خمسين قرنا، كما تجري عليهم اليوم، وكما تجري عليهم غدا.

ومن هذه السنن:

١ـ سنن الله في ترتيب المسببات على أسبابها، والنتائج على مقدماتها. فلا حصاد بغير زرع، ولا زرع بغير بذر، ولا بذر بغير سقي وتعهد.

٢ـ سنن الله في نشوء الحضارات وانحلالها، وقيام الدول وسقوطها، وازدهار المجتمعات وذبولها. كما قال تعالى: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ آل عمران: ١٣٧ .

٣ـ سنن تغيير الأقوام والمجتمعات، فهي لا تتغير إلا بمغير، وهو مغير من داخلها، لا من خارجها، وهو أن تغير ما بأنفسها ليغير الله ما بها، أي تغيره من الشر إلى الخير، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الغواية إلى الرشد، فيغير الله حالها من الضعف إلى القوة، ومن الانفراط إلى التماسك، ومن التشرذم إلى الوحدة، ومن القنوط إلى الأمل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ الرعد: ١١ .

٤ـ سنن النصر على الأعداء، فإن الله لا ينصر إلا من ينصره: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ** ﴾ محمد: ٧ . ولا ينصره إلا المؤمنون الذين ينصرون دينه، ويعلون في الأرض كلمته. كما قال تعالى: ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ الروم: ٤٧ . فالنصر للمؤمنين، والنصر بالمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ الأنفال: ٦٢ .

٤ ـ من الفروع والذيول
إلى الرءوس والأصول

(العطاء والعمل، بدل الكلام والجدل) هذا هو شعار المرحلة القادمة للصحوة الإسلامية، أو هكذا يجب أن يكون.

ولكن دوائر العمل رحبة، ومراتبه متعددة، فأيها ينبغي أن يبدأ به، وأن تشير الأصابع إليه، وينصبّ التوجيه والتوكيد عليه؟

أهو العمل الفكري؟

أم العمل التربوي؟

أم العمل الحركي؟

أم العمل الاجتماعي؟

ورأيي: أن كل مجال من هذه المجالات، ينبغي أن يكون له نصيب من العمل الواجب والمنشود.

ولكن العناية يجب أن توجه أولا؛ إلى الميدانين الأوليين: ميدان الفكر والثقافة، وميدان التربية والتكوين.

إن تصحيح المفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة، ينبغي أن تكون له الأولوية المطلقة، فإن أعمال الناس وسلوكهم: إنما هي ـ في الغالب ـ ثمرة لما استقر في داخل أنفسهم، من أفكار وتصورات، تستقيم باستقامتها، وتعوج باعوجاجها.

فإذا صححنا التصورات والأفكار، كان عملنا التالي تربية الناس عليها، حتى يجتمع الوجدان والإرادة مع الفكر، لتكوين سلوك مستقيم.

مخاطر التركيز على الفروع والجزئيات:

وأول ما ينبغي تصحيح التصور فيه، وتوجيه الاهتمام إليه: هو ما وقع فيه بعض فصائل الصحوة الإسلامية المعاصرة، من التركيز الشديد على الفروع والذيول والجزئيات والهامشيات من الأمور، كالنوافل من المأمورات، والمكروهات من

المنهيات، بدل التركيز على الأصول والكليات والأساسيات، ومنها: الفرائض في المأمورات، والمحرمات بل الكبائر: في المنهيات. ولهذا التركيز مثالبه وأخطاره، التي لا ريب فيها.

ومن هذه المثالب والأخطار:

١ـ أنه مخالف للمنهج القرآني والنبوي:

أول هذه المثالب والآخذ: أنه مخالف للمنهج القرآني والنبوي.

فالقرآن الذي أنزله الله في ثلاث وعشرين سنة، ظل ثلاث عشرة منها، أي طوال العهد المكي، يعنى بإيضاح الأصول والكليات، من العقائد والأخلاق، والأعمال، وغرسها في الأنفس والعقول، وتعبئة العزائم والمشاعر للالتزام بها، بالدعوة والتشويق والوعد والوعيد وضرب الأمثال، وسوق القصص عبرة لأولي الألباب، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

والنبي ﷺ، ظل طوال هذه المرحلة، يربي الجيل الأول على هذه المعاني الكبار، وهذه القيم العليا، اعتقادا وتعبدا، وخلقا وسلوكا، وفكرا وعملا.

بل العهد المدني نفسه ـ وهو عهد التشريع، والتفصيل للمنهج الإسلامي ـ: لم ينس يوما التذكير بهذه الأصول، كما نرى ذلك في السور المدنية، (انظر على سبيل المثال: أوائل سورة البقرة، وأواخرها، وأوائل سورة آل عمران، وأواخرها).

وكثير من التشريعات تبدأ بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ دلالة على أن الإيمان هو أساس الالتزام بالتشريع، والمحرك للعمل به.

٢ـ أن مفردات الجزئيات الفرعية والهامشية، لا تكاد تتناهى:

وثاني هذه المآخذ والمثالب: أن مفردات الجزئيات الفرعية والهامشية كثيرة جدا، ولا تكاد تنتهي. فمن شغل نفسه بها أكلت جهده، والتهمت وقته، ولم تدع له من طاقة الجسم والفكر والنفس، ولا من الوقت: ما ينفقه في خدمة الأصول والقضايا الكلية.

والإنسان بلا شك محدود الطاقة، فما استهلك منها في الفروع والذيول والهوامش والنوافل: جدير أن يكون على حساب الأصول والرءوس والفرائض،

ولهذا جاء عن ابن مسعود، وغيره من السلف: ما اجتهد قوم في بدعة، إلا أضاعوا مثلها من السنة.

ومثل ذلك نقوله لمن استفرغ وسعه في المسائل الجزئية، والخلافات الفرعية، والمعارك الجانبية. فهذا لا بد أن يكون على حساب قضايا كبيرة، كانت تحتاج إلى هذا الجهد والوقت والطاقة أن تنفق فيها، ولهذا قال بعض الحكماء: ما رأيت إسرافا إلا وبجانبه حق مضيع.

٣- أن هذه الجزئيات الفرعية، مظنة الخلاف دائما أو غالبا:

وثالث هذه المآخذ والأخطار: أن هذه الفروع والجزئيات مظنة لكثرة الاختلاف؛ لأن أدلتها ظنية الثبوت، ظنية الدلالة، ولهذا يكثر فيها الاختلاف، وتتعدد الآراء، تبعا لتعدد الأفهام، وتنوع المشارب والمدارس: ما بين مدرسة الرأي، ومدرسة الأثر، ومدرسة الظاهر، وورثة هذه المدارس، وما بين المشددين والميسرين، وكلاهما موجود.

والتركيز على هذه الفرعيات والجزئيات الخلافية، من أبناء الصحوة الإسلامية: يوقع الخلف بينهم، بل قد يزرع بينهم الشقاق، ويورث الحقد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين!

لا يقال: لماذا لا يدعى الجميع إلى الرأي الصواب، والمذهب الحق، ويتفقون عليه: بدل الخلاف والاختلاف؟

والجواب: أنه ليس في هذه المسائل الجزئية الاجتهادية: رأي أو مذهب يُجزم بأنه الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، والحق الذي لا يشوبه الباطل.

والصواب فيها بالنسبة لكل مجتهد: ما أداه إليه اجتهاده، وهو معذور فيما أخطأ فيه، بل مأجور أجرا واحدا، وأقصى ما يقوله مجتهد عن اجتهاده: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

بل ذهب بعض الأصوليين: إلى أن آراء المجتهدين جميعا في المسائل الجزئية العملية: صواب، يعنون أن الشارع ليس له حكم معين، في المسائل الاجتهادية، بل حكم الله فيها ما انتهى إليه اجتهاد المجتهد، والمذهبان مذكوران في كتب الأصول، ولكل أدلته، وإن كان الأول أرجح فيما أرى.

وأيا ما كان الأمر، فلو أراد الله أن يجمع الناس على رأي واحد، في هذه الأمور: لأنزل فيها آيات محكمات، ونصوصا قاطعات، ترفع الاشتباه، وتمنع الاحتمال، ولكنه تعالى بحكمته ورحمته: جعل فيها نصوصا متشابهات، تحتمل أكثر من دلالة، وأكثر من تفسير، وربما تركها (عفوا) دون نص ينفي أو يثبت، رحمة منه غير نسيان، توسعة على خلقه، وتيسيرا على عباده.

رفع الخلاف غير ممكن لأسباب:

والذين يظنون من (الظاهرية الجدد): أنهم قادرون على رفع الاختلاف، ورد الناس إلى النصوص وحدها، وجمعهم عليها، وطرح آراء البشر واجتهاداتهم جملة: واهمون أشد الوهم، لجملة أسباب:

أولا: لأن الآخرين، قد لا يسلمون لهم بثبوت النص الذي يستندون إليه، ولهذا أسباب كثيرة مبسوطة في مواضعها.

ثانيا: لأنهم قد يخالفونهم في دلالته على الحكم الذي فهموه منه، لاعتبارات متعددة: فقهية، أو أصولية.

ثالثا: قد يكون عندهم معارض أقوى من النص المستدل به: من نصوص الشرع، أو قواعده، أو مقاصده العامة، أو الإجماع العلمي أو العملي، إلى غير ذلك.

وقد ضربت لذلك عددا من الأمثلة العملية، في مسائل الفقه، ذكرتها في بعض كتبي.

من النوافل إلى الفرائض:

ويدخل في هذا الخط من خطوط ترشيد الصحوة: الانتقال من التركيز على النوافل، إلى التركيز على الفرائض.

ذلك: أن ما طلب الشارع منا فعله، له مرتبتان:

مرتبة الفرض أو الواجب:

١ـ ما تشدد في طلبه، فطلبه من المكلفين طلبا جازما، وهذا هو الفرض أو الواجب. وقد رتب الشارع على فعله: الثواب، وعلى تركه: العقاب.

وهو ينقسم إلى قسمين:

فرض عين:

وهو ما يفترض على كل مكلف أداؤه بشروطه، مثل: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، ومثل بر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، ونحوها...

فرض كفاية:

وهو ما يفترض على الأمة، أو على جماعة معينة ـ في مجموعها ـ لا على فرد معين فيها، بحيث إذا قام بها بعض كاف: سقط الإثم عن باقي الجماعة، أو الأمة، وإلا أثمت الجماعة، أو الأمة كلها.

مرتبة المندوب، أو النافلة، أو السنة:

٢ـ ما لم يشدد الشارع في طلبه: على معنى أنه طلبه طلبا غير جازم، وهذا هو المندوب أو المستحب، ويدخل تحت اسم (السنة)، أو (التطوع)، أو (التنفل)، أو (النافلة). لأن النفل هو الزيادة، وهذه النوافل: هي زيادة على الفرائض التي ألزم الله بها.

ومن سنة الشارع: أنه جعل في العبادات الشعائرية جانبا إلزاميا لا خيار لأحد في تركه، وهذا هو جانب الفرض فيها.

كما جعل فيها جانبا اختياريا، لمن قويت رغبته في الخير، وهذا هو جانب النوافل، أو التطوع.

ففي الصلاة: نجد الصلوات الخمس المكتوبة في كل يوم وليلة، وهي التي لا يتم الإسلام ولا يكمل الإيمان إلا بها، وهي الفاصل ما بين المؤمن والكافر.

ومثلها: صلاة الجمعة على الرجال، فقد ورد أن من تركها ثلاث مرات، تهاونا بها: طبع الله على قلبه.

وبجوار ذلك، نجد السنن الرواتب المتكررة، والمرتبطة بصلوات الفريضة (ركعتان قبل الصبح، وركعتان قبل الظهر، وركعتان بعده، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء. . والوتر).

وهناك نوافل أخرى دون ذلك: مثل صلاة الليل، وصلاة الضحى.

وفي الصيام نجد بعد رمضان: صيام ست من شوال، وصيام تسع من ذي الحجة، أوكدها يوم عرفة، وصيام عاشوراء وتاسوعاء، وصيام الثلاثة الأيام البيض من كل شهر، وصيام الاثنين والخميس. . وأحب الصيام إلى الله: صيام داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما.

وفي الزكاة: نجد ـ بعد الزكاة المفروضة المحددة في الزروع والثمار، والأنعام، والنقود، وعروض التجارة، وغيرها ـ: الحقوق الواجبة في المال بعد الزكاة.

ثم نجد الصدقات المندوبة: التي حث عليها القرآن والسنة، بأبلغ أساليب الترغيب والترهيب، وخصوصا: إذا كانت في يوم ذي مسغبة، على يتيم ذي مقربة أو مسكين ذي متربة.

وفي الحج: نجد ـ بعد حج الفريضة، وهي في العمر مرة واحدة ـ استحبابه للقادر عليه بين حين وآخر، واستحباب العمرة طوال العام، ولا سيما في شهر رمضان.

الحكمة في شرعية السنن والنوافل:

وإنما حث الشارع على هذه السنن والنوافل والمستحبات بعد الفرائض، ليحقق عدة أهداف دينية:

أولها: أن تكون جبرا لما عسى أن يحدث في أداء الفرائض: من خلل أو قصور، قلما يسلم منه بشر، ففي النوافل: يكون العوض لما يقع في الفرض من قصور، أو تقصير.

وقد صح في الحديث[1]: «إن أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من عمله صلاته. فإن صلحت فقد أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص

---

(١) رواه الترمذي وحسنه (٤١٣) عن أبي هريرة.

من فريضته شيء قال الرب عز وجل : انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك »[1].

ثانيها: أن تكون (رصيدا) احتياطيا للمؤمن، يكتب في سجل حسناته، يقاوم به ما يكتب عليه في سجل السيئات، وما أكثرها! سواء كانت سيئات اللسان، أم الجوارح، أم القلب!

وما أكثر ما يصدر عن المرء: من سيئات يعدها هنات هينات، على حين تهوى بصاحبها في قعر جهنم مسافات ومسافات!

حتى إن كلمة واحدة لا يلقي لها بالا: يهوى بها في جهنم، سبعين خريفا!

لقد قال النبي ﷺ، لعائشة في جملة قالتها ـ أشارت بها مجرد إشارة ـ إلى قصر امرأة أخرى: «يا عائشة، لقد قلت كلمة، لو مزجت بماء البحر لمزجته»[2].

هذه الخطايا: التي يتعرض لها الإنسان كل يوم، بل كل ساعة تحتاج إلى (تغطية) من صالح العمل، حتى لا (يكشف حسابه) عند الله، إذا استخدمنا لغة المصارف، والنوافل التي يتقرب بها المسلم إلى ربه: تسدّ هذه الثغرة.

ثالثها: أنه الباب إلى الترقّي: في مدارج القرب من الله تعالى، حتى يصل إلى حبه سبحانه. ومن أحبه الله: فقد ارتقى مكانا عليّا، وغدا إلهيّ السمع والبصر والقوة، واتصل جهاز الإرسال عنده: بأجهزة الاستقبال في السماوات العلا، وحتى إنه يدعو فيجاب، ويسأل فيُعطى، ويستعيذ فيُعاذ.

روى البخاري ـ في صحيحه ـ عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل، أنه قال:

«ما تقرّب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي

---

(١) ما لم يعارضه أمر آخر مثل شدة الزحام الذي قد يؤدي إلى قتل الناس، كما شوهد في أحيان كثيرة. أو تكون هناك مصارف للأموال أولى من الحج وأوجب، كمساعدة المجاهدين من المسلمين، وإنقاذ المحاصرين، وإغاثة الذين يتعرضون للموت من الجوع أو البرد، أو قلة الغذاء أو الكساء أو الدواء.

(٢) رواه عن عائشة أبو داود في الأدب (٤٨٧٥) والترمذي (٢٥٠٤) وقال: حسن صحيح.

بالنوافل: حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه».

أفاد هذا الحديث القدسي الشريف، معنيين كبيرين:

الأول: أن التقرب إلى الله بأداء الفرائض يعتبر في المقام الأول لمن أراد التعبد لله تعالى، وسلوك الطريق إلى رضوانه عز وجل.

والثاني: أن باب التقرب إلى الله تعالى بالنوافل: باب مفتوح لأصحاب الهمم والرغبة فيما عند الله سبحانه، حتى ينالوا محبة الله تعالى، وما أجلها منزلة!

أداء الفرائض أولا:

والواجب على المسلم: أن يوجه همه وإرادته أولا، إلى أداء الفرائض وأحكامها حتى تبرأ ذمته، ويسلم من عقاب الله عز وجل. فإذا أدى الفرائض ووفاها حقها: كملها بالنوافل.

حتى الفرائض ذاتها، ينبغي: أن يرتبها بعضها على بعض، حسب منزلتها في دين الله.

ينبغي: أن يقدم فرض العين على فرض الكفاية، وفرض العين الأهم على فرض العين الأقل أهمية، وفرض الكفاية الذي لم يقم به أحد: على فرض الكفاية الذي قام به غيره[1].

ومن هنا: قدم النبي ﷺ بر الوالدين على الجهاد، إذا كان فرض كفاية، كما صح ذلك في أكثر من حديث.

أما إذا كان الجهاد فرض عين: كما إذا غزا الكفار بلدا من بلاد الإسلام ودخلوه، فواجب على أهله جميعا: دفعهم وقتالهم بكل ما يقدرون عليه.

وهنا يخرج لقتالهم ودفعهم: كل من لديه طاقة للدفاع، فيخرج الابن بغير إذن أبيه، والمرأة بغير إذن زوجها، والخادم بغير إذن سيده.

---

(١) فصلنا القول في ذلك في كتابنا (في فقه الأولويات) فليراجع.

لأن القتال هنا: فرض عين يتعلق بحق الجماعة كلها، وطاعة الوالدين فرض يتعلق بحق فرد أو فردين، فحق الجماعة: أولى بالرعاية والتقديم.

أخطاء بعض المتدينين:

وفي هذا المقام: نرى بعض المتدينين وبعض فصائل الصحوة ـ لقلة فقههم وضعف بصيرتهم بالتدين الصحيح ـ: يقعون في عدة أخطاء:

١ـ التشديد في النوافل:

الخطأ الأول: هو التشديد على عموم الناس: في أداء السنن والنوافل، حتى كأنها فرائض لازمة، جاهلين أن مراتب الناس متفاوتة، وأن هممهم متباينة، وأن العوام غير الخواص، والخواص غير خواص الخواص، وكل يعمل على شاكلته.

وهذا التشديد: مخالف لهدي النبي ﷺ، الذي فرق بين الفرض والتطوع، تفرقة حاسمة: فألزم بالأول، وخيَّر في الثاني.

روى الستة ـ إلا الترمذي ـ من حديث طلحة بن عبيد الله، قال: جاء رجل إلى رسول الله، ﷺ، من أهل نجد: ثائر الرأس، يسمع دويّ صوته، ولا يُفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله، ﷺ، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله، ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة، قال: هل عليّ غيرهن؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع. فقال رسول الله عليه وسلم: «وصيام رمضان»، قال: هل عليّ غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع»، وذكر له الزكاة. فقال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع»، فأدبر، وهو يقول: والله! لا أزيد على هذا ولا أنقص منه! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أفلح إن صدق، أو دخل الجنة، إن صدق»[١].

وروى الشيخان عن أبي هريرة: أن أعرابيا جاء إلى رسول الله، ﷺ، فقال: يا رسول الله! دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة! قال: «تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» قال: والذي نفسي بيده! لا أزيد على هذا شيئا أبدا، ولا أنقص منه. فلما ولّى قال النبي ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا»[٢].

---

(١) انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم (٥).
(٢) المرجع السابق رقم (٨).

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله: أن رجلا - في بعض الروايات أن اسمه النعمان بن نوفل - سأل رسول الله، صلى عليه وسلم؛ فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئا، أأدخل الجنة؟ قال: «نعم». قال: والله! لا أزيد على ذلك شيئا.

٢. تقديم النوافل على الفرائض:

والخطأ الثاني - لهذا النوع من المتدينين - هو: تقديم النوافل على الفرائض، وإعطاء النوافل من الاهتمام والتنبيه والرعاية: ما لا تعطى الفرائض على لزومها وأهميتها.

والقاعدة الإسلامية المتفق عليها تقرر: أن الله لا يقبل النافلة، حتى تؤدى الفريضة.

ويقول السلف: من شغله الفرض عن النفل: فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض: فهو مغرور!

ولهذا نعجب: ممن يحرص على أداء السنن والنوافل، ولا يضيع شيئا منها، ويحرص على ختم الصلاة: بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، ومع هذا لا يؤدي الفرض كما ينبغي، قد يتهاون في بعض الشروط، أو في بعض الأركان: فلا يستنزه - أو لا يستبرئ - من بوله، ولا يُسبغ الوضوء، ولا يتم الركوع ولا السجود، ولا الخشوع، وهو روح الصلاة، مع قول الله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ** ﴾ المؤمنون: ١، ٢. وهو يتشاغل عن الصلاة حتى يفوت وقتها، ويحق عليه وعيد الله: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴾ الماعون: ٤، ٥.

وأكثر من ذلك: أن يهتم بعض المتدينين بالنوافل والذكر والتسبيح، وقد يحفظ من الأذكار والأدعية المأثورة الشيء الكثير، يردده في الصباح وفي المساء، وفي مناسبته الخاصة، وقد يحج ويعتمر كل عام، وخصوصا عمرة رمضان، ولكنه - مع هذا -: مفرط في بر والديه، أو في صلة أرحامه، أو في حسن علاقته بجيرانه، أو في الوفاء بديونه، أو في أداء الأجر لمن استوفى منه العمل والجهد، أو مقصر في أدائه لعمله الدنيوي، الذي يتقاضى عليه أجرا من فرد، أو من مؤسسة أو من حكومة!

وكثيرا ما تراه: لا يتحرّى الحلال في كسبه، ولا يتقي الشبهات، استبراء لدينه وعرضه، وبعدا عن حمى الحرام خشية أن يقع فيه، بل قد يتورط في الحرام الصريح، كالاستقراض بالفوائد الربوية من البنوك، ودفع الرشوة ـ ولو بأسماء أخرى: كالعمولة والهدية ـ لموظف أو مندوب الشركة أو المؤسسة، لتسهيل أموره لدى إدارته أو شركته أو مؤسسته، وربما كان تاجرا، فيحتكر السلع ليغليها على المسلمين، أو يبخس الناس أشياءهم.

وهذا: من الخلل في فهم الدين، وسوء الترتيب بين أحكامه وأعماله، وتقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم.

وهذا ما أنكره العلماء المحققون من قديم.

يقول الإمام أبو حامد الغزالي، في كتاب (ذم الغرور) من (إحيائه) ـ حين تحدث عن بعض أصناف المغترين ـ:

فمنهم: فرقة أهملوا الفرائض، واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى التشريع، ويقدر الاحتمالات البعيدة: قريبة ـ في النجاسة ـ. وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال، ـ قدر الاحتمالات القريبة بعيدة! ـ وربما أكل الحرام المحض. ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام: لكان أشبه بسيرة الصحابة، فقد توضأ عمر ـ رضي الله عنه ـ بماء في جرة نصرانية، مع ظهور احتمال النجاسة، وكان ـ مع هذا ـ يدع من الطعام الحلال، مخافة الوقوع في الحرام.

وفرقة أخرى: حرصت على النوافل، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، نرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولا يجد للفريضة لذة، ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ ـ فيما يرويه عن ربه ـ: «ما تقرّب المتقربون إليّ: بمثل أداء ما افترضت عليهم»[1]. وترك الترتيب بين الخيرات: من جملة الشرور.

(١) «ما تقرب المتقربون إلي بمثل ما افترضت عليهم» أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة بلفظ «ما تقرب إلي عبدي..».

بل قد يتعين في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فعلان: أحدهما يضيق وقته، والآخر يتّسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه: كان مغرورا.

ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة، والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض: تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به، على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان، على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يحب تقديم حاجة الوالدة، على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله، صلى عليه وسلم، فقيل له: من أبرّ يا رسول الله؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أباك» قال ثم من؟ قال: «أدناك فأدناك»[1].

فينبغي: أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا: فبالأحوج، فإن استويا: فبالأتقى والأورع.

وكذلك: من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج، وهو مغرور. بل ينبغي: أن يقدم حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد (حينئذ) معصية، وإن كان هو طاعة في نفسه.

وكذلك قد تصيب ثوبه نجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله: بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء: أهم من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك: فهو مغرور»[2].

وقد ألفت في هذا الموضوع المهم: كتابي (في فقه الأولويات)، لبيان مراتب الأعمال، وأيها أهم وأرجح في ميزان الشرع.

---

(١) حديث: من أبر؟ قال: «أمك... حديث» أخرجه الترمذي والحاكم وصححه من حديث بهز بن حكيم بن حكيم عن أبيه عن جده. (وهو في الصحيحين بلفظ آخر من حديث أبي هريرة).

(٢) الإحياء ـ ج٣ ص ٤٠٠ ـ ٤٠٤.

٣ـ تضييع الحقوق اللازمة، بسبب النوافل:

والخطأ الثالث لبعض المتدينين هو: تضييع بعض الحقوق الواجبة لآخرين، بسبب الحرص على النوافل والمستحبات.

وحكم الشرع هنا: أن النوافل لا يجوز أن تطغى على حقوق الغير.

وفي الحديث: «لا يحل لامرأة: أن تصوم وزوجها شاهد، إلا بإذنه» رواه البخاري والمقصود صيام التطوع، (كما نصت على ذلك أحاديث أخرى)، لأن صيام الفريضة، لا يستأذن فيه أحد، وإنما اشترط إذن الزوج: لأن له حقا في زوجته، لا يجوز أن تتجاهله بدعوى التطوع.

ونحن نرى أناسا من أهل التدين: يشتغلون بنوافل العبادات، ويضيعون معها حقوق العباد.

يصوم أحدهم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولكنه ـ يقصر في تدريسه لتلاميذه، لما يجلبه الصوم عليه من مشقة وظمأ، أو تراه يؤخر عمل الناس إلى يوم فطره، ولو أفطر وقضى مصالح الخلق المعطلة: لكان خيرا من التطوع بالصيام.

وترى آخرين: يحجون أو يعتمرون، فيحرصون كل الحرص على تقبيل الحجر الأسود، وهذا حسن ومحمود منهم، ولكن الذي لا يحسن ولا يحمد: ألا يبالوا في سبيل ذلك بإيذاء عباد الله، واستعمال العنف والقسوة معهم، ولو تنزهوا عن ذلك واكتفوا بالإشارة إليه بأيديهم، أو بشيء معهم: لكفاهم ذلك، وكان خيرا لهم.

وآخرون يتزاحمون على مرمى الجمرات في الحج، ولو سقط الناس تحت أقدامهم، فهم لا يبالون بهم وإن زهقت أرواحهم، وما كلفهم الله: أن يقتل بعضهم بعضا من أجل منسك ليس بركن من أركان الحج، وإنما هو واجب أو سنة، يقع بعد التحلل التام من الإحرام بالحج، ويجوز فيه: الإنابة والتأخير للحاجة والعذر، وأي عذر أكبر من تعرض الناس للهلاك؟!

ومن المتدينين: من يحرصون على الحج في كل موسم، وعلى العمرة في كل رمضان، بل ربما يعتمر في العام أكثر من مرة، وينفق في ذلك الكثير من المال،

ولكنه مع هذا: يماطل في الوفاء بديون عليه لعباد الله، مع ما جاء في الحديث الصحيح: «يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن»(١)، فإذا كانت الشهادة في سبيل الله -على مالها من عظيم الفضل-: لا تكفّر أكل ديون الناس بالباطل، فكيف بغير الشهادة من الأعمال، وهي دونها يقينا؟

ومن هؤلاء الحجاج والمعتمرين: من يظلم عماله وموظفيه، أو المستأجرين لأرضه أو عقاره، مع أن الظلم: من أكبر الذنوب عند الله تعالى، وهو ظلمات يوم القيامة.

من المختلف فيه إلى المتفق عليه:

ومما يدخل في هذا الخط، من خطوط ترشيد الصحوة: الانتقال بها من التركيز على المختلف فيه، إلى التركيز على المتفق عليه. بحيث لا تكون المسائل الخلافية هي شغلها الشاغل، وهمها الأكبر.

فإن مما شاب صفاء الصحوة الإسلامية: وجود عدد من المتدينين -أو المنتمين إلى الجماعات الدينية- جعلوا أكبر همهم، البحث عن الأمور التي اختلف فيها العلماء: في الحل أو الحرمة، في الإيجاب أو الاستحباب، في الصحة أو الفساد.

وهم ينظرون إلى عباد الله: من خلال مواقفهم من هذه الأمور الخلافية، فهما وعملا، وعلى أساسها: ينزلون الناس منازلهم، فإما ارتقوا بهم إلى أعلى عليين، وإما هبطوا بهم إلى أسفل سافلين، كأنما هذه الأمور الخلافية: هي أساس الاعتقاد، وأساس التعبد، وأساس السلوك!!

هكذا تجدهم: لا يوجهون عنايتهم إلى أركان الإيمان الستة، ولا إلى أركان الإسلام الخمسة، ولا إلى مكارم الأخلاق، التي بعث الرسول ليتممها، ولا إلى الواجبات المتفق على وجوبها، ولا إلى المحرمات المقطوع بحرمتها.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٤١) ومسلم (١٨٨٦) عن عبد الله بن عمرو.

إنما تراهم: ينصبون المعارك، حول أشياء أخرى:

إعفاء اللحية، أو تقصيرها، أو حلقها، أو الأخذ منها.

إطالة الثوب، أو تقصيره.

وضع اليدين عند القيام في الصلاة: عند السرة، أو فوقها، أو تحتها، أو عند الصدر، أو إرسالها.

جلسة الاستراحة، أو النزول بالركبة في الصلاة.

احتساب الركعة لمن أدرك الإمام في الركوع، أو عدم احتسابها: حتى يدرك القيام والقراءة.

الغناء بآلة وبغير آلة: (أي الموسيقى، أو بغيرها) حلال أم حرام أم مكروه ؟

وجه المرأة: عورة أم ليس بعورة، وتغطيته بالنقاب: واجب، أم ليس بواجب؟

ذبائح أهل الكتاب: حلال أم حرام؟

الرسم ـ والتصوير الفوتوغرافي ـ: جائز، أم ممنوع؟

الذهب المحلَّق للنساء: حلال، أم حرام؟

إلى آخر هذه المسائل الفروعية، والتي لا ينتهي الخلاف فيها.

حمل الخلاف إلى أوربا وأمريكا:

والعجيب: أن هؤلاء المُولعين بالخلافيات، لما هاجروا من بلاد الشرق، إلى أوربا وأمريكا وما وراء البحار، هاجروا مصطحبين هذه العقلية الغريبة، فلا غرو أن وجدت ـ حيثما ذهبت للقاء التجمعات الإسلامية في تلك الديار النائية ـ: الأسئلة التقليدية الروتينية حول الخلافيات، تلاحقني في كل مكان، فهي القاسم المشترك للأسئلة، بعد كل محاضرة ألقيها، وفي أي مؤتمر، أو ندوة أشارك فيها، وفي أي حلقة أشهدها.

وقد عرفت من بعض الإخوة: أنهم سألوا فيها من زارهم من قبلي، كما سيسألون فيها: من يزورهم من بعدي، وسيظلون يسألون ويسألون . . .

مآخذ على هذا الاتجاه:

وعيب هؤلاء (الخلافيين)، يتمثل في عدة أمور:

١ـ الولع الدائم بإثارة مسائل الخلاف، فلا تعقد محاضرة أو ندوة أو درس أو حديث: إلا وجدتهم يلفون ويدورون حول هذه المسائل، فهي شغلهم الشاغل، ومحور تفكيرهم واهتمامهم، وبها يثبتون وجودهم وذواتهم.

٢ـ اعتبار ما يتبنونه من آراء في مسائل الخلاف: هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ. كما أن رأى الآخرين هو الخطأ الذي لا يحتمل الصواب! ويتبع هذا الشدة في الإنكار على الآخرين، وهذا إنما جاء ثمرة للجهل بحقائق: يعرفها أهل العلم والتحقيق، وإن جهلها الذين يأتون البيوت من غير أبوابها، ويتلقون المعارف من غير أهلها.

ومن هذه الحقائق: أنه لا إنكار في المسائل الاجتهادية، التي تتعارض فيها الأدلة، وتختلف فيها وجهات النظر، لعدم وجود دليل قطعي فيها، فمن حق كل مجتهد: أن يكون له فيها رأي، وأن يعارض رأي غيره، دون أن يطعن فيه أو يتهمه بما لا يليق. كما أن من حق المقلّد أن يتبع أي إمام معتبر من أئمة الاجتهاد، ويأخذ بقوله، ما دام من أهل التقليد.

٣ـ قلة العناية بالأمور المتّفق عليها، في دين الله، مما أساء المسلمون فهمه، أو أساءوا تطبيقه، أو انحرفوا عن العمل به، لأنهم لما أفرغوا جهدهم ووقتهم في الجري وراء المتشابهات: لم يجدوا جهدا ولا وقتا، لتثبيت المحكمات!

٤ـ الرغبة في الجدل والمراء والخصومة مع الآخرين، وهو ما يوغر الصدور، ويأكل الأوقات، ويضيع الجهود، ويمزّق الصفوف، وفي الحديث: « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل »[١].

« إن أبغض الرجال إلى الله: الألدّ الخصِم »[٢].

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وقال حسن صحيح عن أبي أمامة وقد تقدم.

(٢) رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن عائشة.

ومن لطائف الأدب النبوي: الترغيب في ترك المراء، وإن كان الإنسان على حق، لما وراء المراء: من إثارة الأنفس وزرع الضغائن، فقال: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محقا»[1].

٥- الإعجاب بالنفس، وهو أحد المهلكات، التي تضخم للمرء مزايا نفسه، وتعميه عن عيوبه، على حين تجسم له مساوئ غيره، فهو يرى القذى في عين أخيه، ولا يرى الخشبة في عينه، يقول الحديث الشريف «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء برأيه»[2].

٦- سوء الظن بالآخرين: وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ سورة الحجرات: ١٢ . وإن من أعظم خصال الخير: حسن الظن بالله، وحسن الظن بالناس، ومن أعظم خصال الشر: سوء الظن بالله، وسوء الظن بالناس.

المولعون بالبحث عن نقاط التمايز:

هناك أناس: مولعون بالبحث عن مواضع التمايز أو التباين، بينهم وبين غيرهم، ويركزون كل التركيز على هذه المواضع. ولا يبحثون عن مواضع الالتقاء بينهم وبين الآخرين، فالأولى دائما عندهم: في مكان الحضور، وبؤرة الشعور، تعيها القلوب، وتتحدث عنها الألسن، وتملأ بذكرها المجالس والحلقات، أما الأخرى: فهي منسية، أو غائبة، أو مكبوتة.

وربما كان دافعهم أو عذرهم: أنهم يريدون أن (يتميزوا) عن غيرهم، ولا يذوبوا في الآخرين ممن يخالفونهم في اتجاههم ومنهجهم.

ولا ريب: أن (التميز) مطلوب لكل صاحب فكرة، من فرد أو جماعة، ولا يطلب من صاحب الفكرة: أن يتنازل عن فكرته وينماع في غيره، والتميز هنا ثمرة الإيمان بسمو الفكرة وكمالها. .

---

(١) رواه أبو داود عن أبي أمامة، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير.
(٢) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر، وحسنه في صحيح الجامع الصغير.

أمران مهمان هنا:

ولكن هنا أمران مهمان، يجب أن يذكرا ويبرزا:

الأول: أن التميز إنما يطلب ويلزم ويتأكد: حين تكون هناك اختلافات جذرية في الأهداف، أو في المناهج: كالاختلاف في العقائد والأصول، ونحوها.

وهذا ما جعل النبيّ ﷺ: يغضب على عمر، حين رآه يقرأ صحائف من التوراة، التي حكم القرآن بتحريفها، ويقول له كلمته الشهيرة: «أمتهوكون فيها (أي متحيرون أو مترددون) يا ابن الخطاب؟! والله! لو كان موسى حيًّا ما حلّ له إلا أن يتبعني!»[1].

الثاني: أنه مع التميّز الواجب: عند الاختلاف في الأصول والمبادئ: يجب أن لا ننسى نقاط الاتفاق، ومواضع الالتقاء، التي يمكن الابتداء منها بإقامة جسور للتعارف، أو الحوار، أو التعايش.

ويحضرني في هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ العنكبوت: ٤٦.

فرغم تميز المسلمين عن أهل الكتاب، يذكر هنا ما يجمعهم بالمسلمين من الإيمان بالألوهية عند الفريقين، وإيمان المسلمين بما أنزل الله على أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، بل إن تعبير (أهل الكتاب) نفسه: يدل على القاسم المشترك بينهم وبين المسلمين من العنوان ذاته، وهو أنهم كالمسلمين أهل كتاب سماوي، وإن حرّفوا فيه وبدّلوا. ولهذا يناديهم بهذا العنوان، الذي يؤنسهم ويقرّبهم من المسلمين، وهو: (يا أهل الكتاب).

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٧٦) عن جابر بن عبد الله.

٥ ـ من التعسير والتنفير

إلى التيسير والتبشير

أوجز ما توصف به رسالة الإسلام: أنها رحمة الله إلى خلقه.

هذا ما وصفها به القرآن الكريم، حيث خاطب الله رسوله فقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧. وهذا ما وصف به الرسول نفسه حين قال: «إنما أنا رحمة مهداة»[١].

وهذه الرحمة تتجلى في أحكام شريعتها كلها. فهي ـ كما قال ابن القيم رحمه الله ـ رحمة كلها، وحكمة كلها، وأي حكم تراه فيها خرج من الرحمة إلى القسوة، أو من الحكمة إلى العبث، فليس من الشريعة في شيء، وإن أدخله من أدخله فيها بسوء التأويل.

وأجلى ما تتمثل فيه هذه الرحمة هو (التيسير) الذي بنيت عليه الشريعة وأحكامها. وهو أمر جلي لكل من قرأ القرآن والسنة، فإن الله تعالى لم يكلف عباده شططا، ولا أرهقهم من أمرهم عسرا..

يقول القرآن في ختام آية الطهارة: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة: ٦.

وفي آية صيام رمضان يقول: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥.

وفي ختام الحديث عن المحرمات في الزواج، يقول: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ النساء: ٢٨.

وفي خواتيم سورة الحج ـ بعد أن أمر الله المؤمنين: بالعبادة وفعل الخير ـ يقول: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج: ٧٨.

---

(١) رواه الحاكم وصححه (١/ ٩١) والدارمي (٣٩٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤١) عن أبي هريرة. (صحيح الجامع الصغير: ٢٣٤٥).

ورغم وضوح هذا الجانب في شريعة الإسلام نجد بعض المتدينين يركبون متن التشديد والتعسير، سواء في فهمهم للإسلام، أو في عملهم به، أو في دعوتهم إليه، ناسين أو متناسين جانب اليسر والسماحة فيه.

الرسول يأمر بالتيسير لا التعسير:

وقد بعث النبي ﷺ صاحبيه: معاذ بن جبل الأنصاري، وأبا موسى الأشعري إلى اليمن أميرين ومعلمين وداعيين، وأوصاهما بوصية جامعة نافعة، تعتبر من جوامع الكلم النبوي، الذي يجمع المعاني الجمة في ألفاظ قليلة، وذلك في قوله لهما: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا»(١).

وأوصى الأمة كلها بمثل هذه الوصية فيما رواه عنه صاحبه وخادمه أنس، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»(٢).

معنى التيسير المأمور به:

والتيسير مأخوذ من (يسر الأمر) إذا سهل واتسع.

فمعنى (التيسير): اتباع نهج التسهيل والتوسعة والسماحة، والتخفيف، والبعد عن التصعيب والتضييق والإحراج والإعنات. الذي هو مضمون كلمة (التعسير).

و(التعسير): مأخوذ من عسر الأمر إذا صعب وضاق وشق وحرج.

ومعنى التعسير: اتباع نهج التصعيب والتضييق والإعنات والمشقة على عباد الله.

ولقد فطر الله الإنسان على حب اليسر والسعة، وكراهية العسر والحرج.

ومن رحمة الله تعالى بعباده: أنه جعل اليسر محيطا بهم قدرا وشرعا.

فقد جعل الله تعالى مع كل عسر يسرا، كما جعل بعد العسر يسرا، وهذا من فضل الله تعالى ولطفه بخلقه.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٨) ومسلم (١٧٣٣) عن أبي موسى.
(٢) رواه الشيخان عن أنس، كما في اللؤلؤ والمرجان (١١٣١).

فقد قال تعالى في سورة الشرح: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ الشرح: ٥، ٦ فأكد هذا المعنى وكرره: ليؤذن بأن اليسر سيغلب العسر.

كما قال تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ الطلاق: ٧.

وقد جعل الله تعالى اليسر في الأمور من ثمرات التقوى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ الطلاق: ٤.

ولهذا دعا كليم الله موسى ربه، فقال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ طه: ٢٥، ٢٦.

وفي هذا الإطار: وصف القرآن يوم القيامة بأنه يوم (عسير): على أهل الكفر والضلال والفساد كما في قوله تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ الفرقان: ٢٦.

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ المدثر: ٨-١٠.

ولهذا: يحب الإنسان بفطرته اليسر والسهولة في الدنيا والآخرة.

وفي الشرع نجد أحكام الشريعة، قد أسست على اليسر لا على العسر، كما قال تعالى في آية الصيام: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ البقرة: ١٨٥.

وقد يعبر القرآن عن هذا المعنى بنفي الحرج، كما في قوله تعالى في ختام آية الطهارة: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ المائدة: ٦.

وقد يعبر عن هذا المضمون بالتخفيف، كما في قوله تعالى عقب أحكام المحرمات في النكاح: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٢٨. وفي سياق آخر قال: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ الأنفال: ٦٦.

وقد يعبّر عن المعنى نفسه بـ(العفو)، كما في قوله تعالى: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ﴾ البقرة: ١٨٧.

وفي الحديث الصحيح: «إن الله عفا عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم»[1].

وقد يعبّر عن هذا المعنى: بوضع الإصر والأغلال، كما في وصف الرسول الكريم في التوراة والإنجيل بأنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ سورة الأعراف: ١٥٧.

وفي خواتيم سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ الآية ٢٨٦.

وجاء في الصحيح أن الله تعالى قد استجاب هذا الدعاء.

وفي هذا السياق جاء الحديث «إن الله وضع عن أمتي: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[2]، وقد قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ البقرة: ٢٨٦، وقال سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الأحزاب: ٥. وقال: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ النحل: ١٠٦.

وقد يعبر عن هذا المعنى بـ(السماحة)، كما في الحديث النبوي: «بعثت بحنيفية سمحة»[3]. وسئل النبي ﷺ: «أي الأديان أحب إلى الله عز وجل؟ قال: الحنيفية السمحة»[4].

كما يعبر عنه بـ(الرخصة): كما في قوله ﷺ: «إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه»[5].

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة.
(٢) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥) والحاكم وصححه على شرط الشيخين (٢/ ٢١٦) وابن حبان (٧٢١٩) عن ابن عباس.
(٣) رواه أحمد (٦/ ١٦٨) عن عائشة.
(٤) رواه أحمد (١/ ٣٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٠) والطبراني في الكبير (١١/ ١٨١) عن ابن عباس.
(٥) رواه ابن حبان عن ابن عباس (٣٥٤) وصححه محققه، والبزار والطبراني وقال الهيثمي (٣/ ١٦٢): رجالهما ثقات: وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب، انظر: كتابنا (المنتقى: الحديث رقم ٥٥٤).

«إن الله يحب: أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»[1].

وبهذا: يتبين أن معنى التيسير مطلوب في الدين، مرغب فيه، بكل ما يعبر عنه من ألفاظ وعبارات، كلها تدل على التسهيل، ورفع الحرج والعنت عن الأمة، بل هو مأمور به أمرًا مباشرًا من رسول الله ﷺ.

التعسير المضاد للتيسير:

وإذا كان التيسير مطلوبا ومحمودا ومرغّبا فيه، فعكسه ـ وهو (التعسير) ـ غير مطلوب ولا محمود، ولا مرغب فيه، بل هو منهيّ عنه من رسول الله، ﷺ.

والتعسير ـ كما ذكرنا ـ: مأخوذ من العسر، أي من مادة (عسُر) يعسُر بمعنى: صَعُب وضاق وشق وحرج.

ومعنى التعسير: اتباع نهج التصعيب والتضييق والتشديد والإحراج لعباد الله، وكل هذه المعاني منفيّة في القرآن والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج: ٧٨. وكلمة (حرج) هنا: نكرة في سياق النفي، تفيد العموم، فتنفي كل حرج في الدين، فأي مسألة وجدت فيها حرجا وعنتا وضيقا: فهي ليست من الدين في شيء، وإن أدخلها من أدخلها بفهمه وتأويله الخاص، وإن كان هو مغفورا له ما أخطأ فيه، بل مأجورا باجتهاده، إن كان من أهل الاجتهاد.

رأى رسول الله، ﷺ، في أحد أسفاره رجلا تبدو عليه المشقة والتعب والمعاناة، فسأل عنه، فقالوا: صائم، فقال: «ليس من البر الصيام في السفر»[2]. أي في هذا النوع من السفر الذي يشق على صاحبه إلى هذا الحد.

---

(١) رواه أحمد عن ابن عمر، وصححه الشيخ شاكر (٥٨٦٦و ٥٨٧٣) والبزار والطبراني، قال الهيثمي (٣/ ٦٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والبزار والطبراني في الأوسط، وإسناده حسن، وابن حبان في صحيحه (٢٧٤٢).

(٢) رواه أبو داود (٢٤٠٧) وابن ماجه (١٦٦٥) والنسائي (٢٢٥٦) وابن حبان (٣٥٥) عن ابن عمر.

ورأى آخر في حالة من الجَهْد والمعاناة والإعياء، فسأل عنه، فقالوا: إنه نذر أن يذهب إلى الحج ماشيا، فقال: «إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني»[١].

وإذا نظرنا إلى النصوص القرآنية والنبوية، نجدها تعبر عن التعسير المذموم بعبارات شتى:

قد تعبر عنه بـ(الحرج)، كما رأينا في أكثر من آية.

وقد تعبر عنه بالإعنات، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ البقرة: ٢٢٠. و(لو) حرف امتناع لامتناع.

وقد يعبر عنه بـ(التنطع): كما جاء في حديث ابن مسعود: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون.. قالها ثلاثا»[٢].

قال الإمام النووي: المتنطعون هم المتعمقون المبالغون في أقوالهم وأفعالهم.

كما يعبر عنه بـ(الغلو في الدين)، كما جاء في حديث ابن عباس: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم: بالغلو في الدين»[٣].

وربما عبّر عنه بـ(التشديد) كما في حديث «لا تشددوا فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا فشدد الله عليهم»[٤].

وقد يعبر عنه بـ(الرغبة عن السنة المحمدية)، أي عن المنهج النبوي القائم على الوسطية والتوازن والتيسير والتوسعة، كما في حديث أنس: عن الثلاثة الذين أعلن أحدهم أنه سيصوم الدهر فلا يفطر أبدا، والثاني: أنه سيقوم الليل فلا ينام، والثالث: أنه سيعتزل النساء فلا يتزوج، فقال النبي ﷺ: «إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي، فليس مني» متفق عليه.

---

(١) متفق عليه عن أنس.
(٢) رواه مسلم (٦٧٢٥) وأبو داود (٤٦٠٨).
(٣) رواه أحمد (١/ ٣٥٥) وابن حبان (٣٨٧١) والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٨٩).
(٤) رواه أبو يعلى (٣٦٩٤) عن أنس.

مظاهر التيسير:

وللتيسير المطلوب: مظاهر شتى في حياة الفرد والجماعة.

من ذلك التيسير في التعامل بين الناس، كما حكي القرآن عن موسى عليه السلام، أنه قال لصاحبه الذي اتبعه على أن يعلمه مما عُلِّم رشدا، واشترط عليه صاحبه أن لا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا، ونسي موسى فسأله عن خرق السفينة، فقال له صاحبه: ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا** ﴾ الكهف: ٧٢، ٧٣.

فالأصحاب والرفقاء: يجب أن يتياسروا ولا يتعاسروا، حتى إن أخل أحدهم بالشرط مرة، فينبغي أن يسامح، فإن لكل جواد كبوة، ولكل إنسان هفوة.

وكذلك: إذا تبايع الناس وتداينوا، ينبغي أن يتياسروا ولا يتعاسروا، وأن يتسامحوا ولا يضيق بعضهم على بعض، وفي الحديث الصحيح: « رحم الله امرءا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا قضى، سمحا إذا اقتضى »[1].

وقال تعالى في الديون: ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ البقرة: ٢٨٠.

التيسير في أمر الدين:

ولكن أعظم التيسير وأهمه، هو: التيسير في أمر الدين، ونفي الحرج والعنت عنه، حتى لا يصبح آصارا وأغلالا على الناس، وقد بعث الله رسوله محمدا ليضعها عن البشر، وتكون بعثته رحمة مهداة من الله لهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ الأنبياء: ١٠٧. وهذه هي مهمة العلماء والدعاة، وهي التي نركز عليها هنا، والتيسير المنشود في الدين يتضمن معنيين كبيرين:

أولهما: تيسير الفهم للدين وأحكامه.

وثانيهما: تيسير العمل بالدين وشرائعه.

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٠) وابن ماجه (٢٢٠٣) وابن حبان (٤٩٠٣) عن جابر بن عبد الله.

وقد تحدثنا عن هذين الأمرين، في الجزء الأول من كتابنا: (تيسير الفقه للمسلم المعاصر)، ولا بأس أن نقتطف قليلا مما كتبناه هناك، مضيفين إليه بعض الفوائد هنا إن شاء الله.

تيسير الدين للفهم:

فأما تيسير الدين للفهم، فقد لا حظنا أن مصادر الدين - من القرآن والسنة - مصادر ميسرة للفهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ القمر: ١٧. ووصف القرآن بأنه «كتاب مبين». وكذلك كان بيان رسول الله ﷺ للقرآن بيانا سلسا سهلا ليس فيه إلغاز ولا تعقيد، كما يشهد بذلك كل من قرأ حديثه عليه الصلاة والسلام.

وقد كان الرجل الأمي يأتي من البادية، فيقيم يومين أو ثلاثة في المدينة، مع النبي ﷺ، فيتوضأ كما يراه يتوضأ، ويصلي كما يراه يصلي ويسأله بعض الأسئلة في الدين، بلا تكلُّف: فيجيبه في يسر، ثم يعود إلى قومه مُعلِّما لهم ما تعلم، دون تعمق ولا تعقيد.

ولكن المسلمين في العصور المتأخرة خاصة: عقَّدوا المصدرين الميسرين بشروحهم وإضافاتهم، حتى كانت بعض هذه الشروح: حُجُبًا عن فهم كلام الله تعالى وكلام رسوله.

والأولى بنا: أن نرجع إلى السهولة الأولى، ونعيد الدين إلى فطريته وبيانه الذي يخاطب العقل والقلب معا، ويفهمه الخاص والعام جميعا. ومن ذلك:

توخي السهولة والتوسط:

ومن دلائل توخّي السهولة واليسر:

١- أن يكتب بلغة مبسطة، وأسلوب سهل، بعيد عن الإغراب في الألفاظ، والتكلف في العبارات.

٢- تجنب وعورة المصطلحات، التي فيها كثير من الغموض لدى القارئ غير المتخصص، و(ترجمتها) إلى عبارات سلسلة مفهومة للشخص العادي.

٣ـ التوسط بين الإيجاز المُلْغز الذي عرفت به (المتون) في المذاهب المتبوعة، والتي كان المقصود منها تسهيلَ الحفظ، ثم احتاجت المتون إلى شروح، والشروح إلى حواش، والحواشي إلى أحيانا إلى تقريرات. . وبين الإطناب الممل الذي يتوسع في الشرح والتفصيل في غير حاجة إلى ذلك.

مخاطبة العقل المعاصر:

٤ـ مخاطبة العقل المعاصر باللسان الذي يبين له، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ إبراهيم: ٤. واللسان في هذه الآية ـ في فهمي ـ أعمق وأوسع من مجرد مخاطبة العرب بالعربية، والإنجليز بالإنجليزية، بل يشمل ذلك مخاطبة العوام بلسان العوام، والخواص بلسان الخواص، وكذلك مخاطبة الإنسان في الشرق بلسان أهل الشرق، والإنسان في الغرب بلسان أهل الغرب، فلكل لغته وعقليته.

وكذلك الإنسان في القرن الخامس عشر الهجري: غير الإنسان منذ قرنين، أو ثلاثة من الزمان.

فما كتب في العصور السابقة، لا ينبغي أن يؤخذ بحذافيره كما هو، ويخاطب به أهل عصرنا، وقد تغيرت المعلومات، وتغيرت بالتالي الأفكار، وتغيرت المشكلات، وتغير أسلوب الخطاب، والمطلوب: أن نراعي ذلك كله، إذا أردنا أن يفهمنا الناس، ويعقلوا خطابنا لهم.

ومن المطلوب هنا: التخفف من كثرة الزوائد والتشعيبات والتعقيدات التي أضافتها العصور المختلفة، وخصوصا في مجال العبادات حتى غدت كما هائلا من الجزئيات التفصيلية، التي أثقلت العلم الديني بتفريعات لم يعرفها الصحابة ولا سلف الأمة.

ثانيا: تيسير الفقه للعمل والتطبيق:

ذلك هو التيسير في تقديم الفقه، وتقريبه إلى عقل المسلم المعاصر غير المتخصص، أي إلى جمهور المسلمين، وهذا هو الشق الأول من التيسير.

أما الشق الثاني من التيسير: فيتعلق بالتيسير في أحكام الفقه ذاتها، بحيث يسهل

على المسلم المعاصر: تنفيذها والالتزام بها في العبادات والمعاملات، وسائر شئون الحياة فردية واجتماعية.

وليس معنى التيسير: الإتيان بشرع جديد من عند أنفسنا، نسقط به عن الناس ما فرضه الله عليهم، أو نحل لهم ما حرم الله عليهم، أو نبتدع لهم في الدين ما لم يأذن به الله تعالى.

فهذا ليس من التيسير الذي نريده في شيء، بل هو تزييف وتحريف، لا يقبله عالم مسلم يحترم دينه، ويحترم عقله.

المقصود بالتيسير هنا:

إنما نريد بالتيسير هنا، جملة أمور:

١- مراعاة جانب الرخص:

مراعاة جانب اليسر والرخص في الشريعة إلى جوار العزائم، فلكل أهله، ولا ينبغي أن نعامل الناس كلهم بمستوى واحد، ولا يطالب الضعفاء بما يطالب به الأقوياء، ولا حديث العهد بالإسلام أو بالتوبة، مثل العريق في الإسلام والالتزام به، فقد قبل الرسول ﷺ من بعض الأعراب: الاكتفاء بالفرائض الأساسية وحدها، مع حلفه أنه لا يزيد عليها ولا ينقص، ومع هذا قال: «أفلح إن صدق» أو «دخل الجنة إن صدق»[١]، وقال في بعض الأحوال: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة: فلينظر إلى هذا»[٢].

وقال ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته»[٣]. وفي رواية: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[٤].

---

(١) متفق عليه عن طلحة: رواه البخاري (١٣٩٦و ٥٩٨٢) ومسلم(١٣).
(٢) متفق عليه عن أبي هريرة: البخاري (١٣٧٩) ومسلم (١٣).
(٣) رواه أحمد عن ابن عمر، وصححه الشيخ شاكر (٥٨٦٦و ٥٨٧٣) والبزار والطبراني، قال الهيثمي (٣/ ٦٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، والبزار والطبراني في الأوسط، وإسناده حسن، وابن حبان في صحيحه (٢٧٤٢).
(٤) رواه ابن حبان عن ابن عباس (٣٥٤) وصححه محققه، والبزار والطبراني وقال الهيثمي (٣/ ١٦٢): رجالهما ثقات: وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب، انظر: كتابنا (المنتقى: الحديث رقم ٥٥٤).

وينبغي التذكير هنا بكلمة نقلها الإمام النووي في مقدمات (المجموع) عن الإمام الكبير سفيان بن سعيد الثوري، الذي انعقدت له الإمامة في الفقه، وفي الحديث، وفي الورع، فقد قال ـ رضي الله عنه ـ وما أروع ما قال:

إنما الفقه: الرخصة من الثقة، أما التشديد فيه: فيحسنه كل أحد![1].

ولا بد أن نلحظ قوله: الرخصة من ثقة، وهو من يوثق بفقهه ودينه معا، أما من فقد الأمرين أو أحدهما، فهو يترخص فيما لا يجوز الترخص فيه، فيصادم القواطع والمحكمات من نصوص الشرع وقواعده، وهو ما لا يقبله مسلم حريص على دينه.

٢ـ تقديم الأيسر على الأحوط في زماننا:

وإذا كان التيسير مطلوبا دائما، كما أمرنا رسول الله ﷺ، فهو ألزم ما يطلب في عصرنا هذا؛ نظرا لرقة الدين في أنفس الكثيرين، وغلبة النزعات المادية، وتأثر المسلمين بغيرهم من الأمم، نتيجة لشدة الاتصال بين العالم بعضه وبعض، ولم يعد في استطاعة أحد أن يعيش في عزلة عن غيره، وأجهزة الإعلام تقتحم عليه داره، وتريه ما يجري في أقصى أطراف العالم، وخصوصا اليوم بعد ما عرف باسم: (البث المباشر).

وهذا ما عبر عنه علماؤنا في العصور المتأخرة بـ(تغير الزمان) أو (فساد الزمان) وجعلوه سببا من أسباب تغير الفتوى، كما ذكر العلامة ابن عابدين وغيره.

فقد قال ابن عابدين في رسالته: (نشر العَرف فيما بني من الأحكام على العُرف): «إن كثيرا من الأحكام تختلف باختلاف الزمان: لتغير عرف أهله، أو لحدوث ضرورة، أو لفساد أهل الزمان، بحيث لو بقي الحكم على ما كان عليه أولا: للزم منه المشقة والضرر بالناس، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير، ودفع الضرر والفساد»[2].

والمنهج الذي أراه ـ وهو منهجي الذي وفقني الله للالتزام به من قديم: في الفتوى والتأليف والتدريس ـ هو التيسير في الفروع، والتشديد في الأصول.

---

(١) انظر: المجموع للنووي ج١ ص٤٢.
(٢) انظر: رسائل ابن عابدين ج٢، ص١٢٥.

فإذا كانت هناك وجهتا نظر، أو قولان متكافئان أو متقاربان في قضية، أحدهما أحوط، والآخر أيسر، فينبغي أن نختار للفتوى لجماهير الناس: الأيسر لاالأحوط.

والحجة في هذا: ما قالته عائشة، رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ـ ﷺ ـ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما»[1].

وقوله ﷺ ـ فيمن أطال بالناس الصلاة ـ: «أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس: فليوجز، فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة»[2]. فأشار إلى ضرورة رعاية ظروف الناس، والتخفيف عنهم، وخصوصا الضعفاء منهم. ولهذا قيل في السفر: سيروا بسير أضعفكم، إذ لا يجوز أن يسرع الأقوياء، ويدعوا الضعفاء منقطعين عن الركب، ولا راعي لهم.

والدارس المتعمق: يلاحظ أن فقه الصحابة والسلف كان يتجّه غالبا إلى الأيسر؛ وفقه من بعدهم كان يتجه غالبا إلى الأحوط.

وللبخاري عن جابر: أنه صلى في إزار وثيابه عنده، فقال له قائل: تصلي في إزار واحد؟ فقال: إنما صنعت ذلك ليراني أحمق مثلك! وأينا كان له ثوبان على عهد رسول الله، ﷺ؟ يعني: أنه أراد أن يعلمه الرخصة في الصلاة في هذه الصورة التي يرفضها المشددون.

ولمسلم؛ أن أبا هريرة قيل له: ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني فرّوخ: أنتم هاهنا؟ ولو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء، سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من: حيث يبلغ الوضوء» أراد أبو هريرة الموالي، وكان خطابه لأبي حازم[3].

---

(١) متفق عليه عن عائشة: اللؤلؤ والمرجان (١٥٠٢).

(٢) متفق عليه عن أبي مسعود الأنصاري: المصدر نفسه (٢٦٧).

(٣) وفروخ بفتح الفاء وتشديد الراء بخاء معجمة لا ينصرف، قال صاحب العين: بلغنا أنه كان من ولد إبراهيم صلى الله عليه وسلم من ولد كان بعد إسماعيل وإسحاق كثر نسله، ونما عدده، فولد العجم.

فالصحابة - فيما أثر عنهم من فقه - نجدهم أكثر الناس تيسيرا على الخلق، والتابعون على نهجهم وإن لم يبلغوا درجتهم، والأتباع على نهج التابعين، وإن لم يكونوا مثلهم، لأنهم بدءوا يتجهون إلى التحوط، وكل جيل أخذ يضيف بعض (الأحوطيات) إلى ما قبله.

وإذا كثرت (الأحوطيات) في الفقه المتصل بحياة الناس، فإن (مجموعها التراكمي): سينتهي إلى شيء من الآصار والأغلال التي جاء النبي ﷺ بوضعها عن الأمة، فقد جاء في وصفه في كتب أهل الكتاب: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ الأعراف: ١٥٧، ومن الأدعية التي علمها الله المسلمين وختمت بها سورة البقرة: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾ البقرة: ٢٨٦.

٣- التضييق في الإيجاب والتحريم:

ومن التيسير المطلوب: التضييق والتحرّي البالغ في تكليف الناس بالأحكام وخصوصا في مجال الفرض والتحريم، فلا يجوز: التوسع في ذلك بأدنى دليل، بل لا بد من نص صحيح الثبوت، صريح الدلالة: على فرضية الفرض، وحرمة الحرام، أو قياس واضح العلة على نص، فإنا نقطع: أن الشريعة العادلة لا تفرق بين متماثلين، كما لا تسوي بين مختلفين.

وقد كان السلف يتحرجون من التحريم - ومثله الفرضية - إلا أن يكون معهم دليل لا شبهة فيه، وإلا نزلوا من الفرض إلى الواجب، ومن الحرام إلى المكروه، وهذا هو مذهب الحنفية الصريح، وهو المفهوم من عبارات الأئمة بصفة عامة.

ولهذا كثر في كلامهم مثل قول: يعجبني كذا وكذا، أو أستحب كذا وكذا، ولا يصرح بالوجوب إلا ما علم جزما بوجوبه.

وقولهم في جانب المنهيات: أكره كذا، ولا أحب كذا، ولا يعجبني كذا، ولا يصرحون بالتحريم، إلا ما علم جزما بتحريمه.

ويدل لهذا الاتجاه موقف الصحابة - رضوان الله عليهم - من شرب الخمر، فقد ظل بعضهم يشربها ويقول: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، برغم نزول آية:

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ البقرة: ٢١٩، وآية ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣، حتى نزلت الآية الثالثة وفيها البيان الشافي، الذي ارتقبوه: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة: ٩٠.

ويبدو للمتأمل في القرآن والسنة: أن الإسلام كان حريصا على تقليل التكاليف، وتوسيع (منطقة العفو)، رحمة بالمكلفين غير نسيان.

ففي القرآن الكريم جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ المائدة: ١٠١.

وقد توسع في شرحها والتعليق عليها العلامة رشيد رضا ـ رحمه الله ـ وجعلها أساس كتابه (يسر الإسلام).

٤ـ التيسير فيما تعم به البلوى:

ومن أهم ما ينبغي التيسير فيه: ما تعم به البلوى من أمور العبادات والمعاملات.

أ ـ فإذا كان هناك بعض المذاهب: شدد في شئون الطهارة مثلا، كمذهب الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ فليس هناك موجب لإلزام الناس به، لما قد يترتب عليه من الحرج عند جماهير المسلمين وخصوصا في الريف والقرى.

فلا غرو أن يتجه الفقيه إلى مذهب مالك ومن وافقه: في القول بأن كل ما يؤكل لحمه فبوله وروثه طاهر، وأن الماء لا ينجس إلا بالتغير، وهذا ما رجحه وأفتى به شيخ الإسلام ابن تيمية، وعضده بالأدلة.

وقد قال الإمام الغزالي، في كتاب (الطهارة) من (الإحياء) ـ عن الشافعي ـ: كنت أود أن يكون مذهبه في المياه كمذهب مالك، وساق سبعة أوجه لتأييد مالك، وهو شافعي المذهب، رضي الله عن الجميع.

ومثل ذلك ما قاله الغزالي عن البيع بالمعاطاة، بغير لفظ الإيجاب والقبول، وهو ما يجري عليه عمل المسلمين في كل مكان، وفي سائر العصور، وقول الشافعي فيه شديد، والبلوى به عامة.

فعلى الفقيه: أن يعمل على تصحيح معاملات المسلمين من داخل الفقه ومصادر الشريعة وقواعدها ما وجد إلى ذلك سبيلا.

وهذا ما يلمسه الدارس: لدي كثير من علماء الفقه في المذاهب المختلفة، ولاسيما في الأعصر الأخيرة، فهم يحاولون أن يلتمسوا مخرجا لتصحيح التعامل، إما بتكييفه تكييفا يجعل له مستندا من الشرع، أو بحيلة فقهية، أو باللجوء إلى قول مهجور أو ضعيف في المذهب، أو بإجازة تقليد مذهب آخر.

وكثيرا ما يكون الضيق والحرج: ناشئا من التقيد بمذهب معين، ولو تحرروا منه إلى باحة المذاهب الأخرى المتبوعة وغير المتبوعة، وأقوال الصحابة والسلف، وإلى النصوص والقواعد العامة: لوجدوا في باحتها الفسيحة ما يخرجهم من الضيق إلى السعة، ومن العسر إلى اليسر.

ومن الكلمات التي لها دلالتها: ما أثر عن السابقين - في ترجيح العمل ببعض الأقوال - قولهم: هذا أرفق بالناس.

ب - ومن جوانب التيسير - فيما تعم به البلوى -: الإشارة إلى الرأي المخالف الذي لم يأخذ به الكاتب أو الكتاب، ولو في الحاشية، وإن كان في نظره ضعيفا، فقد يكون قويا في نظرة غيره، ويتعين هذا إذا اختار هو القول الأحوط، أو الأشد، فيلزم الإشارة إلى الرأي الأيسر.

ومن فوائد هذا: التعريف بأن المسألة فيها أكثر من رأي أو وجهة نظر، فالمختلف فيه غير المجمع عليه، وذكر هذا في هذا المقام خاصة من الأمانة العلمية.

ومن ناحية ثانية، فالأمور الاجتهادية القابلة لتعدد الأنظار، واختلاف الاجتهادات، لا يجوز أن يعتبر من أخذ بوجهة منها مرتكبا لإثم ينكر على صاحبه، ولهذا قالوا: لا إنكار في المسائل الاجتهادية.

وأمر ثالث، وهو الإبقاء على الضمير الديني، عند من يعملون على خلاف الرأي الأحوط أو الأشد أو المشهور، وهو ما لاحظه الأستاذ الأكبر، شيخ الأزهر

الأسبق، الشيخ محمد مصطفى المراغي - رحمه الله - حين تبنى أقوال الإمام ابن تيمية وبعض السلف في قضايا الطلاق وغيرها من الأحوال الشخصية، فإن الناس يحلفون بالطلاق كل يوم، وخصوصا الباعة والعامة، ثم يحنثون، ويظنون أن طلاقهم واقع، وأنهم يعيشون مع نسائهم في حرام، وأن ذريتهم منهم أولاد حرام، ومثل هذا الاعتقاد يفسد ضمائرهم، ويجرئهم على الحرام الصرف المقطوع به. فلماذا لا نفتيهم بالمذهب الميسر عليهم، وبذلك نبقي عليهم ضمائرهم واعتقادهم أنهم لم يخرجوا عن دائرة الإسلام؟

ومثل ما يقال فيمن يفتي بتحريم حلق اللحية، تحريما قاطعا، بل يحرم أخذ أي شيء منها، وجماهير المسلمين تفعل ذلك.

وكذلك من يفتي: بتحريم إطالة الثوب إلى أسفل من الكعبين، واعتبار فاعله في النار، وجماهير الأمة الإسلامية واقعة في ذلك، كما هو مشاهد.

فإذا افترضنا أن الفقيه اختار الرأي الأثقل، فالواجب في رأيي أن يشير إلى الرأي الآخر. ولا يحمل الناس على رأي واحد؛ فتكون فتنة، كما قال الإمام مالك - رضي الله عنه - معللا رفضه: حمل الناس على (الموطأ).

ولا يعني التيسير فيما تعم به البلوى: أن نُحل المحرمات المقطوع بها، مثل الربا، أو الخمر، أو المخدرات، ونحوها، مما جاءت به نصوص محكمات، لا يجوز إهمالها أو التلاعب بها، اتباعا لأهواء الناس. فقد قال تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ الجاثية: ١٨، ١٩.

مراعاة قواعد الشرع الميسرة:

ومما يدخل في معنى التيسير: الرجوع إلى القواعد الشرعية، التى أصلها الفقهاء من جميع المذاهب، وكلها تعين على قبول التيسير، والاستغناء عن الإعنات والتعسير.

من هذه القواعد:

أ ـ الضرورات تبيح المحظورات، ويتممها: ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

ب ـ الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة، خاصة كانت أو عامة.

جـ ـ ما حرم لذاته: لا يباح إلا للضرورة، وما حرم لسد الذريعة يباح للحاجة.

د ـ المشقة تجلب التيسير

هـ ـ إذا ضاق الأمر اتسع

و ـ يرتكب أخف الضررين وأهون الشرين.

ز ـ يترك أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما.

ح ـ لا ضرر ولا ضرار.

ط ـ حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة.

ي ـ الفتوى تتغير: بتغير الزمان، والمكان، والعرف، والحال.

ك ـ التكليف بحسب الوسع.

ل ـ الحرج مرفوع.

وكل قاعدة من هذه القواعد، تتفرع عنها فروع وأحكام، وكل هذه القواعد مدلل عليها من الكتاب والسنة، وهدي الصحابة رضي الله عنهم.

تيسير التعليم والدعوة:

وإذا كان التيسير مطلوبا في فقه الأحكام، فهو مطلوب كذلك في الدعوة والتعليم، فإن رسولنا ﷺ قال: «إن الله تعالى لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا»[١].

---

(١) رواه مسلم عن عائشة.

وروى ابن عباس عنه قوله: «علموا ويسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[1]. قال المناوي: أي علموا الناس ما يلزمهم من أمر دينهم، وحالتكم في التعليم: اليسر لا العسر، بأن يسلكوا بهم سبيل الرفق في التعليم، ولا تشددوا عليهم، لئلا ينفروا من قبول الدين واتباع الهدى[2].

وهذا هو نهج الربانيين من العلماء: في تعليمهم لمريديهم وتلاميذهم.

ويقال: الربَّاني: الذي يربّي الناس بصغار العلم قبل كباره.

قالوا: والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دق منها.

وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل نتائجه[3].

والمقصود هو: التدرج في التعليم، ومراعاة ظروف المتعلمين، وقدراتهم، والترقي بهم من درجة إلى أخرى.

قال الحافظ - في شرح حديث «يسروا ولا تعسروا»[4] -: المراد تأليف من قرب إسلامه، وترك التشديد عليه في الابتداء. وكذلك الزجر عن المعاصي، ينبغي أن يكون بالتدرج، لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلا: حبب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالبا: الازدياد، بخلاف ضده[5].

وليس التيسير مقصورا على قريب العهد بالإسلام، كما قد يفهم من كلام الحافظ، بل هو أمر عام ودائم، ولكنه ألزم ما يكون: لحديث العهد بالإسلام، أو بالتوبة، أو بكل من يحتاج إلى التخفيف: من مريض، أو كبير سن، أو ذي حاجة.

---

(١) نسبه في الجامع الصغير، إلى أحمد والبخاري في الأدب المفرد، ورمز السيوطي لصحته وصححه شاكر في تخريج المسند والألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٠٢٧).

(١) فيض القدير / حديث رقم (٥٤٨٠).

(٣) الفتح: ١/ ١٦٣.

(٤) رواه الشيخان عن أنس، كما في اللؤلؤ والمرجان (١١٣١).

(٥) الفتح: ١/ ١٦٣.

ومن مقتضيات تيسير العلم: أن يجرعوا من المعارف الدينية ما يطيقونه، وتسيغه معدتهم العقلية، ولا يُحَدَّثوا بما تنكره عقولهم، فيكون فتنة عليهم أو على بعضهم.

وفي هذا يقول علي - رضي الله عنه -: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون: أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟![1].

ويقول ابن مسعود - رضي الله عنه -: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة[2].

وقوله عليه السلام «يسروا» أمر، والأمر لا يقتضي ضرورة التكرار، فمن يسر مرة أو مرتين يقال: إنه يسر وانتشل الأمر، وإن عسر بعد ذلك في جميع الحالات، لهذا أردف الأمر بالتيسير بالنهي عن التعسير، فقال: «ولا تعسروا» لنفي العسر في جميع الأحوال ومن جميع الوجوه، وكذلك قوله: «ولا تنفروا» بعد قوله «بشروا».

قال العلامة العيني في شرح البخاري: لا يقال: كان ينبغي أن يقتصر قوله: «ولا تعسروا ولا تنفروا» أي دون قوله «يسروا وبشروا» لأنه لا يلزم من عدم التعسير ثبوت التيسير، ولا من عدم التنفير ثبوت التبشير، فجمع بين هذه الألفاظ لثبوت هذه المعاني، أي بوضوح وتفصيل، لأن المقام يقتضي ذلك.

من مظاهر التعسير والتشديد:

وإذا كان التيسير مطلوبا في كل شئون الحياة، وفي الدين خاصة، لا سيما في فقه أحكام الشريعة، وفي تعليم الدين والدعوة إليه، فإن التعسير المضاد للتيسير مرفوض قطعا في دين الله، لأنه داخل في العسر والحرج والعنت والآصار والأغلال، التي نفاها الله عن هذا الدين.

وإذا كنا عرفنا بعض مظاهر التيسير، الذي يحبه الله ورسوله: فكل ما يناقضها، فهو من التعسير الذي يبغضه الله ورسوله.

---

(١) رواه البخاري في (كتاب العلم) موقوفا على علي رضي الله عنه، (انظر الفتح: ١/ ٢٢٥).
(٢) رواه مسلم في مقدمة الصحيح موقوفا على ابن مسعود - المصدر السابق.

ونذكر لذلك بعض الأمثلة، فبالمثال يتضح المقال.

١- إغفال الرخص مع مسيس الحاجة إليها:

ونعني بالرخص: ما أشرنا إليه من التخفيفات، التي شرعها الله في الفرائض وغيرها لأسباب معينة على المكلفين، كالقصر والجمع في الصلاة للمسافر، بل قد صح عن رسول الله ﷺ الجمع بين الصلاتين (الظهر والعصر، والمغرب والعشاء) في غير السفر، رفعا للحرج عن الأمة، وذاك ما رواه مسلم عن ابن عباس في الصحيح.

ومثل ذلك الرخصة لمن كان مريضا أو على سفر أن يفطر في رمضان، ويقضي عدة من أيام أخر. وهو ما نص عليه القرآن وصحت به الأحاديث.

وقد كانت امرأة أيوب عليه السلام ضعيفة عن احتمال الضربات المائة التي حلف أن يضربها إياها، وكانت كريمة على ربها، فخفف عنها برحمته الواجب باليمين بأن أفتاه بجمع الضربات بالضغث، كما قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ ص: ٤٤.

ألا ترى أن السنة قد جاءت فيمن نذر الصدقة بجميع ماله أنه يجزئه الثلث، فأقام الثلث في النذر مقام الجميع رحمة بالناذر وتخفيفا عنه، كما أقيم مقامه في الوصية رحمة بالوارث ونظرا له، وجاءت السنة فيمن نذرت الحج ماشية أن تركب وتهدي، إقامة لترك بعض الواجب بالنذر مقام ترك الواجب بالشرع في المناسك عند العجز عنه كطواف الوداع عن الحائض.

وأفتى ابن عباس وغيره من نذر ذبح ابنه بشاة. إقامة لذبح الشاة مقام ذبح الابن كما شرع ذلك للخليل.

وأفتى أيضا من نذر أن يطوف على أربع بأن يطوف أسبوعين (أي طوافين كل منهما سبع مرات) إقامة لأحد الأسبوعين مقام طواف اليدين.

وأفتى أيضا - هو وغيره من الصحابة رضي الله عنهم - المريض الميئوس منه، والشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم بأن يفطرا ويطعما عن كل يوم مسكينا، إقامة للإطعام مقام الصيام.

وأفتى أيضا ـ هو وغيره من الصحابة ـ الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أن تفطرا وتطعما كل يوم مسكينا، إقامة للإطعام مقام الصيام، وهذا كثير جدا، وغير مستنكر في واجبات الشريعة أن يخفف الله تعالى الشيء منها عند المشقة بفعل ما يشبهه من بعض الوجوه كما في الأبدال وغيرها.

لكن مثل قصة أيوب قصة لا يحتاج إليها في شرعنا؛ لأن الرجل لو حلف ليضربن أمته أو امرأته مائة ضربة، أمكنه أن يكفر عن يمينه من غير احتياج إلى حيلة تخفيف الضرب بجمعه، ولو نذر ذلك، فهو نذر معصية، فلا شيء عليه عند طائفة، وعند طائفة عليه كفارة يمين.

٢ـ التوسع في مفهوم البدعة:

ومن مظاهر التعسير والتشديد ـ التي يجب أن تقاومها الصحوة الإسلامية ـ: توسع قوم في مفهوم «البدعة» توسعا منكرا، حتى كادوا يجعلون كل جديد بدعة.

وذهب بعضهم إلى باكستان: فوجد المسلمين هناك يخطبون الجمعة بالعربية، وهي خطبة قصيرة في العادة ولكنهم يعقدون قبلها درسا باللغة المحلية، يقومون فيه بشرح ما لا بد منه من أحكام الدين وتوجيهاته، وهنا انبرى هذا «الداعية» ليقول: إن هذا الدرس بدعة، لأنه محدث لم يفعله النبي ﷺ ولا أصحابه، وكل محدث بدعة وكل بدعة ضلالة!

وغفَل هذا المدّعي عن أمر مهم، وهو أن النبي ﷺ: لم يفعل ذلك لأصحابه، لأنه لم تكن بهم حاجة إليه، فقد كانوا عربا يخطبون عربا يتكلمون بلسانهم، ويعقلونه عنهم.

وأما إذا كان المخاطب أعجميا، فإما أن تعجّم الخطبة حتى تفهم، وهو ما رآه بعض الفقهاء، وكون الخطبة بالعجمية: أمر لم يفعله النبي ﷺ ولا أصحابه. وإما أن تبقى الخطبة عربية محافظة على الشكل، على أن يستعاض عن المضمون بدرس قبل الصلاة، أو بعدها: يعنى بتعليم الناس شيئا عن دينهم. وهذا ما رأيت إخواننا العلماء في الهند وباكستان وتركيا وغيرها يفعلونه.

ومن غرائب ما سمعته من بعض الشباب المتدينين: أنهم خرجوا في رحلة مدرسية أو جامعية مع بعض أساتذتهم، فلما ركبوا الحافلة وبعد أن دعوا بأدعية السفر المأثورة، قاموا بإنشاد بعض الأناشيد الإسلامية التي تحفز الهمم وتثير الحماس، وتبرز معاني إسلامية أصيلة، فقام بعض هؤلاء الأساتذة وأنكر عليهم زاعما أن هذا الإنشاد بدعة!

ولما ذكر لي ذلك قلت للشباب: إن الصحابة كانوا ينشدون الرجز والشعر في الغزوات وغيرها، كما صنعوا عند بناء المسجد النبوي، وعند حفر الخندق، وعند ملاقاة الأعداء.

ومما أثر عنهم أنهم كانوا ينشدونه:

اللهم! لو لا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الذين قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ومنذ بدء النهضة الإسلامية الحديثة، وهناك أناشيد قوية، ينشدها الشباب المسلم، ولم ينكرها عليهم أحد من العلماء.

وكان منها نشيد الرافعي الشهير:

ربنا إياك ندعو ربنا ... آتنا النصر الذي وعدتنا

إننا نبغي رضاك، إننا ... ما ارتضينا غير ما ترضى لنا

ومنها نشيدي المعروف (مسلمون) ومطلعه:

مسلمونَ.. مسلمونَ.. مسلمونْ ... حيث كان الحق والعدل نكونْ

نرفض الموت ونأبى أن نهونْ ... في سبيل الله ما أحلى المنون!

٣ـ التوسع في التحريم والإيجاب:

ومن الظواهر الخطيرة، التي يجب على الصحوة الإسلامية أن تقاومها: الجرأة على الفتوى، لمن ليس لها أهلا.

وأهل الفتوى: هم المجتهدون الذين حصلوا من: مؤهلات العلم، وشروط المعرفة بالدين، واللغة، والفقه والأصول، والحياة والناس: ما يؤهلهم للحكم بأن هذا حلال وهذا حرام، وهذا فرض وهذا مستحب. وقد كان كثير من الصحابة والتابعين يتهيبون الفتوى، ويفرون منها، ويحيل بعضهم على بعض، حتى لا يحمل تبعتها، ولكن كثيرا من الشباب - الذين نرى أكثرهم دخيلا على العلم الشرعي - بمجرد أن قرأ عدة كتب: حسب أنه أصبح (شيخ الإسلام) في زمانه، وغدا يُخطِّئ كبار العلماء، بل كبار الأئمة، ويقول عن أبي حنيفة ومالك، بل عن عمر وابن عباس: هم رجال ونحن رجال!

لقد رأينا من علمائنا السابقين: من أنكر على بعض علماء زمانه، وهم قطعا خير من هؤلاء بمراحل ومراحل، يقول: إن أحدهم ليفتي في المسألة لو عرضت على عمر: لجمع لها أهل بدر!

ومن جريء ما سمعته - من فتاوى هؤلاء المتكلمين في دين الله على غير بصيرة - ما ذكر لي بعض الشباب في تلمسان، عند حضوري «ملتقى الفكر الإسلامي» السادس عشر في الجزائر: أن أحد هؤلاء أفتى بأن من قال لامرأته: «الله يلعنك» حرمت عليه، ويفرق بينه وبينها! وعجبت لهذا الحكم الغريب الجريء الذي لم يقل به أحد من علماء المسلمين: طوال أربعة عشر قرنا، وقلت لهم: من أين جاء صاحب هذا القول بقوله؟! قالوا: اجتهاد منه لم يقلد فيه أحدا، إنما أخذه من حديث الرسول الكريم في المرأة التي لعنت ناقتها، فقال ﷺ: دعوها فإنها ملعونة!

ومعنى ذلك: أن هذا الحكم الجديد خفي على فقهاء الأمة بكل مذاهبها ومدارسها، طيلة القرون الماضية، ثم جاء هذا المجتهد المطلق المستقل! ليكتشف من أحكام الشرع ما اجتمعت الأمة كلها على الجهل به!

والغريب: أن هؤلاء الجرآء ينكرون عادة القياس وتعليل الأحكام، ولكن مجتهدهم هنا يقيس في غير موضع القياس، ويجعل المرأة كالناقة، ويستدل بحديث جاء في واقعة حال، أريد به الزجر والتأديب، ولم يأت بلفظ عام، حتى يؤخذ منه حكم عام، ولا غرو أن أحدا لم يقل بأن من لعن دابته أو شيئا مملوكا له يحرم عليه الانتفاع به. فالأصل الذي قاس عليه صاحبنا غير ثابت، فهو يبني على غير أساس، ويقيس بغير مقياس.

ومقتضى قياس صاحبنا هذا المفتي العجيب: أن تطلق المرأة منه، ولا تتزوج بعده أبدا. لأن الرسول ﷺ منع من ركوب الدابة، لأنها ناقة ملعونة، فهل يلتزم هذا المفتي الجريء بذلك؟

التشديد في غير محله يضيع مصالح إسلامية كثيرة:

ولقد تبين لي من تجاربي: أن التشديد في غير محله يجلب على الإسلام مفاسد كبيرة، كما يضيع عليه وعلى أمته مصالح كثيرة. وأضرب لذلك بعض الأمثلة:

نزلت في أحد الفنادق في إندونيسيا، فوجدت في غرفتي الإنجيل، أو الكتاب المقدس، باللغة الإنجليزية. وسألت الأخ المرافق معي: لماذا لا يوجد في مثل هذه الفنادق: ترجمة لمعاني القرآن في بلد مسلم كهذا، بدل هذا الإنجيل، أو معه على أضعف الإيمان؟

وما أشد دهشتي حين سمعت الجواب، وهو قوله: إن العلماء في بلدنا حرموا ذلك، لما فيه من تمكين الكفار من مس المصحف، ولا يمسه إلا المطهرون!

وأكد لي ذلك: ما سمعته من وزير الشئون الدينية في أول زيارة زرتها لإندونيسيا، حين حدثني: أن قبيلة من القبائل الوثنية الكبيرة في إحدى جزر إندونيسيا: رغبت في الدخول في الإسلام، فذهب بعض زعمائها إلى أحد كبار الشيوخ من علماء المسلمين، وعرض عليه الأمر، وماذا يطلب منهم ليدخلوا في الإسلام، ويصبحوا من أهله. فما كان من هذا العالم (الكبير): إلا أن طلب منه طلبا عجيبا، اعتبره وكأنه شرط للدخول في الإسلام، ألا وهو ختان الذكور!

فما كان من هؤلاء الزعماء، إلا أن أعرضوا - مع قبيلتهم - عن الدخول في الإسلام، خوفا من هذه المذبحة الجماعية!

وبهذا: ضيّع بسوء فقهه دخول هذه الجماعة الكبيرة في دين الله، واهتداءها إلى الصراط المستقيم.

ولو كان عنده شيء من الفقه لقال لهم: إن الإسلام ليس لديه أي مراسم للدخول فيه، ويكفي الإنسان أن يشهد بلسانه وقلبه: أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ليصبح مسلما، وينضم إلى القافلة الإسلامية، ويغدو أخا للأمة الإسلامية كلها. ولا يشدد في أمر هو من سنن الفطرة في الإسلام، وليس من الفرائض ولا الأركان، ولا سيما لمن دخل في الإسلام كبيرا. وما سمعنا أن المسلمين في عصور المد الإسلامي، اشترطوا على كل من يدخل في الإسلام أن يختتن أولا.

التشديد على الناس ولو بتغيير أحكام الشرع:

ولو اتبعنا أهواء المتشددين في الدين: لغيرنا أحكام الشرع، لتوافق هواهم في التشدد والتعسير.

سألني أحد المشاهدين في قطر يوما، عن حكم من أتى امرأته من دبرها. فقلت: إن أتاها من دبرها في قبلها، فلا جناح عليه، لأنه لم يتعد موضع الحرث، وقد قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ البقرة: ٢٢٣.

وإن أتاها من دبرها في دبرها: فقد ارتكب حراما، لأنه تعدى موضع الحرث - الذي أشارت إليه الآية الكريمة - إلى موضع الأذى والقذر، الذي يشبه عمل قوم لوط، في مجافاته للفطرة، وجوره على حق المرأة في الاستمتاع والإشباع، وفي الحديث: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»[1]. ولكن المرأة لا تطلق بهذا الأمر، كما هو شائع عند بعض الناس.

وقد اتصل بي بعض الناس، وقال: كان الأولى أن تترك الناس على اعتقادهم: بأن المرأة تطلق من زوجها إذا ارتكب معها هذا المنكر، حتى يكون ذلك زاجرا لهم عن اقتراف هذه المعصية.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩٢) وأبو داود (٢١٦٢) عن أبي هريرة.

قلت: يا سبحان الله! أتريدني أن أبدل شرع الله لتخويف الناس؟! إن الإسلام لا يقبل اتباع الباطل للوصول إلى الحق. وإذا لم ينزجر الناس بأحكام الشرع فلا زجرهم الله. ومثل هذه النزعة هي التي فتحت للحكام باب التعدي لحدود الله. والجواب الصحيح هنا: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ البقرة: ١٤٠.

وأنكر عليَّ بعض المشايخ الذين عقبوا على كتابي: (الحلال والحرام في الإسلام) أني أشرت إلى رأي الشيعة في (زواج المتعة)، مع أني رجحت تحريمه، ورددت على الشيعة. ولكنه عاب عليّ مجرد الإشارة إلى ذكر الخلاف، واعتباره أمرا متفقا عليه بين طوائف الأمة، وأن رأي الشيعة شذوذ لا اعتبار له.

ورأيي أن هذا التوجه في الجملة غير صحيح، لأن الأحكام يجب أن تبقى على مراتبها: القطعي يجب أن يظل قطعيا، والظني يجب أن يبقى ظنيا، والإجماعي يجب أن يظل إجماعيا، والخلافيّ كذلك. فهذا يترتب عليه أحكام أخرى: من التأثيم أو التبديع أو حتى التكفير.

والخلاف في الموضوع قديم، وقد قالوا: إن ابن عباس أفتى بجوازه، وإن قال بعضهم: إنه رجع عنه، وظل بعض أصحابه من بعده يفتون به، مثل عطاء وسعيد بن جبير وطاوس.

كما أنكر بعضهم: ذكري لبعض آراء الفقهاء بصيغة التمريض، مثل: قيل كذا، وروي كذا، وإن لم أعتمد هذه الأقوال، أو أرجحها.

ولكن ذكري لها: يدل على أنها ليست مسألة إجماعية، وهذا يدعو إلى التيسير والتخفيف فيها إذا وجد ما يدعو إليه، كما يدعو إلى عدم القسوة على من تورط فيها، فهناك من أقوال الأئمة ما يسعه ويحتمله، ودين الله يسر.

من التنفير إلى التبشير:

ركزنا الحديث في الفقرات السابقة لنقل الصحوة من التعسير إلى التيسير، وبقي الحديث عن الشق الباقي من الحديث، وهو الانتقال من التنفير إلى التبشير، وبذلك نستكمل الهدي النبوي والتوجيه المحمدي «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

«التبشير» مصدر بشَّر يبشِّر، وأصله الإخبار بأمر سارٍّ يظهر أثره على بشرة الإنسان، ثم استعمل فيما يقابل الإنذار، ولهذا كان رسل الله (مبشرين ومنذرين) يبشرون من آمن بالله وأطاع رسله بالجنة، والحياة الطيبة، وينذرون من كفر بالله وعصى رسله بالنار في الآخرة، والدمار في الدنيا.

والمراد بالتبشير هنا: كل دعوة تحبب الله تعالى إلى عباده، وترغبهم في عبادته وطاعته، وتقودهم بحب ورفق إلى اتباع صراطه المستقيم.

فالتبشير في نظري يتعلق بجانب الدعوة، كما أن التيسير يتعلق بجانب الفتوى، وإذا وفق العالم المسلم إلى اتباع منهج التيسير في الفتوى، والتبشير في الدعوة، فقد آوى إلى ركن ركين، وهدي إلى صراط مستقيم.

ومعنى «لا تنفروا» أي لا تتبعوا النهج الذي ينفر الناس من شرع الله، ومن الالتزام بمنهجه القويم، مثل منهج الترهيب الدائم، والتخويف المستمر من الله تبارك وتعالى، بذكر آيات الوعيد والعذاب والبطش من الله، دون آيات الوعد والنعيم والرحمة منه سبحانه.

قال العلامة العيني في شرح الحديث في عمدة القاري: في قوله: «ولا تنفروا» يعني: بذكر التخويف وأنواع الوعيد، فيُتألف من قرب إسلامه بترك التشديد عليه، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ وتاب من المعاصي، يتلطف بجميعهم بأنواع الطاعة قليلا قليلا، كما كانت أمور الإسلام على التدريج، في التكليف شيئا بعد شيء، لأنه متى يسر على الداخل في الطاعة، أو المريد للدخول فيها، سهلت عليه وتزايد فيها غالبا، وإذا عسر عليه أوشك ألا يدخل فيها، وإن دخل أوشك ألا يدوم، أو لا يستحملها[1] اهـ.

---

(١) عمدة القاري في شرح صحيح البخاري للعيني ج٢ / ٤٧، طبع دار الفكر - بيروت.

وبهذا نرى أن التيسير وعدم التعسير، يؤدي إلى التبشير وعدم التنفير، فهما يتداخلان أو يتلازمان.

١ ـ من مظاهر التبشير: تغليب الأمل والتفاؤل:

وللتبشير مظاهر شتى، ودلائل كثيرة، بعضها يتعلق بأمر الحياة وشئون الدنيا، مثل تغليب التفاؤل على التشاؤم، كما كان شأن النبي ﷺ فقد كان يحب الفأل الحسن، ويكره التشاؤم والتطير، حتى جعله ضربا من الشرك، وأوصى من أحسن بشيء من ذلك أن يقول: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك».

كما حذر من اليأس والقنوط، ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ودعا إلى الأمل دائما في نصر الله وفي فرجه، وإن أطبقت الظلمات على الإنسان، فإن الله سيخرج من الظلام فجرا، ومن العسر يسرا، كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ـ٦]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وهنا مجال الدعوة الإسلامية، والتربية الإسلامية في تكوين الشخصية المسلمة السوية المتزنة الراضية المطمئنة، البعيدة عن القلق والاكتئاب والقنوط، لإيمانها بقضاء الله وقدره، وأن ما أخطأ المرء لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء، قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه.

إن عقيدة التوحيد إذا رسخت في قلب صاحبها، جعلته يحيا في واحة خضراء، من الأمن النفسي، والرضا واليقين والسكينة وغيرها من المعاني الربانية، التي لايذوق طعمها الماديون الملحدون والمرتابون، ولايسعد بها إلا المؤمنون الصادقون ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨]، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

إنها سكينة النفس، وهي ينبوع السعادة الحقة ، سعادة الروح التي عبر عنها بعض الصالحين بقوله : إننا نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف!

ومن حسن حظ هؤلاء أن الملوك والسلاطين وجبابرة الأرض لايعرفون قيمة هذه السعادة ، فلم ينازعوهم فيها، وتركوهم يستمتعون بثمارها وظلالها وحدهم، وهم آمنون.

هذا هو الصراط المستقيم الذي جاء به الإسلام في توجيهه الدعوى والتربوي، ولكن المسلمين قد يبتلون ببعض الموجهين الذين يشردون عن سواء الصراط، ويبالغون في جانب الترهيب والتخويف إلى حد ينسي الناس أن الله تعالى أبر بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من الوالدة بولدها، فيسرفون ويغالون في التذكير بالموت وعذاب القبر، وأهوال الآخرة، ولايزالون يكررون هذا على الناس، حتى ينغصوا على الناس حياتهم، وينشئون حالات من المرض النفسي لدى الكثيرين والكثيرات، والواجب هو التوازن في هذا ، على طريقة القرآن في وصف المؤمن الذي : ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر : ٩] ، وعلى ما قاله الصحابة : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا.

٢ ـ تغليب جانب الرحمة والعفو:

ومن مظاهر التبشير في الدعوة : تغليب جانب الرحمة والمغفرة والعفو الإلهي على جانب البطش والعقوبة والانتقام، وخصوصا بالنسبة للذين انغمسوا في المعاصي ، وظنوا أن باب العفو قد أغلق دونهم، وأن ما اقترفوا من مآثم تحول بينهم وبين الدخول إلى ساحة الله.

والله تعالى يقول : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر : ٥٣].

فرغم عصيانهم لله وإسرافهم على أنفسهم لم يحرمهم سبحانه من شرف انتمائهم إليه وعبوديتهم له، فقال : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ وفي هذا إيناس لهم وتلطف بهم، وتقريب لهم منه، جل شأنه.

وقال تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠]، فتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين، فقد جعلت الآية الأولى المغفرة والرحمة من أسمائه الحسنى، التي يمتدح بها، ويدعى بها : ﴿أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على حين جعلت الآية الثانية العذاب من أفعاله سبحانه ، وليس من أسمائه ، إذ لم يقل : (وأني أنا المعذب بالعذاب الأليم) وما أعظم الفرق بين الأسماء والأفعال.

وفي الحديث القدسي : «إن رحمتي تغلب غضبي» متفق عليه.

والذي يتأمل في محكمات القرآن وصحيح السنة، يجد أن جانب الفضل من الله تعالى يغلب جانب العدل، كما في قوله تعالى : ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ، فبدأ بالعذاب بمن يشاء، وأطلق الرحمة لتسع ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بهذا العموم، كما قال تعالى على لسان الملائكة : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر : ٧]، فكما أن علمه تعالى يسع كل شيء فهو بكل شيء عليم، يعلم ما كان وما هو كائن، وما سيكون، فرحمته كذلك تسع كل شيء أي كل ما يسعه علمه.

وكان من أسمائه الحسنى في القرآن : الرحمن الرحيم، وهما الاسمان اللذان اشتملت عليهما (البسملة) التي افتتحت بها جميع سور القرآن، ما عدا سورة واحدة، كما أن من أسمائه (أرحم الراحمين) وقد جاءت على لسان يعقوب ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وعلى لسان ابنه يوسف : ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف : ٩٣]، وعلى لسان موسى : ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]، وعلى لسان أيوب: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ومن أسمائه الحسنى (خير الراحمين) وقد أمر رسوله بقوله : ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون : ١١٨].

وكان من دلائل التبشير : أن الله تعالى جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف أو يزيد، والسيئة بواحدة أو يعفو، وجعل لكل مذنب أنهارا يغتسل فيها من

ذنبه: من الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة للذنوب، ومن الاستغفار والتوبة، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وفي الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «أنا عند حسن ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلى بشبر، تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلى ذراعا، تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة» متفق عليه عن أبي هريرة.

وفي الحديث القدسي الآخر قال الله تعالى: «يا ابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي! يا ابن آدم: لو أنك أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة» رواه الترمذي عن أنس.

وبهذا نرى أن دلائل التبشير أكثر، والآيات والأحاديث سعة في عفو الله تعالى وسعة رحمته أغزر وأوفر، وهذا ما جعلنا نؤثر التبشير أبدا على التنفير، ونقود الناس إلى الله بالحب أكثر مما نسوقهم إليه بالخوف.

إغفال الخوارج والمعتزلة لجانب الرحمة:

ومما يؤسف له أن جماعة الخوارج والمعتزلة، ومن سار على دربهم في تراثنا، غفلوا عن هذا الجانب، وهو غلبة الفضل الإلهي على العدل الإلهي، وغلبة صفة الرحمة والمغفرة على فعل العذاب والبطش، فغلبوا (الوعيد) على (الوعد) و(العدل) على (الفضل) و(الرحمة). وقالوا: بتكفير مرتكب الكبيرة، أو بدخوله الأبدي في النار، وبأن الكبيرة الواحدة تحبط جميع الحسنات، وأنكروا الشفاعة في الآخرة للملائكة والأنبياء والصالحين، ولهذا سمي هؤلاء (الوعيدية)!

كما آسف كذلك لكثير من الدعاة في عصرنا الذين يرجحون أبدا أسلوب الترهيب على أسلوب الترغيب، والتخويف على الترجية، ويرحبون بالمبالغات التي تتحدث عن عذاب القبر، وأهوال الآخرة، وعذاب النار، وإن لم يجئ بها القرآن، ولا ثبتت بأحاديث صحاح.

ولقد شكا إلى بعض الآباء أن ابنته أصبحت معتادة أن تصرخ في نومها، وتقوم فزعة في معظم الليالي، وذلك بعد أن سمعت شريطا لأحد الوعاظ يتحدث فيه عن عذاب القبر وما فيه من حيَّات كالأفيال، وعقارب كالبغال، مما أورث هذه البنية الصغيرة هذا الرعب أو الخوف المرضي، الذي يحتاج إلى علاج.

وأذكر أني في دروس رمضان في صلاة التراويح، كان بعض الأخوات يكتبن لي ويلححن علي، أن أخص درسا أتحدث فيه بتفصيل عن عذاب القبر.

ولكني لم أستجب لهذه الرغبة؛ لأني اتخذت لنفسي فهما متوازنا، يجعلني اهتم بالأشياء على قدر اهتمام القرآن بها، فهو معيار لا يخطئ عندي أبدا، ولله الحمد.

التبشير بمستقبل الإسلام:

ومن مظاهر التبشير: أن نركز على المبشرات بانتصار الإسلام، وحسن مستقبله، ولا نركز على أحاديث الفتن وأشراط الساعة، ونحوها، مما يتناوله بعض الخطباء والوعاظ، وأن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، على معنى أنه سيعود ضعيفا ويستمر على ضعفه، وأنه لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه، وأن الإيمان في إدبار، والكفر في إقبال، إلى آخر هذا النمط الذي يوحي باليأس من كل عمل لإصلاح ما فسد، وتقويم ما اعوج، وتغيير الحال إلى ما هو أحسن وأمثل.

وقد بينا فساد هذا الاتجاه وخطأه، وضرورة التركيز على (المبشرات) بانتصار هذا الدين، وهي كثيرة، ذكرنا منها خمسة:

١ ـ **المبشرات من نصوص القرآن،** مثل قوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** [الصف: ٩]، وقوله: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾** [النور: ٥٥].

٢ ـ **المبشرات من السنة**، وهي كثيرة مثل: «ليبلغن هذا الأمر (أي أمر هذا الدين) ما بلغ الليل والنهار، ولا يبقى بيت مدر أو وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عز يعز الله به الإسلام، وذل يذل الله به الكفر»[١].

ومثل حديث «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وأن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها»[٢].

ومثل حديث فتح المدينتين الشهيرتين: قسطنطينية وروميه، وقد فتحت الأولى وبقيت الثانية، ومعنى هذا: عودة الإسلام إلى أوربة مرة أخرى.

ومثل حديث الانتصار على اليهود، حتى يقول الحجر والشجر: يا عبد الله أو يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله»[٣].

٣ـ **المبشرات من التاريخ**، فقد أثبت أن في هذه الأمة قوة ذاتية، تنجلي أوضح ما تكون، حين تحل بها المحن، وتحيط بها الشدائد، فيستخرج مذخور القوة في نفوسها، ويظهر الدين قوة محركة لها، يجمعها إذا تفرقت، ويهديها إذا حارت، ويقويها إذا وهنت، وقد وضح ذلك في حروب الردة منذ فجر الإسلام، وفي حروب الصليبيين الذين زحفوا من الغرب، والتتار الذين زحفوا من الشرق، وفي الحرب ضد الاستعمار الحديث.

٤ ـ **المبشرات من الواقع الماثل**: فالإسلام ـ رغم ضعف أمته ـ ينتشر نوره هنا وهناك، والدعوة الإسلامية يعلو صوتها في كل مكان، وحسبنا الصحوة الإسلامية المعاصرة، وهي صحوة عقول ومشاعر وعزائم، وصحوة سلوك ودعوة وجهاد، صحوة في العالم الإسلامي، وصحوة في خارج العالم الإسلامي، صحوة شملت الرجال والنساء، والمثقفين والأميين، وأثبتت وجودها على الصعيد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي والجهادي، وما زالت تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

---

(١) رواه أحمد عن تميم الداري.
(٢) رواه مسلم عن ثوبان.
(٣) متفق عليه عن ابن عمر وأبي هريرة.

٥ ـ **وخامس المبشرات**: من سنن الله التي لا تتبدل، ومنها سنته في التغيير ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وسننه في النصر: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لروم: ٤٧].

وسنته تعالى في تداول الأيام بين الناس، فالدهر يومان، يوم لك ويوم عليك، ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقد كانت الدولة لنا عدة قرون يوم التزمنا بالإسلام منهاجا لحياتنا، ثم أعرضنا عن ديننا، وساء فهمنا له، وعملنا به، وعملنا له، فتخلفنا وتقدم غيرنا، وتعثرنا ونهض غيرنا، وانتقلت عجلة القيادة إلى الغرب، الذي لم يؤد أمانتها، ولم يقم بحقها، وجار حيث يجب العدل، وعاث في الأرض فساد، وأشاع المادية والإباحية، وروج الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فكان لا بد أن تسحب منه عجلة القيادة لترثها أمة أخرى، وفق سنن الله ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] (١).

٣ ـ الدين يسع الناس جميعا:

ومن التبشير المطلوب: أن تتسع صدورنا لكل الناس، وإن لم يكونوا على المستوى الذي ننشده.

يجب أن نعترف بأن الناس متفاوتون في طاقاتهم وظروفهم الشخصية والاجتماعية من ناحية، وفي مراتبهم ومنازلهم من الدين من ناحية أخرى.

فقد يفتَى بعض الناس بالرخص، ويفتَى غيرهم بالعزائم.

وقد يُقبل من بعض الناس القليل من العمل، ولا يقبل من غيرهم إلا ما يقترب من الكمال.

وقد يتساهل مع بعضهم في التقصير إذا قصر، وآخر لاينبغي التساهل معه.

فالصغيرة من الكبير تكبر، والهفوة منه تعظم، ولهذا قيل: زلة العالم يضرب بها الطبل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل.

---

(١) انظر: رسالتنا (المبشرات بانتصار الإسلام) من رسائل ترشيد الصحو الإسلامية ـ نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، والمكتب الإسلامي ـ بيروت.

ومن الخطأ التعامل مع الناس بصورة واحدة جامدة، واعتبارهم جميعا في درجة واحدة.

ومن هنا رأينا النبي ﷺ يقبل ممن دخل في الإسلام حديثا: ألا يزيد على الفرائض شيئا يتطوع به، وقد حلف على ذلك قائلا أمام الرسول الكريم: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، فقال عليه الصلاة والسلام: أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق.

ومثل هذا لا يقبل من أبي بكر وعمر والسابقين الأولين.

ورأيناه - ﷺ - يرفق بالأعرابي الذي بال في المسجد، ويأمر الصحابة أن يراعوا ظروفه، ويقدروا موقفه، وأن يعالجوا أثر هذا التصرف البدوي الساذج بصب ذنوب من ماء عليه، قائلا: «فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين» رواه البخاري.

وحسبنا أن القرآن جعل (الظالم لنفسه) صنفا من أصناف أمة القرآن التي اصطفاها الله من عباده، وأورثها كتابه الخالد وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [سورة فاطر: ٣٢].

الرفق بالمخطئ والمذنب من التبشير:

ومن مظاهر التبشير: الرفق بالإنسان إذا وقع منه الخطأ، فمن شأن الإنسان غير المعصوم أن يخطئ وأن ينسى، ولهذا علمنا الله تعالى أن نقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وفي الحديث: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1]، وقد يقع من الإنسان الخطأ في القول، كما يقع منه الخطأ في الفعل.

ومن الواجب علينا أن نصحح للمخطئ خطأه، إذا كان مقطوعا بخطئه، ولكن هذا التصحيح يجب أن يكون بالرفق لا بالعنف، وباللطف لا بالغلظة، وقد قال

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أنس، وحسنه صحيح الجامع الصغير (٤٥١٥).

تعالى لرسوله بعد ما وقع من أصحابه ما وقع في غزوة أحد : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

والرفق بالمخطئ من القيم التي يوصي بها أساتذة التربية المعلمين أن يرفقوا بمتعلميهم إذا أخطئوا ، ولا يقابلوهم بالعنف الذي يحطم شخصيتهم .

وهذا ما كان عليه النبي ﷺ ، فحين أخطأ بعض الصحابة ، فدخل في الصلاة راكعا من باب المسجد ، وظل يمشي راكعا حتى انتهى إلى الصف ، وبلغ النبي ذلك ، قال له : «زادك الله حرصا ولا تعد» (١) ومعنى (لاتعد) : أنه أخطأ في تصرفه ، ومعنى (زادك الله حرصا) تقدير للدافع الذي دفعه إلى هذا العمل ، وهو الحرص على ألا تفوته ركعة من الصلاة في الجماعة .

وكما يقع من الإنسان الخطأ يقع منه الخطيئة والمعصية ، وفي الحديث : «كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون» (٢) .

وفي الحديث الآخر : «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم» (٣) .

ذلك أن من أسمائه تعالى الغفار والعفو والتواب ، فلمن يغفر؟ وعمن يعفو؟ وعلى من يتوب؟ إذا لم يكن هناك مذنبون يطلبون التوبة والعفو والمغفرة ؟

وقد ذكر النبي ﷺ لأصحابه قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا ، ثم أراد أن يتوب ، وقال : دلوني على أعبد أهل الأرض ، فسأله عن توبته ، فسد في وجهه باب الرحمة ، وقال : لا توبة لك ، فقال : إذن أكمل بك المائة ، ولكنه لم ييأس من التوبة ، فدل على رجل أعلم من الأول ، وأخبره أن باب التوبة مفتوح ، على أن يرحل من قريته إلى قرية صالحة أخرى . . إلى آخر القصة التي رواها البخاري ، وهي تدل على أن قاتل المائة إذا تاب تاب الله عليه .

---

(١) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي عن أبي بكرة . صحيح الجامع الصغير (٣٥٦٥) .
(٢) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة ، المصدر السابق (٧٠٧٤) .
(٣) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة . نفسه (٧٠٧٤) .

٥ ـ التدرج في الدعوة والتعليم :

ومن مظاهر التبشير المطلوبة من الدعاة : التدرج بالناس في الدعوة والتعليم ، فلا يطلبون من الإنسان الحديث العهد بالإسلام ما يطلبونه من المسلم الذي ولد في الإسلام ، ونشأ عليه ، وتربى في أحضانه ، وورث ثقافته ، وتقاليده من أسرته ومجتمعه .

ومن ثم يكون من الخطأ : أن يطالب هذا بأداء الفرائض والسنن والنوافل ، وأن نطالبه باجتناب المحرمات والشبهات والمكروهات ، وأن نشدد عليه في ذلك ، كما نشدد على المسلم الملتزم الذي ارتقى في درجات الخير ، وأصبح أسوة للناس .

وقد عبت على إخواني في اليابان ، أنهم حين يعلّمون الداخلين في الإسلام يثقلونهم بتفصيلات الأحكام ، ويشغلونهم بالواجبات والتطوعات ، حتى قالوا لي : إن اليابانيين لا ينتشر الإسلام بينهم ، لأنهم يقولون : إن دينكم كثير التكاليف .

قلت لهم : أنتم السبب ، وطريقتكم في التعليم هي التي تنفر ولا تبشر .

المفروض فيمن يعلم الداخلين الجدد في الإسلام : أن يقتصر ـ في المأمورات ـ على الفرائض الأساسية . ويقتصر ـ في المنهيات ـ على المحرمات القطعية ، لا على الشبهات ولا على المكروهات .

بل أقول : يجب التركيز أولاً على اجتناب الكبائر ، فإن الصغائر تكفرها الصلوات الخمس ، وصلاة الجمعة ، وصيام رمضان وقيامه ، كما جاء في الحديث الصحيح : «الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[1] .

وفي الصحيحين : «أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، فهل يبقى على بدنه من درنه شيء ؟ فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» .

والمراد بها : صغائر الخطايا ، فإن الكبائر لا تكفرها إلا التوبة .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة.

يؤكد هذا ما جاء في كتاب الله : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود : ١١٤].

وفي الصحيحين : «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه».

وفي الصحيح أيضًا : «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما».

بل قرر القرآن الكريم : أن مجرد اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، وهذا إذا اجتنبت الكبيرة تدينا وخشية من الله تعالى، لا عجزا عنها، وهو حريص عليها راغب فيها. يقول تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء : ٣١].

ومثل الرفق بالحديث العهد بالإسلام والتيسير عليه : التيسير على حديث العهد بالتوبة، فإذا عاش الإنسان عمرا في أوحال المعصية، ثم شرح الله صدره للتوبة، وهداه إلى طريق الاستقامة، فالواجب أن نترفق به، ونعتبر كأنه دخل الإسلام من جديد، ونأخذه بالأخف من الأعمال، والأيسر من الأحكام، حتى ترسخ قدمه، وتمتد جذوره في أرض الصلاح والتقى، ثم بعد ذلك نرقى به شيئا فشيئا، بل هو في الواقع هو الذي سيجتهد أن يترقى، فإذا كان في أول الأمر يكتفي بالفرائض سيحاول أن يضيف إليها السنن أو بعضها في أول الأمر. وكذلك إذا كان يكتفي باجتناب الكبائر، سيجتهد أن يضم إليها الصغائر، بل يترقى فيها بعد ذلك، حتي يتقي الشبهات، ومن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه.

وهكذا ندع هذا المسلم يروض نفسه ويجاهدها، ويرقى بها من منزلة إلى منزلة، حتى يصل إلى درجة المتقين، الذين ورد فيهم الحديث : «لا يبلغ عبد درجة المتقين، حتى يدع ما لا بأس به حذرا مما به بأس»[1].

ولقد أسفت غاية الأسف حين وجدت بعض الإخوة الدعاة يذهبون إلى بلاد عاشت في الشيوعية نصف قرن أو أكثر، وولد شبابها وبناتها في هذا الجو الملحد

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي عن عقبة السعدي، وقال : حسن غريب.

الكافر الفاجر، وقد جُهِّلوا بالإسلام، وعزلوا عنه تماما، ولم يتح لهم أن تعرفوا عليه قط. كل ما يربطهم بالإسلام هو الشهادتان، وعاطفة موروثة نحو هذا الدين. فرأيت هؤلاء الإخوة يبدءون مع هؤلاء الناس من رجال ونساء، بالأمور المختلف فيها، ويلزمونهم بمذهبهم وطريقهم، ويوجبون على الرجل أن يلتحي، وعلى المرأة أن تلبس النقاب !

من مظاهر التنفير:

وإذا كان الحديث الشريف يأمرنا بالتبشير، فهو ينهانا عن التنفير «بشروا ولا تنفروا» فالواجب علينا أن نناي بأنفسنا عن كل ما ينفر الناس، هذا واجب المسلمين عامة، وواجب الدعاة والموجهين خاصة.

الغلظة والفظاظة في التعامل مع الناس:

ومن مظاهر التنفير: الفظاظة والغلظة والخشونة في التعامل مع الناس. فإن حسن الخلق والرفق ولين الجانب وبشاشة الوجه، تحبب صاحب الدعوة إلى الناس، وتقربهم منه وتقربه منهم. بخلاف الغلظة والعنف والخشونة، فإن الناس لا يطيقون من كانت هذه أخلاقه، فهي أخلاق طاردة، وليست جاذبة، كما هو مشاهد ومعلوم.

والقرآن الكريم يقرر ذلك بوضوح، فقد خاطب الرسول ﷺ بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] هذا مع أنه المرسل إليهم من الله، والمؤيد بوحيه، والمعصوم من ربه. ولكن البشر لا يطيقون ـ بطبيعتهم ـ مصاحبة الفظ والغليظ، ولو كان هو الرسول المعصوم. فكفى بهذا عبرة ودرسا.

ولا غرو أن وجدناه ﷺ أحسن الناس خلقا، وأكثر الناس رفقا وألطف الناس عشرة، وأقرب الناس إلى العفو عن المسيء، والصفح عمن هفا وزلت قدمه. وقد قال تعالى في وصفه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

سوء المظهر بين الناس :

ومن أسباب التنفير : سوء المظهر ، في الصورة واللباس والسمت ، مما يعطي انطباعا لدى جمهور الناس ـ وخصوصا العصريين منهم ـ بأن هذا الشخص متخلف ، أو يعيش خارج دائرة العصر . وربما اتهم الدين بأنه سبب ذلك إذا كان هذا الشخص من المتدينين .

ولقد كان الرسول ﷺ حريصا على أن يرقى بذوق أصحابه في سمتهم ومظهرهم ، كما يرقى بهم في مخبرهم .

ولقد قال يوما لأصحابه «لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل : يا رسول الله ، إني رجل أولعت بالجمال في كل شيء ، حتى ما أحب أن يفوقني أحد بشراك نعل . فهل هذا من الكبر ؟ فقال ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »(١) .

وما أروعها وأصدقها عبارة : إن الله جميل يحب الجمال .

تقديم الإسلام في صورة منفرة :

وأهم من ذلك كله : الصورة التي نقدم بها الإسلام للناس . فهناك صورة جاذبة ، وصورة طاردة ، صورة مبشرة ، وصورة منفرة ، وإنما نكسب مَنْ حولنا بالصورة المبشرة .

هناك أناس يقدمون الإسلام في صورة تقشعر من هولها الجلود ، وترتعد من قساوتها الفرائص ، وتوجل من ذكرها القلوب .

إنه الإسلام الذي يدعو إلى «اللفظية» في العقيدة و«الشكلية» في العبادة ، و«السلبية» في السلوك ، و«السطحية» في التفكير ، و«الحرفية» في التفسير ، و«الظاهرية» في الفقه ، و«المظهرية» في الحياة .

إنه الإسلام المقطب الوجه ، العبوس القمطرير ، الذي لايعرف غير العنف في الدعوة ، والخشونة في المجادلة ، والغلظة في التعامل ، والفظاظة في الأسلوب .

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود .

إنه الإسلام الجامد كالصخر ، الذي لا يعرف تعدد الآراء ، ولا يعترف بتنوع الاجتهادات ، ولا يقر إلا بالرأي الواحد ، والوجه الواحد ، ولا يسمع للرأي الآخر ، ولا للوجهة الأخرى ، ولا يرى أحدهم أنه رأيه صواب يحتمل الخطأ ، وأن رأي غيره خطأ يحتمل الصواب ، بل رأيه هو الصواب الذي لا يحتمل الخطأ ، ورأي الآخرين هو الخطأ المحض الذي لا يحتمل الصواب بوجه .

إنه الإسلام الذي ينظر بريبة إلى المرأة ، فهو يدعو إلى حبسها في البيت ، وحرمانها من العمل ، ومن المشاركة في الدعوة والحياة الاجتماعية والسياسية .

إنه الإسلام الذي لا يعنيه العدالة في توزيع الثروة ، ولا توكيد قاعدة الشورى في الحكم ، ولا إقرار الحرية للشعب ، ولا مساءلة اللصوص الكبار عما سرقوه وما اقترفوه ، ولا تحذير الناس من الوقوع في براثن التبعية للقوى الأجنبية ، أو الاستسلام للقوة الصهيونية التوسعية العدوانية ، لكن يشغل الناس بالجدال في مماحكات لفظية ، وفرعيات فقهية ، وجزئيات خلافية ، في العبادات أوالمعاملات ، لا يمكن أن ينتهي فيها الخلاف .

إنه الإسلام الذي يتوسع في منطقة التحريم ، حتى يكاد يجعل الحياة مجموعة من المحرمات ، فأقرب كلمة إلى ألسنة دعاته ، وأقلام كتابه : كلمة «حرام» .

إن الإسلام المنشود ، هو الإسلام الأول ، إسلام القرآن والسنة ، سنة النبي ﷺ ، وسنة الراشدين المهديين من بعده . . إسلام التيسير لا التعسير ، والتبشير لا التنفير ، والرفق لا العنف ، والتعارف لا التناكر ، والتسامح لا التعصب ، والجوهر لا الشكل ، والعمل لا الجدل ، والعطاء لا الادعاء ، والاجتهاد لا التقليد ، والتجديد لا الجمود ، والانضباط لا التسيب ، والوسطية لا الغلو ولا التقصير .

إسلام يقوم على عقيدة روحها التوحيد ، وعبادة روحها الإخلاص ، وأخلاق روحها الخير ، وشريعة روحها العدل ، ورابطة روحها الإخاء ، وثمرة ذلك كله حضارة روحها التوازن والتكامل .

هذا الإسلام وحده هو الذي يقربنا من العالم، ويقرب العالم منا، وهو الإسلام الذي تتبناه الصحوة الإسلامية ، أو ما يجب أن تتبناه الصحوة بكل فصائلها، فلا يخفى أن من فصائلها ما هو في حاجة أن يتجاوز طور المراهقة إلى الرشد.

إطالة بعض الأئمة في الصلاة :

ومن مظاهر التنفير التي صحت بها الأحاديث ، وينبغي الحذر منها : إطالة بعض الأئمة لصلاة الجماعة بحيث ينفر بعض المصلين من الجماعة وتقعده عنها .

وقد وقع هذا من بعض الأجلاء من أصحاب رسول الله ﷺ من أمثال أبي بن كعب ومعاذ بن جبل الأنصاريين ، على ما لهما من فضل ومنزلة عند الرسول الكريم.

فعن أبي مسعود الأنصاري قال : قال رجل : يا رسول الله لا أكاد أدرك الصلاة، وفي رواية : إني لأتأخر عن الصلاة ، مما يطول بنا فلان (يعني أبي بن كعب) فما رأيت النبي ﷺ في موعظة أشد غضبا من يومئذ : فقال: أيها الناس ، إنكم منفرون ـ وفي رواية : إن منكم منفرين ، فمن أمَّ بالناس فليخفف ، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة »[1].

فدل هذا الحديث على أن التطويل في العبادة مما ينفر الناس عنها، وأن على الإمام أن يراعي حال من وراءه من المصلين ، فمنهم المريض ، ومنهم كبير السن ، ومنهم المشغول بحاجة يريد أن ينجزها .

ولاشك أن الرسول كان يطيل في بعض صلواته ، ولكن لأنه يعرف أن من وراءه يريدون ذلك ويطيقونه، ولهذا رأيناه إذا سمع بكاء طفل خلفه خفف صلاته، لما يعلم من وجد أمه من بكائه.

واختلف الفقهاء حد التخفيف ، قال الحافظ بن حجر : وأولي ما أخذ حد التخفيف من الحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي عن عثمان بن أبي العاصي :

---

(١) متفق عليه عن أبي مسعود، رواه البخاري في كتاب العلم وكتاب الصلاة، وغيرهما . مسلم في الصلاة، انظر : اللؤلؤ والمرجان (٢٦٧).

أن النبي ﷺ قال له : «أنت إمام قومك ، واقدر القوم بأضعفهم» إسناده حسن وأصله في مسلم [1] ا . هـ .

ومعنى هذا : أن يكون تطويله بما يطيقه أضعف القوم، فالضعيف أمير الرفقة كما قيل .

ولقد ورد حديث آخر لمعاذ بن جبل يؤكد ما حدث مع أبي بن كعب ، فعن جابر بن عبد الله قال : «أقبل رجل بناضحين ، وقد جنح الليل، فوافق معاذا يصلي، فترك ناضحه، وأقبل إلى معاذ ، فقرأ سورة البقرة ، والنساء ، وبلغه أن معاذا نال منه، فأتى النبي ﷺ ، فشكا إليه معاذا ، فقال النبي ﷺ : يا معاذ ، أفتان أنت؟ أو أفاتن : (ثلاث مرات) فلولا صليت بـ (سبح اسم ربك ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى) ؟ فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة»[2] .

فانظر إلى هذا الإنكار الشديد بهذه الصيغة (أفتان أنت ؟) وتكرارها ثلاث مرات .

تغليب سوء الظن :

ومن مظاهر هذا التنفير : أن تسيء الظن بالناس ، وأن تفترض فهم الشر ، والأصل براءة الناس حتى يثبت عليهم أنهم أساءوا، ولا ينبت ذلك بمجرد الاحتمال والشك، بل لا بد من البينة التي تثبت الدعوى ، ولو كان هناك أمر فيه وجهان : أحدهما يحتمل إثبات الخير للإنسان ، والثاني يحتمل إثبات الشر عليه، فالواجب أن يحمل على وجه الخير ، تحسينا للظن به ، وحملا لحال المسلم على الصلاح لا على الفساد .

وقد أمرنا أن نحكم بالظاهر ، ونكل إلى الله السرائر ، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس ، وأن نتهمهم في نياتهم ، بل نقبل منهم ظواهرهم وحسابهم على الله تعالى .

---

(١) فتح الباري (٢/ ١٩٩).
(٢) متفق عليه ، رواه الشيخان في كتاب الصلاة، انظر : اللؤلؤ والمرجان (٢٦٦) والبخاري (٧٠٥).

وسوء الظن بالناس قد يدفع إليه الكبر ، أو الإعجاب بالنفس أو اتباع الهوي ، وكلها من المهلكات ، وهي على كل حال من المنفرات التي تباعد بين المرء والناس ، وقد قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات : ١٢] وقال ﷺ : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[(١)] .

ومن روائع ما ثبت في ذلك : قصة الرجل الذي كثيراً ما جيء به إلى الرسول الكريم سكران ، فقال أحد الصحابة ، لعنه الله ! ما أكثر ما يؤتى به ! فقال له عليه الصلاة والسلام : «لا تكن عونا للشيطان على أخيك» وفي رواية «لا تلعنه فإنه ما علمت يحب الله ورسوله» فنظر الرسول إلى ما في أعماقه من الإيمان ، ولم يحكم عليه بظاهره .

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة اللؤلؤ والمرجان (١٦٦٠) .

٦ـ من الجمود والتقليد

إلى الاجتهاد والتجديد

كانت الحياة الإسلامية إبَّان ازدهار حضارتنا الشماء: حياة زاخرة بالحيوية والتجدد في جميع جوانبها: في الدين، في العلم، في الأدب، في العمران، في الصناعات والحرف المختلفة، في كل مجالات الحضارة والمدنية.

كانت حضارتنا الإسلامية هي السائدة، وكانت أمتنا هي الرائدة والقائدة، كانت معلمة الأمم، وكانت الأمة الأولى ـ أو العالم الأول ـ: ما يقرب من عشرة قرون، في حين كان العالم الغربي يعيش عصوره الوسطى، التي سماها: (عصور الظلام). وهي عندنا: عصور النور والتألق والعطاء.

كانت جامعاتنا: موئل الطلاب من أنحاء العالم، وكان علماؤنا في كل التخصصات: أشهر العلماء، في دنيا العلم، وكانت كتبهم: هي المراجع العالمية المعترف بها، والمغترف منها. وكانت لغتنا العربية: هي لغة العلم المتفوقة على كل اللغات.

ثم بدأ التراجع شيئا فشيئا، حتى انتهى إلى التخلف والانحطاط، وأخذت شمسنا في الأفول، ونجمنا في الهبوط، وسيرنا في التباطؤ حتى توقفنا. في الوقت الذي كان غيرنا: قد طفق ينهض من عثرته، ويصحو من سكرته، ويستيقظ من سباته، ذلك هو الغرب المسيحي: الذي مسته نفحة من الشرق المسلم، عن طريق الأندلس وصقلية والحروب الصليبية وغيرها، فتعلم من جهل، وقوي من ضعف، واستنار بعد ظلمة، وشرع يستثمر المنهج العلمي الاستقرائي التجريبي الذي اقتبسه من حضارتنا، وتعلمه على أيدي علمائنا، فإذا هو ينهض ويرقى ويتقدم ويطور حياته يوما بعد يوم، حتى وصل إلى ما نراه اليوم.

أما نحن: فإن حياتنا في العصور الأخيرة قد أصيبت بالعفن، وأصبح ماؤها آسنا، وبحيرتها راكدة، لا يجري ماؤها، ولا يتجدد هواؤها، ولا تفتح نوافذها، فتدخل منها أشعة الشمس، وهبات النسيم.

لقد أصيب الفقه بالجمود والتقليد، فغلبت العصبية المذهبية، واشتهر بين طلبة العلم: أن باب الاجتهاد قد سُدَّ منذ زمن بعيد، ولم يعد في الناس من يقدر على الاجتهاد المطلق، بل ولا الاجتهاد الجزئي، والواجب على الجميع: تقليد أحد المذاهب المعروفة، كما قال الناظم عن أئمة المذاهب:

فواجب تقليد حبر منهمو　　　كما حكى القوم بلفظ يفهم!

وأصبح المقلدون ودعاة التقليد: همْ المهيمنين على جُلّ مؤسسات التعليم الديني في البلاد الإسلامية، وغدا دعاة الاجتهاد والتجديد الحقيقيون: ينظر إليهم بعين الريبة والتشكيك.

الحجر على أهل العلم أن يجتهدوا:

ومن عيوب دعاة التقليد، الذين يوجبونه على كل الناس: أنهم يحجرون على العقول أن تفكر، وعلى المواهب أن تبدع، ويفرضون على العلماء -وإن بلغوا من النبوغ ما بلغوا-: أن يفكروا برءوس غيرهم، وبعبارة أخرى: برءوس الموتى من اثني عشر قرنا أو تزيد.

وهم بهذا: يحجرون ما وسع الله، ويتألون على الله ما ليس لهم، ويدّعون أن فضل الله قد ضاق، أو توقف: قبل منتصف القرن الثالث الهجري، فلم يمنح أحدا من عباده القدرة على الاجتهاد، وسيظل هذا الحجر مستمرا في المستقبل، فلن يمن الله بهذا الفضل على أحد من خلقه. وهذا ضرب من اقتحام الغيب والجسارة علي أمور: لا يجرؤ مسلم أن يدخلها إثباتا أو نفيا، فالغيب لا يعلمه إلا الله، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ الأنعام: ٥٩.

دعوى العجز عن فهم النصوص، بدون الأئمة:

ومن شبهات أنصار التقليد المتعصب، قولهم: إننا لا نستطيع أن نفهم النصوص من كتاب الله وسنة رسوله، ﷺ، وحدنا: بدون واسطة من الأئمة السابقين. ولهذا: نعتمد على من هو أقدر على هذه المهمة منا، أما نحن فعاجزون عنها.

ونقول لهؤلاء: من أين جاءكم العجز، عن فهم النصوص الشرعية وصعوبة الاستنباط منها؟

أهذا: راجع إلى النصوص نفسها؟

أم هو راجع إلى عقولكم أنتم؟

أما النصوص، فلا يقول عاقل: إنها ألغاز عسيرة على الفهم، بعيدة عن إدراك العقول، كيف وقد سمى الله قرآنه: (الكتاب المبين) في أكثر من موضع، وأكثر من سورة. وسماه: ﴿نُوراً﴾ النساء: ١٧٤. و﴿الْفُرْقَانَ﴾ آل عمران: ٤. و﴿بُرْهَانٌ﴾ النساء: ١٧٤. لوضوحه وبيانه، وتمييزه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، كما أعلن أنه (ميسر) للذكر والفهم: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ الدخان: ٥٨.

ومثل ذلك: السنة، فهي البيان والتفصيل للقرآن، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٤٤.

أما عقولكم ـ وعقول أهل العصر عامة ـ: فلا يقول عاقل، مسلم أو كافر: إن الله سلبها القدرة على الفهم والإدراك والاستنباط. كيف وهذه العقول نفسها، هي التي استطاع الإنسان بها: أن يغزو الفضاء، ويحطم الذرَّة، ويصنع (الكومبيوتر)، والثورة البيولوجية، وثورة الاتصالات، وثورة المعلومات، فهل يستطيع العقل الإنساني المعاصر: أن يصنع هذه الأشياء التي تشبه المعجزات، ولا يستطيع فهم نص من (كتاب مبين)؟

أم يقول هؤلاء: تلك عقول الغربيين (الكفار)، أما عقولنا نحن المسلمين: فليس لها مثل ذلك النجاح في علوم الكون، والرياضيات؟

وكأن الإسلام: هو الذي يجمِّد العقول أن تتحرك وتتجدد، ويحجر عليها أن تبدع وتبتكر. ولا أحسب مسلما عاقلا، يقول ذلك.

إن الله خلق العقول ـ كل العقول ـ قادرة على أن تفكر، وتبحث، وتستنتج، وتصل إلى الحقائق، والمشركون هم الذين زعموا أنهم محجوبون: عن فهم كلام الله، لما في آذانهم من وقر، وما في قلوبهم من أكنَّة، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فصلت: ٥.

وكذلك اليهود: زعموا - مكابرة - أن قلوبهم خلقت غلفا مقفلة، لا تقبل شيئا من العلم والهدى، وردّ القرآن عليهم بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ النساء: ١٥٥.

لا شك: أن مما يرد على هؤلاء دعواهم: عجز عقولهم عن الفهم والاستنباط، كما استنبط الفقهاء الأولون: أن هذه العقول نفسها، هي التي أبدعت وابتكرت في علوم الطبيعة والرياضيات.

أترى هذه العقول قادرة في علوم الدنيا، عاجزة في علوم الدين؟

دعوى انقطاع الاجتهاد بعد الأئمة:

ومن أسباب إشاعة التقليد، وترويج بضاعته في سوق الثقافة الدينية: دعوى أن الاجتهاد المطلق، قد انقطع بعد الأئمة الأربعة، وأن كل من جاء بعدهم: لم يبلغ درجة الاجتهاد، وإنما مشى في دربهم، وأمسى تابعا لهم.

وإذا كان الاجتهاد: قد انقطع منذ منتصف القرن الثالث الهجري، (أي بوفاة الإمام الرابع من الأئمة الأربعة، وهو ابن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ)، فكيف نطمع أن يظهر اليوم: مجتهد جديد، يمكنه أن يأخذ الأحكام من نصوص الكتاب والسنة، وأن يتحرر من أسر المذاهب المتبوعة، أو يخالفها في بعض ما ذهبت إليه، واجتمعت عليه؟

ويؤكدون هذا الكلام: بما رواه بعض الكبار من علماء الفقه والأصول، مثل القفال والغزالي والرازي، وقبلهم: إمام الحرمين وغيره، من انقطاع الاجتهاد، وإغلاقه، وأنه لا مجتهد اليوم، وأن الاجتهاد قد توقف منذ زمن[1].

وحينما ادعى الإمام: الحافظ، العلامة في الفقه والحديث والتفسير واللغة وعلومها: جلال الدين السيوطي في مصر (ت٩١١هـ) أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق: قامت القيامة في وجهه، وصوبت إليه السهام من كل جانب، واستكثر الناس عليه ذلك، وتحدّوه بأسئلة جزئية أن يجيب عنها، إلى آخر ما وقع، حتى اضطر: أن يردّ عليهم بكتابه القيم الذي سماه: (الرد على من أخلد إلى الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر: فرض).

---

(١) انظر: فصل (الاجتهاد بين الاستمرار والانقطاع) في كتابنا (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) نشر (دار القلم) بالكويت، و (المكتب الإسلامي) في بيروت.

كلمة قوية للشوكاني:

وللإمام الشوكاني هنا: كلمة قوية في كتابه: (إرشاد الفحول)، يقول رحمه الله: « وما قاله الغزالي رحمه الله، من أنه قد خلا العصر عن المجتهد. قد سبقه إلى القول به القفال، ولكنه ناقض ذلك، فقال: إنه ليس بمقلد للشافعي، وإنما وافق رأيه رأيه، كما نقل ذلك عنه الزركشي».

وقال: قول هؤلاء القائلين بخلو العصر عن المجتهد: مما يقضي منه العجب. فإنهم إن قالوا ذلك باعتبار المعاصرين لهم: فقد عاصر القفال والغزالي والرازي والرافعي ـ من الأئمة القائمين بعلوم الاجتهاد: على الوفاء والكمال ـ: جماعة منهم.

ومن كان له إلمام بعلم التاريخ، والإطلاع على أحوال علماء الإسلام في كل عصر: لا يخفى عليه مثل هذا، بل قد جاء بعدهم من أهل العلم: من جمع الله له من العلوم، فوق ما اعتده أهل العلم في الاجتهاد.

وإن قالوا ذلك لا بهذا الاعتبار، بل باعتبار: أن الله عز وجل رفع ما تفضل به على من قبل هؤلاء من هذه الأمة، من كمال الفهم، وقوة الإدارك والاستعداد للمعارف: فهذه دعوى من أبطل الباطلات، بل هي جهالة من الجهالات.

وإن كان ذلك باعتبار: تيسّر العلم لمن قبل هؤلاء المنكرين، وصعوبته عليهم، وعلى أهل عصورهم: فهذه أيضا دعوى باطلة. فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم: أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيرا، لم يكن للسابقين، لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت، وصارت في الكثرة إلى حد لا يمكن حصره، والسنة المطهرة قد دونت، وتكلم الأئمة على التعديل والتجريح والتصحيح والترجيح: بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد.

وقد كان السلف الصالح ـ من قبل هؤلاء المنكرين ـ: يرحل للحديث الواحد من قطر إلى قطر، فالاجتهاد على المتأخرين: أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين، ولا يخالف في هذا من له فهم صحيح وعقل سليم. وإذا أمعنت النظر وجدت هؤلاء المنكرين: إنما أتوا من قبل أنفسهم، فإنهم لما عكفوا على التقليد، واشتغلوا بغير الكتاب والسنة: حكموا على غيرهم بما وقعوا فيه، واستصعبوا ما سهله الله على من رزقه الله العلم والفهم، وأفاض على قلبه أنواع علوم الكتاب والسنة.

ولما كان هؤلاء الذين صرّحوا بعدم وجود المجتهدين شافعية، فها نحن نوضح لك من وجد من الشافعية بعد عصرهم، ممن لا يخالف مخالف في أنه جمع أضعاف علوم الاجتهاد، فمنهم: ابن عبد السلام، وتلميذه ابن دقيق العيد، ثم تلميذه ابن سيد الناس، ثم تلميذه: زين الدين العراقي، ثم تلميذه: ابن حجر العسقلاني، ثم تلميذه: السيوطي.

فهؤلاء ستة أعلام، كل واحد منهم: تلميذ من قبله، قد بلغوا من المعارف العلمية: ما يعرفه من يعرف مصنفاتهم حق معرفتها، وكل واحد منهم: إمام كبير في الكتاب والسنة، محيط بعلوم الاجتهاد إحاطة متضاعفة، عالم بعلوم خارجة عنها. ثم في المعاصرين لهؤلاء: كثير من المماثلين لهم، وجاء بعدهم: من لا يقصر عن بلوغ مراتبهم. والتعداد لبعضهم فضلا عن كلهم: يحتاج إلى بسط طويل.

وقد قال الزركشي في البحر: ولم يختلف اثنان، في أن ابن عبد السلام، بلغ رتبة الاجتهاد. وكذلك ابن دقيق العيد. انتهى.

ثم قال الشوكاني: «وبالجملة، فتطويل البحث في مثل هذا: لا يأتي بكثير فائدة، فإن أمره أوضح من كل واضح، وليس ما يقوله من كان من أسراء التقليد: بلازم لمن فتح الله عليه أبواب المعارف، ورزقه من العلم ما يخرج به عن تقليد الرجال».

ثم قال: «ومن حصر فضل الله على بعض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره: فقد تجرأ على الله عز وجل! ثم على الشريعة الموضوعة لكل عباده! ثم على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة! ثم قال: فإن هذه المقالة تستلزم رفع التعبد بالكتاب والسنة، وأنه لم يبق إلا تقليد الرجال الذين هم متعبدون بالكتاب والسنة، كتعبد من جاء بعدهم على حد سواء، فإن كان التعبد بالكتاب والسنة مختصا بمن كانوا في العصور السابقة، ولم يبق لهؤلاء إلا التقليد لمن تقدمهم، ولا يتمكنون من معرفة أحكام الله من كتاب الله وسنة رسوله: «فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة الزائفة؟ وهل النسخ إلا هذا؟ ﴿ **سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** ﴾[1] انتهى الشوكاني.

---

(١) إرشاد الفحول (٢/ ٣٠٧-٣١٠) بتحقيق. د. شعبان محمد إسماعيل.

ابن القيم يرد بقوة:

وقال الإمام ابن القيم - وهو يردُّ على جماعة المتعصبين للتقليد، في كتابه (إعلام الموقعين)، في الوجه الحادي والثمانين من وجوه الرد على المقلدين التي بلغت تسعة وتسعين وجها -: إن المقلدين حكموا على الله قدرا وشرعا: بالحكم الباطل جهارا، ومخالفا لما أخبر به رسول الله، ﷺ: فأخلوا الأرض من القائمين لله بحجته، وقالوا: لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار المتقدمة، فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة، وأبي يوسف، وزفر بن الهذيل، ومحمد بن الحسن، وابن زياد اللؤلؤي. وهذا قول كثير من الحنفية. وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة. وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي، والثوري، ووكيع بن الجراح، وابن المبارك. وقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي، واختلف المقلدون من أتباعه: فيمن يؤخذ بقوله من المنتسبين إليه، ويكون له وجه يفتَي ويحكم به ممن ليس كذلك، وجعلوهم ثلاث مراتب: طائفة أصحاب وجوه: كابن سريج، والقفال، وأبي حامد (أي الإسفراييني). وطائفة أصحاب احتمالات: كأبي المعالي. وطائفة ليسوا أصحاب وجوه ولا احتمالات: كأبي حامد (أي الغزالي) وغيره.

واختلفوا: متى انسدّ باب الاجتهاد؟ على أقوال كثيرة، ما أنزل الله بها من سلطان، وعند هؤلاء: أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم، ولا يحل لأحد بعد: أن ينظر في كتاب الله ولا سنة رسوله، لأخذ الأحكام منهما، ولا يقضي ويفتي بما فيهما: حتى يعرضه على قول مقلَّده ومتبوعه، فإن وافقه: حكم به، وإلا رده ولم يقبله. وهذه أقوال كما ترى قد بلغت - من الفساد والبطلان والتناقض، والقول على الله بلا علم، وإبطال حججه، والزهد في كتابه وسنة رسوله ﷺ، وتلقي الأحكام منهما - مبلغها! ويأبى الله، إلا أن يتم نوره، ويصدق قول رسوله: «أنه لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة»[1].

---

(١) وهم ابن القيم رحمه الله هنا، في جعله حديثا مرفوعا، فإنه من قول علي رضي الله عنه لكميل بن زياد، كما ذكره هو نفسه في موضع: آخر من «إعلام الموقعين» وفي «مفتاح دار السعادة». وربما يقال: هو موقوف لفظا، مرفوع حكما، لأن مثله لا يقال بالرأي.

«ولن تزال طائفة من أمته: على محض الحق الذي بعثه به»[1]. وأنه «لا يزال يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة: من يجدد لها أمر دينها»[2].

ويكفي - في فساد هذه الأقوال - أن يقال لأربابها: فإذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم؟! وكيف حرمتم على الرجل أن يختار ما يؤديه إليه اجتهاده: من القول الموافق لكتاب الله وسنة نبيه، وأبحتم لأنفسكم اختيار قول من قلدتموه، وأوجبتم على الأمة تقليده، وحرمتم تقليد من سواه؟! فما الذي سوّغ لكم هذا الاختيار، الذي لا دليل عليه من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا قياس، ولا قول صحابي؟.

ويقال لهم: فإذا كان لا يسوغ الاختيار بعد المائتين عندك، ولا عند غيرك، فمن أين ساغ لك - وأنت لم تولد إلا بعد المائتين، بنحو ستين سنة -: أن تختار قول مالك، دون من هو أفضل منه من الصحابة والتابعين، أو من هو مثله من فقهاء الأمصار، أو ممن جاء بعده، ويلزمك: أن أشهب، وابن الماجشون، ومطرفا، وأصبغ، وسحنونا، وابن المعذل، وطبقتهم: لما انسلخ آخر يوم من ذي الحجة سنة ٢٠٠هـ واستهل محرم ٢٠١هـ: حرم عليهم ما كان مطلقا لهم من الاختيار!![3].

التقليد والتمذهب عند ابن القيم:

وعرض الإمام ابن القيم لقضية (التمذهب) في (الإعلام) فطرح هذا السؤال:

هل يلزم العامي: أن يتمذهب ببعض المذاهب المعروفة أم لا؟

قال ابن القيم: «فيه مذهبان:

---

(١) أخرجه البخاري: في العلم، ومسلم: في الإمارة - من حديث معاوية مرفوعا - بلفظ «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» وقد صح عن عدد من الصحابة، كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته.

(٢) أخرجه أحمد، وأبو داود، والبيهقي في المعرفة: من حديث أبي هريرة بلفظ: «إن الله يبعث». وقد صححه العراقي وغيره، ورمز له السيوطي بعلامة الصحة، وأقره المناوي.

(٣) إعلام الموقعين (٢/ ٢٧٥-٢٧٧).

أحدهما: لا يلزمه، قال ابن القيم: وهو الصواب المقطوع به؛ إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس: أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة: فيقلد دينه دون غيره، وقد انطوت القرون الفاضلة مبرأة، مبرأ أهلها: من هذه النسبة، بل لا يصح للعامي مذهب، ولو تمذهب به؛ فالعامي لا مذهب له، لأن المذهب إنما يكون لمن له نوع نظر واستدلال، ويكون بصيرا بالمذاهب على حسبه، أو لمن يقرأ كتابا في فروع ذلك المذهب وعرف فتاوى إمامه وأقواله، وأما من لم يتأهل لذلك ألبتة، بل قال: أنا شافعي، أو حنبلي، أو غير ذلك: لم يصر كذلك بمجرد القول، كما لو قال: أنا فقيه، أو نحوي، أو كاتب، لم يصر كذلك بمجرد قوله.

يوضحه أن القائل: إنه شافعي، أو مالكي، أو حنفي، يزعم أنه متبع لذلك الإمام، سالك طريقه، وهذا إنما يصح له: إذا سلك سبيله في العلم والمعرفة والاستدلال، فأما مع جهله، وبعده جداً عن سيرة الإمام وعلمه وطريقه، فكيف يصح له الانتساب إليه: إلا بالدعوى المجردة، والقول الفارغ من كل معنى؟ والعامي لا يتصور: أن يصح له مذهب، ولو تصور ذلك: لم يلزمه ولا لغيره، ولا يلزم أحدا قط: أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة، بحيث يأخذ أقواله كلها، ويدع أقوال غيره.

وهذه بدعة قبيحة: حدثت في الأمة، لم يقل بها أحد من أئمة الإسلام، وهم أعلى رتبة، وأجل قدرا، وأعلم بالله ورسوله: من أن يلزموا الناس بذلك، وأبعد منه قول من قال: يلزمه أن يتمذهب بمذهب عالم من العلماء، وأبعد منه قول من قال: يلزمه أن يتمذهب بأحد المذاهب الأربعة.

فيالله العجب! ماتت مذاهب أصحاب رسول الله ﷺ، ومذاهب التابعين وتابعيهم، وسائر أئمة الإسلام، وبطلت جملة، إلا مذاهب أربعة أنفس فقط، من بين سائر الأئمة والفقهاء! وهل قال ذلك أحد من الأئمة، أو دعا إليه، أو دلت عليه لفظة واحدة من كلامه؟

والذي أوجبه الله تعالى ورسوله: على الصحابة، والتابعين، وتابعيهم: هو الذي أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة، لا يختلف الواجب ولا يتبدل، وإن

اختلفت كيفيته أو قدره باختلاف القدرة والعجز، والزمان والمكان والحال، فذلك أيضا تابع لما أوجبه الله ورسوله.

ومن صحح للعامي مذهبا، قال: هو قد اعتقد أن هذا المذهب الذي انتسب إليه هو الحق، فعليه الوفاء بموجب اعتقاده، وهذا الذي قاله هؤلاء، لو صح: للزم منه تحريم استفتاء أهل غير المذهب الذي انتسب إليه، وتحريم تمذهبه بمذهب نظير إمامه أو أرجح منه، أو غير ذلك من اللوازم: التي يدل فسادها على فساد ملزوماتها، بل يلزم منه: أنه إذا رأى نص رسول الله ﷺ، أو قول خلفائه الأربعة، مع غير إمامه: أن يترك النص، وأقوال الصحابة، ويقدم عليها قول من انتسب إليه!

وعلى هذا: فله أن يستفتي من شاء، من أتباع الأئمة الأربعة: بإجماع الأمة، كما لا يجب على العالم: أن يتقيد بحديث أهل بلده أو غيره من البلاد، بل إذا صح الحديث: وجب عليه العمل به: حجازيا كان، أو عراقيا، أو شاميا، أو مصريا، أو يمنيا»(1). اهـ.

التمذهب والتقليد عند الشوكاني:

وقال الشوكاني في (السيل الجرار): «اعلم أنه قد ذهب الجمهور إلى أنه غير جائز. قال القرافي: مذهب مالك وجمهور العلماء: وجوب الاجتهاد وإبطال التقليد، وادعى ابن حزم: الإجماع على النهي عن التقليد، ورواه عن مالك وأبي حنيفة والشافعي، وروى المروزي عن الشافعي - في أول مختصرة -: أنه لم يزل ينهى عن تقليده وتقليد غيره.

قال الشوكاني:

وقد ذكرت نصوص الأئمة الأربعة، المصرِّحة بالنهي عن التقليد لهم، في الرسالة التي سميتها: (القول المفيد في حكم التقليد).

والحاصل: أن المنع من التقليد - إن لم يكن إجماعا -: فهو مذهب الجمهور، ومن اقتصر في حكاية المنع من التقليد على المعتزلة: فهو لم يبحث عن أقوال أهل العلم في هذه المسألة، كما ينبغي.

---

(1) إعلام الموقعين (٤/ ٢٦٢، ٢٦٣).

وقد حكي عن بعض الحشوية : أنهم يوجبون التقليد مطلقا ، ويحرمون النظر . وهؤلاء لم يقنعوا بما هم فيه من الجهل ، حتى أوجبوه على غيرهم ؛ فإن التقليد جهل وليس بعلم .

وذهب جماعة إلى التفصيل ، فقالوا : يجب على العامي ، ويحرم على المجتهد ، وبهذا قال كثير من أتباع الأربعة ؛ ولكن هؤلاء الذين قالوا بهذا القول من أتباع الأئمة : يقرون على أنفسهم بأنهم مقلّدون ، والمعتبر في الخلاف : إنما هو قول المجتهدين ، لا قول المقلدين .

والعجب من بعض المصنفين في الأصول ، فإنه نسب هذا القول المشتمل على التفصيل إلى الأكثر ، وجعل الحجة لهم : الإجماع على عدم الإنكار على المقلدين .

فإن أراد إجماع الصحابة : فهم لم يسمعوا بالتقليد ، فضلا عن أن يقولوا بجوازه ، وكذلك التابعون ، لم يسمعوا بالتقليد ولا ظهر فيهم ، بل كان المقصِّر في زمان الصحابة والتابعين : يسأل العالم منهم عن المسألة التي تعرض له ، فيروي له النص فيها من الكتاب أو السنة ؛ وهذا ليس من التقليد في شيء . بل هو من باب طلب حكم الله في المسألة ، والسؤال عن الحجة الشرعية . وقد عرفت مما قدمنا : أن المقلّد ، إنما يعمل بالرأي لا بالرواية ، من غير مطالبة بحجة .

وإن أراد إجماع الأئمة الأربعة : فقد عرفت أنهم مصرحون بالمنع من التقليد لهم ولغيرهم ، ولم يزل من كان في عصرهم منكرا لذلك أشد الإنكار .

وإن أراد إجماع المقلدين للأئمة الأربعة ، فقد عرفت أنه لا يعتبر خلاف المقلد ، فكيف ينعقد بقولهم الإجماع؟

وإن أراد غيرهم ؛ فمن هم؟ فإنه لم يزل أهل العلم في كل عصر : منكرين للتقليد ، وهذا معلوم لكل من يعرف أقوال أهل العلم .

والحاصل : أنه لم يأت من جوّز التقليد - فضلا عمن أوجبه - بحجة ينبغي الاشتغال بجوابها قط ؛ وقد أوضحنا هذا في رسالتنا المسماة : (بالقول المفيد ، في حكم التقليد) وفي كتابنا الموسوم بـ : (أدب الطلب ونهاية الأرب) .

وأما ما ذكروه من استبعاد: أن يفهم المقصرون نصوص الشرع، وجعلوا ذلك مسوغا للتقليد: فليس الأمر كما ظنوه؛ فها هنا واسطة بين الاجتهاد والتقليد، وهو سؤال الجاهل للعالم عن الشرع فيما يعرض له، لا عن رأيه البحت واجتهاده المحض؛ وعلى هذا كان عمل المقصرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

ومن لم يسعه ما وسع هؤلاء الذين هم أهل القرون الثلاثة الفاضلة على ما بعدها، فلا وسَّع الله عليه»[1]. انتهى.

كلمة شارح مُسَلَّم الثبوت:

وحمل صاحب (فواتح الرحموت، شرح مسلَّم الثبوت) في علم الأصول بشدة، على من قال بخلو العصر من مجتهد، فقال رحمه الله:

«ثم إنه قد استدل بما صرح به حجة الإسلام (الغزالي) قدس سره، والرافعي، والقفال: بأنه وقع في زماننا هذا الخلو، وفيه ما فيه! لأن وقوع الخلو ممنوع، وما ذكروه مجرد دعوى. والإمام حجة الإسلام - وإن كان من جملة الأولياء -: لا يصلح حجة في الاجتهاديات. ثم إن من الناس من حكم بوجوب الخلو من بعد العلامة النسفي، اختتم الاجتهاد به، وعَنَوْا: الاجتهاد في المذهب. وأما الاجتهاد المطلق، فقالوا: اختتم بالأئمة الأربعة، حتى أوجبوا تقليد واحد من هؤلاء الأربعة. قال: وهذا كله من هوساتهم! لم يأتوا بدليل، ولا يعبأ بكلامهم، وإنما هم من الذين حكم الحديث أنهم «أفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»! ولم يفهموا أن هذا إخبار بالغيب في خمس، لا يعلمهن إلا الله. اهـ» [2].

هل يُعدُّ من ترك مذهبه في بعض المسائل، مذبذبا؟:

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية: عن رجل ترك مذهبه في بعض المسائل - كرفع الحنفي يديه عند الركوع والقيام منه - فأنكر عليه أصحابه، ووصفوه بأنه مذبذب لا يستقر على مذهب! فأجاب إجابة مفصلة جاء فيها:

---

(١) انظر: السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار للشوكاني (١/ ١١-١٣) طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت، للعلامة محب الله بن عبد الشكور وهو مطبوع في حاشية المستصفى (٢/ ٣٩٩-٤٠٠).

« إذا كان الرجل متبعا لأبي حنيفة، أو مالك، أو الشافعي، أو أحمد: ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى فاتبعه، كان قد أحسن في ذلك، ولم يقدح في دينه، ولا عدالته بلا نزاع، بل هذا أولى بالحق، وأحب إلى رسول الله ﷺ: ممن يتعصب لواحد معين، غير النبي ﷺ، كمن يتعصب لمالك، أو الشافعي، أو أحمد، أو أبي حنيفة، ويرى أن قول هذا المعيَّن هو الصواب الذي ينبغي اتباعه، دون قول الإمام الذي خالفه.

فمن فعل هذا: كان جاهلا ضالا، بل قد يكون كافرا، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس: اتباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة، دون الإمام الآخر، فإنه يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. بل غاية ما يقال: إنه يسوغ أو ينبغي أو يجب على العامي: أن يقلد واحدا لا بعينه، من غير تعيين زيد ولا عمرو.

وأما أن يقول قائل: إنه يجب على العامة (يعني: الناس كافة) تقليد فلان أو فلان، فهذا لا يقوله مسلم.

ومن كان مواليا للأئمة محبا لهم، يقلد كل واحد منهم فيما يظهر له أنه موافق للسنة، فهو محسن في ذلك، بل هذا أحسن حالا من غيره، ولا يقال لمثل هذا: مذبذب، على وجه الذم، وإنما المذبذب المذموم: الذي لا يكون مع المؤمنين، ولا مع الكفار، بل يأتي المؤمنين بوجه، ويأتي الكافرين بوجه، كما قال تعالى في حق المنافقين: ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ النساء: ١٤٣.

وقال النبي ﷺ: « مثل المنافق، كمثل الشاة العائرة بين الغنمين: تعير إلى هؤلاء مرة، وإلى هؤلاء مرة »[1].

فهؤلاء المنافقون المذبذبون: هم الذين ذمهم الله ورسوله.

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع والائتلاف، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف، فقال: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ آل عمران: ١٠٣.

---

(١) رواه مسلم وأحمد والنسائي عن ابن عمر (صحيح الجامع الصغير: ٥٨٥٣).

فأئمة الدين هم على منهاج الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، والصحابة كانوا مؤتلفين متفقين، وإن تنازعوا في بعض فروع الشريعة: في الطهارة، أو الصلاة، أو الحج، أو الطلاق، أو الفرائض، أو غير ذلك، فإجماعهم: حجة قاطعة.

ومن تعصَّب لواحد بعينه من الأئمة: دون الباقين، فهو بمنزلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقين، كالرافضي الذي يتعصب لعلي، دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة. وكالخارجي: الذي يقدح في عثمان وعلي رضي الله عنهما. فهذه طرق أهل البدع والأهواء، الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع: أنهم مذمومون، خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به رسول الله ﷺ، فمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه: ففيه شبه من هؤلاء، سواء تعصب لمالك، أو الشافعي، أو أبي حنيفة، أو أحمد، أو غيرهم.

ثم غاية المتعصب لواحد منهم: أن يكون جاهلا بقدره في العلم والدين، ويقدر الآخرين، فيكون جاهلا ظالما، والله يأمر بالعلم والعدل، وينهى عن الجهل والظلم، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ...... ﴾ الأحزاب: ٧٢، ٧٣ إلى آخر السورة.

وهذا أبو يوسف ومحمد: أتبع الناس لأبي حنيفة، وأعلمهم بقوله، وهما قد خالفاه في مسائل لا تكاد تحصى، لما تبين لهما من السنة والحجة: ما وجب عليهما اتباعه، وهما مع ذلك معظمان لإمامهما. لا يقال فيهما: مذبذبان، بل أبو حنيفة وغيره من الأئمة يقول القول، ثم تتبين له الحجة في خلافه، فيقول بها، ولا يقال: مذبذب! فإن الإنسان لا يزال يطلب العلم والإيمان، فإذا تبين له من العلم، ما كان خافيا عليه: اتبعه، وليس هذا مذبذبا، بل هذا مهتد زاده الله هدى، وقد قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤.

فالواجب على كل مؤمن: موالاة المؤمنين، وعلماء المؤمنين، وأن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده، ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب: فله أجران. ومن اجتهد فأخطأ: فله أجر لاجتهاده، وخطؤه مغفور له، وعلى المؤمنين: أن يتبعوا إمامهم إذا فعل ما يسوغ، فإن النبي ﷺ، قال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به»، سواء رفع يديه

أو لم يرفع يديه، لا يقدح ذلك في صلاتهم، ولا يبطلها، لا عند أبي حنيفة ولا الشافعي ولا مالك ولا أحمد، ولو رفع الإمام دون المأموم، أو المأموم دون الإمام: لم يقدح ذلك في صلاة واحد منهما، ولو رفع الرجل في بعض الأوقات، دون بعض: لم يقدح ذلك في صلاته، وليس لأحد أن يتخذ قول بعض العلماء شعارا يوجب اتباعه، وينهى عن غيره مما جاءت به السنة، بل كل ما جاءت به السنة فهو واسع، مثل الأذان والإقامة، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «أنه أمر بلالا أن يشفع الأذان، ويوتر الإقامة»، وثبت عنه في الصحيحين «أنه علّم أبا محذورة الإقامة شفعا كالأذان». فمن شفع الإقامة فقد أحسن، ومن أفردها فقد أحسن، ومن أوجب هذا دون هذه، فهو مخطئ ضال، ومن والى من يفعل هذا دون هذا بمجرد ذلك: فهو مخطئ ضال.

وبلاد الشرق؛ من أسباب تسليط الله التتَر عليها: كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها. حتى تجد المنتسب إلى الشافعي: يتعصب لمذهبه على مذهب أبي حنيفة، حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أبي حنيفة يتعصب لمذهبه على مذهب الشافعي وغيره، حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أحمد: يتعصب لمذهبه على مذهب هذا أو هذا، وفي المغرب: تجد المنتسب إلى مالك، يتعصب لمذهبه على هذا أو هذا، وكل هذا: من التفرق والاختلاف، الذي نهى الله ورسوله عنه.

وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل، المتبعين الظن، وما تهوى الأنفس، المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله: مستحقون للذم والعقاب، وهذا باب واسع، لا تحتمل هذه الفتيا لبسطه، فإن الاعتصام بالجماعة والائتلاف: من أصول الدين، والفرع المتنازع فيه: من الفروع الخفية، فكيف يقدح في الأصل بحفظ الفرع». [1] اهـ.

كل التقليد مذموم:

وإذا كنا ننكر تقليد أسلافنا: من فقهاء الأمة الكبار، وأئمتها العظام، لأنهم فكروا واجتهدوا وأبدعوا لزمانهم لا لزماننا، ولبيئاتهم لا لبيئاتنا: فنحن -ولا شك- أشد إنكارا لتقليد آخر يشيع اليوم، ويراد له أن يهيمن على عقولنا، ويوجه حياتنا،

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢/٢٤٨-٢٥٤).

وأن نخضع له أفكارنا وسلوكنا، ذلكم هو تقليد الغرب، صاحب الحضارة المسيطرة على العالم بما فيها من نزعة مادية ظاهرة، ونزعة إباحية سافرة، ونزعة نفعية غالبة، وما تتضمنه في غالب مدارسها الفلسفية، وتطبيقاتها العملية، من احتقار للغيبيات، وإهمال للقيم الروحية والأخلاقية، واعتبار الغرب هو سيد العالم، وأن حضارتهم أمّ الحضارات.

أقول: إن هذا التقليد الذي يراد فرضه علينا اليوم، لتنحني رءوسنا لفكر الغرب وثقافته، وفلسفته وحضارته، والتخلي عن جذورنا الإيمانية والثقافية وهُويتنا الحضارية، وخصائصنا الدينية والفكرية، لنرتمي في أحضانه، ونذوب في حضارته، ونفنى فيها - كما عبَّر بعضهم من قديم - هذا التقليد مرفوض عندنا بلا نزاع، لأنه يمثل بالنسبة لنا اليوم: اغترابا، كما يمثل تقليد الأسلاف اغترابا.

تقليد الأسلاف يعتبر اغترابا في الزمان، وتقليد الغرب يعتبر اغترابا في المكان.

والواجب: أن نعيش في زماننا ومكاننا، لا نغترب عن العصر، ولا نغترب عن الدار.

نريد أن نفكر لأنفسنا بعقولنا: لا بعقول غيرنا، لا نريد من أحد أن يفكر لنا، سواء كان من الأموات، الذين بيننا وبينهم قرون وقرون، أم من الأحياء الذين بيننا وبينهم بحار ووهاد.

على أن أسلافنا - وإن اغتربوا عنا زمانا -: هم أقرب إلينا فكرا وشعورا، فمنطلقاتهم منطلقاتنا، وغاياتهم غاياتنا، ومناهجهم مناهجنا، ولكنهم لم يحيوا حياتنا، ولم يعيشوا مشاكلنا، ولم يواجهوا تحدياتنا، ولم يعرفوا ما عرفنا في عصرنا.

أما الغربيون: فهم أكثر بعدا منا، لأن منطلقاتهم ليست منطلقاتنا، وغاياتهم غير غاياتنا، ومناهجهم ليست مناهجنا. فتقليدنا لهم أشد نكرا.

شيوع الجمود في فصائل الصحوة الإسلامية:

حين نتحدث عن الجمود والتقليد: ينصرف الذهن غالبا إلى الجمود والتقليد الفقهي، وهو لا شك داخل في المفهوم الذي نقصده، ولكنه ليس كل المقصود.

إننا نريد من فصائل الصحوة الإسلامية: أن تتحرر من الجمود على موروثاتها التقليدية، ولا تنظر إلى هذه المواريث، كما ينظر مقلدو المذاهب إلى مذاهبهم، فيضفوا عليها هالة من التقديس، بحيث لا يجوز نقدها ولا تطويرها ولا المساس بها.

وقد أصبح الزعماء والمؤسسون لكل فصيل من فصائل الصحوة، أو لكل جماعة من جماعاتها (أئمة) يقلَّدون، لا يجوز أن توضع مقولاتهم التي وضعوها للإصلاح والتجديد: موضع البحث والمناقشة، لأنها فوق المناقشة، وفوق المساءلة، وكأنما هؤلاء المؤسسون معصومون!

إنها (مذهبية) جديدة، وتقليد جديد. لم يقصد إليه القادة الذين أسسوا هذه الجماعات فيما أظن، فقد كانوا علماء صالحين يرجون خير هذه الأمة، ولا يدعون أنهم معصومون من الخطأ.

وكل هذه الجماعات متساوية في التعصب لرؤسائها ومؤسسيها وموروثاتها الفكرية، وإن تفاوتت النسبة بينهم تفاوتا غير قليل.

حزب التحرير:

حزب التحرير: متعصب لكل ما قاله مؤسسه الفاضل الشيخ تقي الدين النبهاني ـ رحمه الله ـ ويكاد كل أعضاء الحزب: يحفظون كلماته عن ظهر قلب، ويرددونها، كأنها (كليشهات) مطبوعة، أو نصوص معصومة.

المصطلحات التي ذكرها الشيخ يؤمنون بها، ويريدون أن يفرضوها على الناس، مع أن علماءنا قرروا من قديم: أن لا مشاحة في الاصطلاح. فإذا قلت: من مبادئ الإسلام: العدل والإخاء والمساواة، قالوا: هذه ليست مبادئ، لا يوجد في الدنيا كلها إلا ثلاثة مبادئ: الإسلام، والشيوعية، والرأسمالية.

وإذا قلت: يقوم النظام الاجتماعي في الإسلام: على تكافل المجتمع، والتقريب بين أغنيائه وفقرائه، قالوا لك: النظام الاجتماعي: ما يتعلق بالأسرة فقط. هكذا قال الشيخ.

وهم يتقبلون ما قال الشيخ: في النظام السياسي، أو النظام الاقتصادي: على أنه (دين الله)، لا على أنه اجتهاد بشر يصيب ويخطئ. ويقدمون لك دستورا يجعل (الخليفة)، أو رئيس الدولة: أكبر دكتاتور في العالم!

وهم يعتبرون مشكلة المشكلات، وآفة الآفات، وكبيرة الكبائر: غياب الخليفة عن الحياة الإسلامية.

وأن حلّ كل المشكلات، وسدّ كل الثغرات، وعلاج كل الأدواء: إنما يتحقق إذا اخترنا شخصا وسميناه: (الخليفة).

وكأنما تلخص الإسلام كله: في الخلافة أو الخليفة.

لم يعد مهما تحرير العقيدة من الشرك والخرافة، ولا تحرير العبادة من الابتداع والشكلية، ولا تحرير الأخلاق من الوهن والسلبية، ولا تحرير الأفكار من الغزو والتبعية، ولا تحرير الأسرة من التفكك، ولا تحرير المجتمعات من العصبيات الجاهلية، ولا تحرير الأمة كلها من لوثات الحضارة المادية، ورواسب عصور التخلف الرجعية.

ليس هذا كله مهما، إنما المهم: أن تعلن قيام الخليفة، فيصلح في اليوم التالي كل فاسد، ويعود كل شارد، ويهتدي كل ضال، ويتوب كل عاص، وتنحل كل المشاكل!

وهم لا يحتجون عليك بالقرآن، فليس معهم في هذه القضية قرآن يتلى، ولا يحتجون عليه بعمل الرسول، فهو لم يبدأ بالخلافة، ولا يستدلون عليك بصحيح البخاري، فليس معهم حديث في البخاري، لكن كل ما يستندون إليه ويعولون عليه: حديث واحد في صحيح مسلم «من لقي الله، وليس في عنقه بيعة لإمام: مات ميتة جاهلية».

ونحن نؤمن معهم بهذا الحديث، ونؤمن بضرورة الخلافة بوصفها: مجسدة للوحدة السياسية الإسلامية. ونرى المسلمين مقصرين وآثمين: ما لم يعملوا لإقامة الخلافة، الموحدة سياسيا لأمتهم.

ولكنا نخالفهم في (نقطة البداية)، فإقامة الخلافة: لا يصلح أن تكون نقطة البداية في الإصلاح، بل هي نقطة النهاية، حين تصلح الأحوال في عدد من الأقطار الإسلامية، وينتصر دعاة الإسلام فيها على: العلمانيين والماركسيين وغيرهم، ويحتكم الناس إلى الشريعة الإسلامية، تسعى هذه الأقطار فيما بينها لإقامة اتحاد إسلامي فيما بينها، في صورة من الصور الواقعية، ويختارون لهذه المجموعة المتحدة قائدا، هو (الإمام) أو الخليفة، حتى ولو لم يسم بهذا الاسم، فالعبرة بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين.

أنا لا أريد أن أناقش حزب التحرير في أفكاره، فهو حرٌّ فيما يراه ويؤمن به ويدعو إليه، ولكني أريد منه: أن يمتحن هذه الأفكار، وأن يراجعها ما بين الحين والحين، وأن يضعها على مشرحة النقد والتحليل، وأن يخلع هالة القدسية والعصمة عن (أفكار الحزب)، فهي ليست أكثر من (أفكار)، وليست وحيا يوحى، وكل ما هو فكر، فإنما هو من جهد البشر، فهو قابل للصواب والخطأ، وقابل للمناقشة والنقد.

جماعة الدعوة والتبليغ:

جماعة الدعوة والتبليغ التي نشأت في الهند، وأسسها عالم رباني مخلص هو الشيخ محمد إلياس، عنيت بالدعوة إلى الله، وسوق الناس بسياط الخوف من عذاب الله، وزمام الرجاء في رحمة الله: إلى المسجد وطاعة الله وإقام الصلاة، والتوبة من المعاصي.

وكم لها من جهود طيبة في (تتويب العصاة)، ورد الشاردين إلى ساحة الله، وإعادة تاركي الصلاة إلى المساجد، وتوبة الزناة والسكيرين من كبائر الآثام: التي غرقوا فيها فترات طويلة من حياتهم. وكل هذا في ميزانهم.

ولكنهم يؤخذ عليهم: أنهم لا يهتمون بالفكر، ولا بالرد على ملوثي فكر الأمة، وغزاة العقول بالكتب والصحافة وأجهزة الإعلام المختلفة، بل ربما عادوا

من اهتم بهذا الجانب الحيوي، الذي أضاع (النخب المثقفة) التي تقود الأمة: في السياسة، والاقتصاد، والتعليم، والإعلام، والثقافة.

ولهذا: لا يوجد عندهم كتب تقرأ، إلا كتابا واحدا، كما علمت: رياض الصالحين، وقد يضاف إليه: حياة الصحابة.

ولقد سمعت بعضهم يقول: إن وسائلنا هي وسائل الأنبياء، وهي الكلمة الشفهية المباشرة، ونسي هؤلاء: أن الأنبياء كانت معهم (كتب)، تخاطب الناس بالكلمة المكتوبة: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ البقرة: ٢١٣.

وقال تعالى - في بيان مهمة رسوله محمد -: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الجمعة: ٢.

ومما يؤخذ عليهم: أنهم عزلوا جماعتهم عن قضايا الأمة المصيرية والساخنة، بحجة أنهم لا يدخلون في السياسة. وأين (وحدة الأمة)، كما قررها القرآن؟ ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ المؤمنون: ٥٢. وأين قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؟ التوبة: ٧١. وأين قوله ﷺ: «المسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»؟[١] وتصويره العلاقة بين المسلم وأخيه كالبنيان يشد بعضه بعضا[٢]، أو كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، اشتكى كله؟[٣]

وأذكر: أننا التقينا مع الشيخ محمد يوسف، خليفة مؤسس الجماعة، في موسم الحج، وكان معنا الأخ السيد عبد الله المطوع (أبو بدر): رئيس جمعية الإصلاح في الكويت، وقد ناقش الشيخ طويلا، ليزحزحه عن موقفه من قضايا الأمة التي يسميها: التدخل في السياسة، فلم يتزحزح الشيخ - فيما أذكر - قيد شعرة.

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن عمرو (صحيح الجامع الصغير: ٦٧١٢).
(٢) متفق عليه عن أبي موسى.
(٣) متفق عليه عن النعمان بن بشير.

ومما يؤخذ على الجماعة: اعتبارهم الخروج للدعوة، وكأنما هو فريضة مؤكدة، وكثيرا ما يخرج الرجل ويدع تجارته لمن ينهبها، فالمال السايب يعلم السرقة، وكثيرا ما يخرج ويدع زوجته الشابة، وأطفاله الصغار، مع حاجتهم إلى رعايته ورقابته، وهذا يحتاج إلى إعادة نظر، وترك التشديد فيه، كما هو واقع الآن.

وكثيرا ما يربون أتباعهم على الاهتمام بشكليات السنة، أكثر من اهتمامهم بروحها وجوهرها.

أذكر: أني كنت مسافرا مرة، من نيودلهي إلى لاهور، وقد سافر معي شاب يمني قدم من أمريكا، ليشارك في مؤتمر جماعة الدعوة في لاهور، وقد سألني: هل أنا قادم إلى لاهور، من أجل المؤتمر؟ قلت: لا، ولكن لأمر دعوي آخر. ثم سألته عن دراسته في أمريكا، فعلمت منه: أنه يدرس الميكانيكا. وكان الشاب يحمل عصا في يمينه، فقلت له: هل تشكو من شيء؟ قال: لا، صحتي جيدة والحمد لله.

قلت له: فلماذا تحمل العصا؟ قال: إنها سنة! وأنا أستغرب: أن مثلك لا يحملها.

قلت له: أنا لا أتوكأ عليها، ولا أهش بها على غنمي، وليست لي فيها مآرب أخرى! فلماذا أحمل شيئا لا حاجة لي فيه؟

ثم قلت له: هل تحمل هذه العصا في أمريكا؟ قال: بصراحة، لا.

قلت: لأنك في أمريكا على فطرتك، فلم تجد نفسك في حاجة إلى عصا فتُمْسك بها. أما أنت هنا، فتتكلف لترضي جماعتك، وقد نهينا عن التكلف.

يا بني: إن رسول الله ﷺ، كانت له مآرب في العصا فحملها، وكان يخطب وهي في يده، فمن كانت له مآرب في حمل العصا، فإن حملها يكون سنة له، ومن لا أرب له فيها: فليس من السنة حملها.

جماعة الجهاد:

ومن فصائل الصحوة المعروفة: (جماعة الجهاد)، وهي جماعة قامت تدعو الشباب إلى الجهاد بمعناه العسكري الشائع، أي حمل السلاح في مقاومة الكفر والكفرة، وفي مقدمة هؤلاء الكفرة: الحكام الذين لم يحكموا بما أنزل الله، والذين رفضوا أحكام الشريعة، واستبدلوا بها مختارين: القوانين، والأنظمة الوضعية، المستوردة من الغرب أو الشرق.

ولقد ظهرت هذه الجماعة - أول ما ظهرت - في مصر، مصطدمة بجماعة الإخوان المسلمين: كبرى الجماعات الإسلامية المعاصرة وأسبقها، ومتهمة إياهم بأنهم تخلوا عن الجهاد، وخانوا مبدأهم الذي جعلوه شعارا لهم في أول أمرهم حين قالوا: الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا. وكم ثارت في صعيد مصر: معارك بالأيدي والعصي والجنازير أحيانا، بين شباب الجهاد وشباب الإخوان.

ولقد أشعلت هذه الجماعة: جمرة الحماس في صدور الشباب، الذي يئس من سوء الأوضاع، واكتوى ضميره بنار الحزن والأسى: على مصاير المسلمين ومستقبل الإسلام، بين جهل أبنائه، وعجز علمائه، وكيد أعدائه، وفساد أمرائه، وشح أغنيائه. وانتقل فكر الجماعة الجهادية من مصر: إلى غيرها من البلاد، وخصوصا الجزائر، الذين كان لهم ما كان - بعد إلغاء الانتخابات التشريعية الحرة النزيهة في الجزائر، واستيلاء الجيش على السلطة في البلاد -. كما استفادوا من التدريب العسكري في حرب أفغانستان: ضد السوفيت، التي باركتها كل الدول والحكومات العربية والإسلامية، ومنها الحكومة المصرية والجزائرية. ثم انضم بعض أعضائها وقادتها إلى: أسامة ابن لادن وتنظيم القاعدة، الذي ساقته معاداة الدول المختلفة - لمن سموهم (الأفغان العرب)، واعتبارهم مجرمين بعد أن وضعت الحرب مع الروس أوزارها -: إلى اتخاذ العنف سبيلا، بعد أن سدت في وجوههم كل الأبواب.

وكانت قضية فلسطين - أرض الإسراء والمعراج والقبلة الأولى - وهي القضية القديمة الجديدة، وانتصار اليهودية الصهيونية فيها: على أمة الإسلام الكبرى، وتخاذل الحكام في نصرتها، مما زاد الشعلة توقدا، وجعل الشرارة نارا محرقة.

كما كانت قضية أفغانستان، وفتح باب الجهاد فيها لمن شاء من أبناء الأمة: فرصة لدى الكثير من هؤلاء الشباب، ليمارس الجهاد عملا وكفاحا، بعد أن نادى به فكرة وشعارا.

كل هذه العوامل: ساعدت الجماعة على الانتشار، والتف حولها الشباب المتحمس المؤمن باستخدام القوة في حماية الحق، والعنف في مقاومة الطغيان المتجبر، واختلطت بعض أفكار (الجهاد) ببعض أفكار (التكفير)، وإن كان بينهما عموم وخصوص من وجه، كما يقول علماء المنطق، يلتقيان في بعض الصور، وينفرد كل منهما بمواقف خاصة به.

لهذا، كان من الخطوات المهمة: تمييز تيار الجهاد عن تيار التكفير.

كما لا بد من تمييز الحاكم الكافر كفرا بواحا، عندنا فيه من الله برهان، والحاكم العاصي - أي الفاسق أو الظالم - الذي لم يرفض شرع الله، ولكنه ضعف عن تحمل تبعته، وآثر الدنيا على الآخرة.

كما لا بد: من ضبط مسألة تغيير المنكر بالقوة، وهو الذي جاء فيه الحديث الذي رواه مسلم: «من رأى منكم منكرا: فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» وتحديد شروط التغيير بالقوة المادية، حتى لا يتورط الشباب في محاولات إزالة منكر: بالوقوع فيما هو أكبر منه.

وسنعرض - في أحد محاورنا هنا - لموضوع العنف بتفصيل، تحت عنوان (من العنف والنقمة إلى الرفق والرحمة).

ومن المهم - في استخدام القوة -: ألا نأخذ البريء بالمسيء، ولا نبيح القتل العشوائي للمدنيين العُزل، الذين لا ناقة لهم في السياسة ولا جمل، ولا عنزة ولا حمل.

وأيضا: لا بد من التركيز على التثقيف والتوعية للشباب، ليعلموا أن الجهاد ليس كله بالسيف، بل هو - كما قال ابن القيم - ثلاث عشرة مرتبة، وأن الجهاد منه: ما هو بالحجة والبيان، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴿٥١﴾ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ الفرقان: ٥١، ٥٢. والضمير في قوله: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ يعود للقرآن.

ولا بد في هذا التثقيف: أن يتعلم الشباب فن الحوار، فهو مطلوب لكل عامل في سبيل الله، وكل داع إلى الله.

ولا بد من تكامل التربية للشباب، لتكوين الشخصية المتوازنة المتكاملة: روحيا بالعبادة، وعقليا بالثقافة، وبدنيا بالرياضة، وخلقيا بالفضيلة، وعسكريا بالخشونة، وسياسيا بالوعي، واجتماعيا بالمشاركة في خدمة المجتمع.

وأعتقد: أن كثيرا من قادة الجماعة في مصر، قد أدركوا أن استخدام القوة وحدها: غير كاف في تغيير المجتمع، وإصلاحه. وقد أيدوا بعض المبادرات في نبذ العنف، وفي محاورة الحكومة، والوصول إلى تفاهم مشترك: يقرب المسافة بين الطرفين.

وفي هذا تطور كبير في فكر الجماعة، وانتقاله من مرحلة الخيال إلى الواقع، ومن التشنج إلى قبول الحوار والتفاهم. وإن كان من المؤسف حقا: أننا لا نصل إلى هذه النتيجة: إلا بعد خوض معارك دامية، وتقديم تضحيات جسيمة، ولا نستفيد من تجارب غيرنا: إلا بعد أن تبدأ كل جماعة من الصفر وتجرب بنفسها! وكأن التاريخ لا قيمة له، ولا عبرة به!

جماعة السلفيين:

ومن فصائل الصحوة: جماعة السلفيين، أو إن شئت قلت: جماعات السلفيين، فلم يعد السلفيون جماعة واحدة.

ولكن من هم السلفيون؟

فالواقع: أنه لا توجد جمعية منظمة، ينضم إليها السلفيون، فهم تيار عام لا يتمثل في جمعيات، إلا في بعض البلدان، وبعض الأحيان، كما في جماعة أنصار السنة المحمدية: في مصر والسودان، وكما في جمعية إحياء التراث الإسلامي: في الكويت.

وتعبير (السلفيين): تعبير حديث، لا أدري متى شاع استعماله بالضبط، وقد كان من قبل: يطلق على (أهل الحديث)، أو (أهل الأثر)، أو على (الحنابلة) الذين تبنوا اتجاه أهل الحديث، في مقابلة أهل الكلام في العقائد، وأهل الرأي في الفقه، وكم جرت بين الحنابلة وغيرهم ـ من الأشعرية والماتريدية ـ من خلافات ومعارك نظرية، وعملية أحيانا، على مر التاريخ.

وكان جوهر الخلاف بينهم وبين خصومهم: يتركز حول التأويل وعدمه، في آيات الصفات وأحاديث الصفات، المتعلقة بالله تبارك وتعالى، مما يوهم التشبيه بالمخلوقات، مثل قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ طه: ٥. أو نزوله تعالى في الثلث الأخير من الليل إلى سماء الدنيا، كما صح في الحديث، وكما في إثبات: اليد، والوجه، والجنب، والقَدَم، والعين، والأعين: لله تبارك وتعالى: هل تثبت هذه الأشياء، أو تفوَّض، أو تُؤَوَّل؟

أهل الأثر، أو دعاة السلف: يثبتون هذه الأشياء لله تعالى، كما أثبتها لنفسه: بلا تكييف ولا تمثيل، ولا تأويل ولا تعطيل.

وبعض السلف يقولون: نفوض معناها، ونكل تفسيرها: إلى الله تبارك وتعالى، ولا نخوض في معناها ولا تأويلها.

ومن السلفيين: من ينكر نسبة التفويض إلى السلف، مع ورود ذلك عن عدد غير قليل منهم.

وأبرز من دعا إلى السلفية ودافع عنها، وجلَّى أفكارها، وشرح توجهاتها العقدية والفقهية والسلوكية: شيخ الإسلام أبو العباس «ابن تيمية» ومدرسته، وأبرز تلاميذها الإمام أبو عبد الله بن القيم.

وقد خلَّف الشيخان تراثا هائلا: في خدمة التيار السلفي، الذي اتسم في عهدهما: بالطابع التجديدي والإصلاحي.

وفي العصر الحديث: ظهرت السلفية من جديد، على يد مجدد السلفية في الجزيرة العربية: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي اتسمت حركته بمحاربة الشركيات والقبوريات، والدعوة إلى التوحيد الخالص، وحماية حمى التوحيد من كل ما يشوبه عند الناس، بعدما ساروا وراء ابتداع الخلف، لا اتباع السلف. وتبركوا بالأشجار والأحجار، واستعانوا بغير الله، ونذروا لغير الله، وذبحوا لغير الله، وطافوا بأضرحة الأولياء، وطلبوا منهم: أن يدفعوا الضُّرَّ عنهم، ويقضوا الحاجات لهم، مما لا يجوز أن يطلب من غير الله، والذي يتنافى مع قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة: ٥.

كما تبنى الشيخ ابن عبد الوهاب: محاربة التأويل لآيات الصفات وأحاديث الصفات، فهذا أصل أصيل في الاتجاه السلفي.

وإذا كان الشيخ ابن عبد الوهاب: قد وقف ضد الشركيات والمبتدعات في مجال العقيدة والعبادة، فإنه لم يظهر له جانب تجديدي في مجال الفقه وشئون الحياة، ولعل ذلك: لأنه ظهر في بيئة بدوية، لم تدخل عليها الحضارة بتياراتها ومشكلاتها بعد، فلم يكن في حاجة ظاهرة أو ماسة: إلى إعمال العقل للاجتهاد والتجديد، وغلب على جماعته اتباع النصوص والوقوف عندها.

بل ربما: أورثت هذه النشأة الحديثة للسلفية الجديدة: نزعتها للحَرْفية في فهم النصوص الشرعية، وإهمال النظر إلى المقاصد والمعاني والعلل، التي تبنى عليها الأحكام، على خلاف ما كان عليه إماما المدرسة من قبل: ابن تيمية وابن القيم.

ومن أئمة السلفية المعاصرة: العلامة المجدد السيد محمد رشيد رضا، منشئ (مجلة المنار) وصاحب تفسير المنار وغيره من الكتب الإصلاحية، وقد تأثر كثيرا بأستاذه الإمام محمد عبده ولذلك لم يلتفت إليه السلفيون المعاصرون كثيرا، ولم يستفيدوا من مدرسته التجديدية كما ينبغي، مع أنه بحق زعيم السلفية المستنيرة.

على أن السلفيين المعاصرين: لم يعودوا جماعة واحدة، بل أمسوا أكثر من جماعة.

فهناك: جماعة السلفيين (السياسيين)، الذين يهتمون بالسياسية اهتمامهم بالعقيدة، بناء على شمول الرسالة الإسلامية، وهم الجماعة المتأثرون بفكر الإخوان المسلمين[1]، هذه الجماعة التي عارضت الوجود الأمريكي، والتدخل العسكري الأمريكي: في حرب الخليج الثانية، وعارضوا سياسة الدولة السعودية، التي تقوم على موازنات شتى. ودخلوا السجون من أجل ذلك، وضيق عليهم وعلى أتباعهم وواجهاتهم في المملكة، مثل سلمان العودة، وسفر الحوالي، وعايض القرني وغيرهم. ثم أفرجت الدولة عنهم بعد ذلك، وعادوا إلى أعمالهم الرسمية. ويبدو أنه حدث بينهم وبين المسئولين: تفاهم أو مصالحة. (والصلح خير).

---

(١) وهم الذين يسمونهم السلفيين (السروريين) نسبة إلى الداعية السوري محمد سرور زين العابدين، الذي كان من الإخوان، وانشق عليهم.

وهناك: السلفيون (الألبانيون)، الذين يتبنون نهج الشيخ المحدث «ناصر الدين الألباني»، ويحاربون المذهبية، والمذاهب الفقهية والتقليد لها، والانتماء إليها ولو من العوام، ومع هذا قلدوه في كل ما ذهب إليه، وأصبح بالنسبة إليهم مذهبا خامسا!

وهناك السلفيون (الجاميون)، وعلى رأسهم الشيخ ربيع المدخلي، وهؤلاء لا همّ لهم: إلا تجريح الآخرين والطعن فيهم، والحملة على كل العلماء والدعاة الذين يخالفونهم، ولم يسلم من طعنات رماحهم أحد: في القديم والحديث، حتى الإمام النووي، والحافظ ابن حجر، لأنهما أشعريان، وأما المعاصرون فحدِّث ولا حرج، حسن البنا، وسيد قطب والغزالي، والقرضاوي، ومحمد عمارة، وفهمي هويدي، وعلي الطنطاوي، وغيرهم، وغيرهم. كلهم مجروحون، وقد ألفت الكتب في الطعن فيهم، والتشهير بهم، وإلصاق التهم بفكرهم وسلوكهم.

وهناك أتباع الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق في الكويت، وأتباع علامة الجزيرة الشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، وإن لم يكونوا جماعات منظمة بالمعنى الاصطلاحي.

والمطلوب من الجماعات السلفية على اختلافها: أن تتحرر من الجمود على موروثاتها، والنظر إلى تفاصيلها: نظرة ناقدة ومتطورة.

وذلك: بأن تتحرر من الانشغال بالفروع والجزئيات، على حساب الأصول والكليات، ومن النظر إلى الشكل والصورة، على حساب الجوهر والروح.

ومن العناية بالمختلف فيه، على حساب المتفق عليه.

ومن النظر إلى رأيها: على أنه الصواب الذي لا يحتمل الخطأ، وإلى رأي الآخرين على أنه الخطأ الذي لا يحتمل الصواب.

ومن التمسك بحرفية النص وظاهريته، إلى النظر إلى مقاصد النصوص وسعة آفاقها.

ومن تأثيم المخالفين وتبديعهم وتكفيرهم، وهم لا يزالون ينطقون بالشهادتين.

ومن النظر إلى حصر السلفية في محاربة التأويل، إلى ما هو أوسع من ذلك في حسن فقه السلف، وعمق إيمانهم، وقوة أخلاقهم، وسعة صدورهم، وسماحة نظرتهم إلى مخالفيهم، فالسلف يمثلون خير قرون هذه الأمة: من الصحابة وتابعيهم بإحسان وأتباعهم، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وما بدلوا تبديلا.

إننا ندعو السلفيين ـ بكل فئاتهم ـ: أن ينظروا إلى سائر المسلمين أنهم إخوة لهم في الدين، وأنهم جميعا يصلون إلى قبلة واحدة، وإن اختلفوا معهم في فروع العقيدة، أو في فروع الفقه، وأنهم جميعا: هدف لأعداء الإسلام، لا يبالون بالخلافات القائمة بينهم، بل ينظرون إليهم باعتبارهم أمة واحدة، تؤمن برب واحد، ورسول واحد.

وعلى الإخوة السلفيين: أن تخلو نظرتهم عن نظرة الاستعلاء، فليس من شأن المسلم: أن يستعلي على أخيه المسلم. فالمسلم أخو المسلم، والمؤمنون إخوة. وبحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم[1].

ومما ابتلي به عصرنا: أن كثيرا من الشباب الذين قرءوا بعض الكتب، وخصوصا في علم الحديث، حسبوا أنفسهم رءوسا في العلم، وهم لم يزالوا في بداياته، وادّعوا لأنفسهم الاجتهاد في الدين، وهم لم يتقنوا علوم العربية وفنونها، ونحوها وصرفها، ولعلك لو سألتهم عن إعراب جملة لم يحسنوها! ولم يدرسوا (أصول الفقه) ويسبروا أغواره، ويتعرفوا على مشكلاته، ولم يتمرسوا بعلم الفقه ويغوصوا في بحاره، حتى تتكون لهم ملكة الفقيه الممارس المتهيئ للفهم وحسن الإدراك.

إنهم ـ كما قال الذهبي ـ: يريدون أن يطيروا ولم يريّشوا.

نعم، ويريدون أن يكونوا زبيبا، ولم يزالوا حصرما.

وأن يناطحوا الوعول، ولم تنبت لهم قرون!

إنهم يقولون عن الأئمة الكبار ـ بل عن علماء الصحابة ـ: هم رجال ونحن رجال! وهم في الواقع: لم يفتئوا في سن الحضانة، فإن تجاوزوه فهم في سن المراهقة، فما لهم يناوشون الكبار، وعظامهم لم تزل طرية؟

يا ناطح الجبل العالي ليوهنه   أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

وكثيرا ما شكا شيخنا: الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ في كتبه الأخيرة: من تطاول هؤلاء الأقزام، على عمالقة الرجال. وقديما قالوا في الأمثال: إذا أردت أن تغلب رجلا، فسلط عليه صبيا!

---

(١) من حديث رواه مسلم عن أبي هريرة.

الإخوان المسلمون:

الإخوان المسلمون: كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة، وأم الجماعات الإسلامية العاملة: لنصرة الإسلام في المنطقة العربية، وقد أصبح لها وجود وامتداد في أكثر من سبعين قطرا في العالم. وهي أولى هذه الجماعات وجودا، وأسبقها زمنا، وأطولها عمرا، فقد أسسها الإمام الشهيد حسن البنا ـ رحمه الله ـ منذ سنة ١٩٢٩م أي منذ أكثر من سبعين عاما، وهي أعرضها جمهورا وقواعد شعبية، وتاريخها في الدعوة والتربية والجهاد تاريخ حافل، وهذا كله: جلب عليها خصومات وعداوات شتى: في الداخل والخارج، حتى من بين الإسلاميين أنفسهم.

وكل من يتحدث: عن الصحوة الإسلامية، وفصائلها، وأجنحتها، ومدارسها المختلفة، لا يسعه: أن يتجاهل (الإخوان المسلمين) ودورهم في انطلاق الصحوة، وفي تغذيتها وإمدادها، وفي انتشارها واستمرارها.

ولا بدّ لكل من يسعى إلى حسن توجيه الصحوة، وترشيد مسيرتها، وتسديد خطاها على الطريق الصحيح: أن يوجه خطابه أو جزءا منه، إلى الإخوان، لقوة تأثيرهم في الصحوة وفي الجمهور الأكبر من أبنائها.

ويعرف قرائي المتابعون لكتبي: أني وجهت نقدي من قديم، إلى (الحركة الإسلامية)، وأول من يتوجه إليه النقد من عناصر الحركة الإسلامية: هم الإخوان، وذلك لسببين:

١ـ السبب الأول: أنهم يمثلون كبرى الحركات الإسلامية وأولاها، فهم إذا صلحوا ـ غالبا ـ: صلحت الحركات الإسلامية كلها.

٢ـ والسبب الثاني: أنهم الحركة التي أعرفها أكثر من غيرها، لأني نشأت فيها، وعرفت مزاياها وعيوبها، فهي أولى بنقدي ونصحي من غيرها.

وقد بدأت هذا النقد أولا في كتابي: (الحل الإسلامي، فريضة وضرورة) متحدثا عن معوقات الحركة الإسلامية من داخلها، ومنها: الجمود.

كما تحدثت في هذا الكتاب عن (الحركة الإسلامية غدا): أي في المستقبل، وماذا ننشده لها.

ثم تحدثت عن جوانب الخلل في الحركة الإسلامية: في مقالاتي التي نشرتها مجلة (الأمة) القطرية، تحت عنوان (أين الخلل؟)، ونشرت في رسالة مستقلة.

ثم تحدثت عن ذلك، في كتابي: (أولويات الحركة الإسلامية، في المرحلة القادمة).

وهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم، يسير في هذا الاتجاه: اتجاه الترشيد والتسديد للحركة الإسلامية، وللصحوة الإسلامية، وللدعوة الإسلامية.

وعلى كل فصائل الصحوة: أن تقف وقفة محاسبة ومراجعة ونقد للذات، لتعرف صوابها من خطئها، وتكتشف مواضع قوتها لتستزيد منها، ونقاط ضعفها لتتفاداها، وتحاول علاجها.

وإنما يتم ذلك: إذا عرفت هذه الفصائل كلها: أنها ليست إلا جهدا بشريا ـ غير معصوم ـ يعمل لخدمة الإسلام ونصرته، بقدر الطاقة البشرية، وفي حدود الإمكانات المتاحة.

وكل جهد بشري قابل للنقد، وقابل للتحسين، وقابل للتطوير، وخصوصا أن الوسائل تتطور، والعالم يتغير، وثوراته في العلم والتكنولوجيا والاتصالات والمعلومات تتواصل، ولا يمكن أن يظل كل قديم على قدمه، وأن نبقى ندور حول أنفسنا، والأرض تدور بنا، والفلك يسير من فوقنا.

وأنا أعلم من سيرة الإمام الشهيد حسن البنا ومسيرته: أنه لم يكن رجلا جامدا، بل كان رجلا متجددا متطورا، وكان يستفيد من كل ما يستجد من حوله، ويطور نفسه، ويطور دعوته، وما يدرينا ـ لو امتد به الأجل ـ ماذا كان يصنع؟

ولهذا: لا يجوز من إخوانه وأتباعه: الجمود على كل وسائله ومناهجه وجميع جزئيات أفكاره، ولا سيما أن فقهاء الأمة مختلفون في جواز تقليد مذاهب

الأموات من الأئمة، وأكثرهم لا يجيز تقليد الميت، إذ ما يدريك أنه لو كان حيا لربما غير اجتهاده، كما غير الأئمة كثيرا من اجتهاداتهم، وكما غير أصحابهم من بعدهم كثيرا من أقوالهم.

وكثير من الإخوان: يعزّ عليهم أن يخالفوا شيخهم وإمامهم، ولو في جزئية من الجزئيات، وكأنما يضفون على أفكاره شيئا من القداسة والعصمة، مع أنهم يحفظون من أصوله العشرين التي تركها لهم: (وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك، إلا المعصوم ﷺ). ولكن ما يحفظ شيء، وما يطبق ويمارس شيء آخر.

كما أغفل الإخوان شيئا آخر مهما، وهو أن شيخهم مات في سن مبكرة نسبيا من عمره، في الثانية والأربعين، وقد شعر في أواخر حياته: أن إخوانه تنقصهم (الثقافة المعمقة)، فأنشأ مجلة (الشهاب) لتسد هذه الثغرة، ولم يصدر منها إلا خمسة أعداد، ثم جاءت المحنة واستشهد الشيخ الإمام.

ضرورة تجديد الوسائل:

وقد ذكرت في كتابي: (أولويات الحركة الإسلامية):

أن الحركة ـ وإن كانت: إسلامية المصدر والوجهة والأهداف والمبادئ ـ تتخذ من المناهج والوسائل والأنظمة الاجتهادية: ما تراه أصلح لخدمة دينها، والتمكين له في الأرض، حسبما يقتضيه الزمان والمكان والحال.

فهذه المناهج والوسائل والأنظمة: ليست خالدة خلود الإسلام نفسه، وليس لها ثبات المبادئ والأصول الإسلامية، بل هي أدوات أثمرها الاجتهاد البشري لإحياء الإسلام وتجديده، في الأنفس والحياة.

والإمام حسن البنا، الذي وضع القواعد الأولى للعمل الحركي الجماعي المنظم، لتجديد الإسلام: لم يدع العصمة لنفسه، ولا لوسائله التي ألهمه الله الاهتداء إليها، وهي وسائل بالغة الروعة والقوة، وحُق للشهيد «سيد قطب» أن يسميها: (عبقرية البناء). وحق للمرشد الموفق الأستاذ عمر التلمساني أن يسميه: (القائد الملهم الموهوب)، وحق لشيخنا الغزالي أن يصفه بأنه: (مجدد القرن الرابع عشر

الهجري). ومع هذا يجب: أن تخضع هذه الوسائل والأنظمة للتقويم، ما بين الحين والحين، كما يفعل رجال التربية في مناهجهم التي يقررونها، ويؤلفون الكتب في ضوئها، ثم لا تمر سنوات حتى يعيدوا النظر فيها، بالإضافة أو الحذف أو بالتحوير والتعديل. وهذا أمر لازم لكل عمل بشري، مهما بلغ من الدقة والإتقان.

حسن البنا لم يكن جامدا:

وحسن البنا نفسه - كما أشرت من قبل - لم يكن جامدا، بل كان دائم التجديد والتطوير للوسائل والأساليب: في أبنية الحركة ومؤسساتها وأنظمتها.

ولن يضيق الشهيد «حسن البنا» في قبره، إذا خالفه بعض أبنائه وأتباعه في قضية من القضايا التي كان له فيها رأي من قبل، مثل قضية: عدم جواز ترجمة القرآن، أو قضية تعدد الأحزاب داخل الدولة الإسلامية، وهو ما ذهبت إليه في دراسة لي.

وكذلك إذا أضاف إلى أصوله ما يرى أنه مكمل لها. كما فعل الشيخ الغزالي في شرحه للأصول العشرين، في كتابه الذي سماه: (دستور الوحدة الثقافية للمسلمين).

ولا يوجد مانع شرعي ولا عرفي ولا عقلي: من إعادة البحث في الوسائل والأنظمة التربوية داخل الجماعة، مثل نظام الأسرة والكتيبة، وما يمكن أن يطعم به.

وكذلك البحث في الوسائل السياسية، في ضوء المستجدات والمتغيرات المحلية والإقليمية والعالمية، وما تقضي به من دخول في جبهات أو محالفات، أو مهادنات أو مشاركات، حسبما توحيه المصلحة العليا للإسلام، وللأمة، وللحركة، وفي ظل الظروف الآنية والموضعية الحاكمة، فلكل قُطر ظروفه، ولكل مرحلة حكمها، ولكل مجموعة قدراتها وضروراتها وملابساتها، التي هي أدرى بها من غيرها.

والحركة هنا - مثلها كمثل الفقه وغيره، من علوم الشريعة - لا تحيا وتنمو وتزدهر إلا بفكر المجددين المجتهدين، ولا تذوي وتنكمش وتعقم: إلا بفكر المقلدين الجامدين، إن صح أن ما عندهم يسمى (فكرا).

الجمود آفة خطرة:

إن الجمود: آفة من آفات الفكر الحركي (المؤطر)، وهو عائق من العوائق الداخلية في الحركة الإسلامية، كما بينت ذلك في كتابي: (الحل الإسلامي فريضة وضرورة)[1].

الجمود على شكل معين في التنظيم، وعلى وسائل معينة في التربية، وعلى صور معينة في الدعوة، وعلى مراحل معينة في الوصول إلى الهدف، وعلى أفكار معينة في السياسة. . . ومن حاول أن يغير من هذا الشكل أو تلك الوسيلة، أو هذه الصورة أو تلك المراحل، أو تلك الأفكار، أو يعدل فيها بالزيادة والنقص: قوبل بالرفض الشديد، أو الاتهام والتنديد.

وما زلت أؤكد: أن التجديد الذي نريده، لا يعني إلغاء القديم، بل تطويره وتحسينه وتحديثه والإضافة إليه، وبخاصة: ما يتعلق بالوسائل والأدوات والكيفيات. فهي أمور مرنة قابلة للتطوير والتحول، والاستفادة من إمكانات العصر، ومما عند الآخرين، والحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها.

ما أخشاه على الحركة:

إنّ أخشى ما أخشاه على الحركة الإسلامية: أن تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها، وأن تغلق النوافذ في وجه التجديد والاجتهاد، وتقف عند لون واحد من التفكير، لا يقبل وجهة نظر أخرى، تحمل رأيا مخالفا في ترتيب الأهداف، أو في تجديد الوسائل، أو في تعيين المراحل، أو في تقويم الأحداث والمواقف، أو في تقدير الرجال، أو في غير ذلك، مما يدخل في دائرة الاجتهاد البشري، الذي من شأنه: أن يتطور ويتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، والأحوال والعوائد.

وعندئذ تتسرب الكفايات العقلية، القادرة على التجديد والابتكار: من بين صفوف الحركة، كما يتسرب الماء من بين الأصابع، ولا يبقى في النهاية إلا المحافظون المقلدون، الذين يحبون أن يبقى كل قديم على قدمه، وأن ما نعرفه خير مما لا نعرفه، وما جربته أفضل مما لم تجربه.

---

(١) انظر: الحل الإسلامي ص٢٤٩-٢٥١ط. مؤسسة الرسالة- الثامنة.

ونتيجة هذا: أن تحرم الحركة من ثمرات العقول الكبيرة من أبنائها، وأن تصاب في النهاية بالجمود، أو العقم الذي أصاب الفقه والأدب في عصور التقليد، وأن يتقوقع هؤلاء على ذواتهم: يأسا من أي عمل مثمر للإسلام، أو يعملوا فرادى نافضين أيديهم من جدوى أي عمل جماعي، أو يحاولون مع آخرين: خوض تجربة جماعية أخرى، لا تُدرَى عواقبها.

إن من أهم ما أضرّ بالعقل المسلم قديما، وأضرّ به حديثا: شيوع تلك المقولة التي تقول: ما ترك الأول للآخر شيئا! وليس في الإمكان أبدع مما كان!

ولا ينفع العقل المسلم شيء: مثل شيوع الفكرة المضادة، التي تقول أبدا: كم ترك الأول للآخر! وكم في الإمكان أبدع مما كان! «ويخلق ما لا تعلمون».

تطور محمود لدى الإخوان:

على أن الإخوان في السنوات الأخيرة: قد تطوروا وجددوا في مواقفهم تجديدا يحكى في أكثر من قضية، وإن لم تكن كلها على وفق ما قرره الأستاذ البنا رحمه الله.

من ذلك: موقفهم من المرأة وقضاياها، ومشروعية اشتراكها في التصويت والترشيح للمجالس النيابية.

ومن ذلك: موقفهم من التعددية الحزبية والسياسية، وإقرارهم بمشروعيتها.
ومن ذلك: تعاونهم مع التيار القومي المعتدل في القضايا المشتركة، وقد اشتركوا بعدد من أفرادهم: في المؤتمر القومي الإسلامي.

وكذلك موقفهم من (العنف) ونبذهم له، كما تبين لهم من خلال تجاربهم وتجارب غيرهم: أنه لا يؤدي إلى نتيجة، فضلا عما يشوبه من تجاوزات شرعية قلما ينفك عنها.

ومن هنا: اتخذوا (النهج السلمي) في التغيير والإصلاح، مستفيدين مما تتيحه (الديمقراطية) من فرص للعمل والتعبير، والدخول في المجالس النيابية والشورية، محاولة للإصلاح من طريقها، في ظل الظروف القائمة، مطالبين بإبعاد الغش والزيف والتزوير، و(البلطجة): عن الانتخابات التشريعية، حتى تكون معبرة بحق عن إرادة الأمة.

كما دخلوا في النقابات المهنية مثل: نقابات المهندسين، والأطباء، والصيادلة، والمحامين، والصحفيين، وغيرها، وفي أندية أساتذة الجامعات.

ومع هذا التطور المحمود: تظل حركة الإخوان مطالبة بالتجدد والنماء أبدا، ومن مظاهر ذلك:

١ـ أن يقدموا الولاء للإسلام، على الولاء للجماعة.

٢ـ أن يقدموا العمل للدعوة، على العمل للتنظيم.

٣ـ الترحيب بالأفكار الجديدة، وإن لم يكن للجماعة سابق عهد بها.

٤ـ زيادة التفاهم مع التيارات الأخرى، وإن كانت مخالفة.

٥ـ أن يفكروا بجدية في تجديد الوسائل بحسب ظروف المرحلة.

٦ـ ألا يتقوقعوا على أنفسهم، وتستغرقهم الأفكار المحلية، وقد أصبحوا حركة عالمية.

٧ـ ألا يستهلكهم العمل السياسي، ففي مجالات العمل الاجتماعي والثقافي والتربوي والاقتصادي وغيرها: متسع للجهود والطاقات الموجودة، والتي لا تكاد توظف فيما ينفعها وينفع أمتها.

٨ـ أن يضعوا من المناهج: ما يعمق ثقافة أفراد الجماعة الشرعية والعامة، ويقيمها على أصول راسخة، ويغرس فيهم حب التجديد، وروح المحاسبة والنقد للذات، والحوار مع الآخر، والتسامح مع المخالفين.

وأعتقد: أن الإخوان لديهم الاستعداد لتقبل هذا كله، ولو بالتدريج، بدليل أنهم جميعا يقرءون كتبي، ويرحبون بها، بل يوصون بقراءتها، على ما تحويه من نقد.

على أن الذي نأسى له ونأسف: أن الحكومات المصرية، لا تقدر توجه الإخوان إلى التغيير السلمي، وتقاومهم مقاومة شرسة: تتمثل في الحصار والتضييق والتنكيل والاعتقالات والمحاكمات العسكرية المتعسفة، مما لا أجد له في الحقيقة مبررا، إلا التحبيذ لإنشاء جماعات العنف، التي تختفي حينا، لتظهر في شكل جديد، وباسم جديد.

٧- من التعصُّب والانغلاق

إلى التسامح والانطلاق

ما معنى التعصب؟

التعصب: مصدر تعصَّب فهو متعصِّب.

وأصل المادة: يدور حول (الشدّ) و(الشدة). يقال: عصب رأسه بالعمامة، أي شدها، وفي القرآن: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ هود: ٧٧. أي يوم شديد. والعصابة أو العصبة: جماعة يشد بعضهم بعضا، ومنه (عصَبَةُ الرجل): قرابته من أبيه.

ويقال: عَصَبَته السنون: أي أكلت ماله، أو عصبه الجوع: أي اشتد عليه.

ويقال: تعصب فلان: أي شد العصابة، أو كان ذا عصبية، وتعصب القوم عليهم: أي تجمعوا، وتعصب له أو منه: نصره وشد أزره.

ومن هذا: يتبين لنا أن استعمال كلمة (تعصب)، في مقابل كلمة (تسامح): لم يكن شائعا في الاستعمال العربي.

ولكن أخذ هذا المعنى من (تعصب فلان): إذا كان (ذا عصبية). فالعصبية مذمومة شرعا، ممقوتة في الإسلام، وفي الحديث: «ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية، أو مات على عصبية»[1].

وفي صحيح مسلم، ومسند أحمد؛ عن أبي هريرة: «من قتل تحت راية عَمّية، ينصر عصبية، أو يغضب لعصبية: فقتْلَتُه جاهلية»[2].

قال ابن الأثير: العصبيّ: الذي يغضب لعصبته، ويحامي عليهم. والتعصّب: المدافعة والمحاماة.

---

(١) رواه أبو داود عن جبير بن مطعم وإسناده ضعيف.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه عن جندب بن عبد الله البجلي (١٨٥٠) ورواه أحمد أيضا، كما رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، كما في صحيح الجامع الصغير (٦٤٤٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: بيّن بهذا الحديث: أن تعصب الرجل لطائفة مطلقا: فعل أهل الجاهلية، محذور ومذموم، بخلاف منع الظالم وإعانة المظلوم، من غير عدوان، فإنه حسن، بل واجب، فلا منافاة بين هذا وبين خبر «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» ذكره المناوي في فيض القدير[1].

والعرب في الجاهلية، قد عُرفوا بتعصّب الرجل لقبيلته في الحق والباطل، والعدل والظلم، وقد قيل عن أحد زعمائهم: أنه إذا غضب غضب: له عشرة آلاف سيف، لا يسألونه: فيم غضب؟

وكان شعارهم: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما): على ما يفهم من ظاهرها، قبل أن يعطي الرسول ﷺ مفهوما جديدا: لنصرة الأخ ظالما، وهو: أن تأخذ على يديه تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره. أي نصرته على هواه، وعلى شيطانه، وعلى دوافع الشر بين جنبيه.

ومن هنا يكون معنى التعصب المذموم: أن تكون ذا عصبية عمياء، لعقيدتك أو لمذهبك، أو لفكرتك ورأيك، أو لقومك وطائفتك، بحيث لا تقبل أي حوار مع من يخالفك: في الأصول أو في الفروع، وأن تغلق الأبواب والنوافذ: في وجه كل من يقترب منك، إلا أن تحاورهم بالسيف.

ليس من التعصب:

إن تحديد المفهوم بجلاء هنا: أمر جد مهم، فإن من الناس من يعتبر كل من يتمسك بدينه متعصبا، وخصوصا: إذا كان يتمسك بالآداب التي يتركها الكثير من الناس، مثل إطلاق اللحية للرجال، والخمار أو النقاب للنساء.

ورأيي: أن هذا ليس من التعصب في شيء، إذا كان قد اقتنع من أعماق قلبه بالحكم الشرعي، الذي انتهى إليه في هذا الموضوع، ولا يجوز لنا: أن نلزم إنسانا ـ اقتنع بوجوب إعفاء اللحية، أو حتى مجرد سنيتها واستحبابها ـ: بتركها لمجاراة الناس، أو لكيلا يعتبره الناس متعصبا.

---

(١) فيض القدير (٥/ ٣٨٦).

ومثل ذلك المسلمة التي اقتنعت عن طريق القراءة، أو السماع من بعض العلماء: أن لبس النقاب واجب شرعا، وأن تركه إثم، فلا يسوغ لنا: أن نلزمها بتحمل الإثم، وترك الواجب عليها.

إنما نلومها ونصفها بالتعصب: إذا أرادت أن تفرض رأيها على كل من يخالفها، وتتهمه بارتكاب المعصية، وبضعف الدين، لأن الأخرى أو الأخريات من أخواتها المسلمات: اقتنعن بالرأي الآخر، الذي يرى أن الفرض: هو لبس الخمار، الذي قال الله في شأنه: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ النور: ٣١. وأن النقاب قد يكون مستحبا، ولكنه ليس واجبا، وعلى ذلك أدلة كثيرة.

فالتعصب: هو أن يغلق الإنسان عقله على فكرة معينة، ولا يسمح لنفسه بفتح أي نافذة للحوار مع مخالفيه في العقيدة، أو في الفكر، أو في الرأي الفقهي، أو السياسي، ولا يسمح بنقد نفسه أو مراجعتها: مرة واحدة، بل رأيه دائما هو الصواب، الذي لا يحتمل الخطأ، ورأي غيره هو الخطأ، الذي لا يحتمل الصواب.

ليس من التعصب إذن: أن يثبت المرء على دينه، وأن يعتصم بحبله المتين، وإلا، لكان كل متدين متعصبا، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الزخرف: ٤٣. ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ النمل: ٧٩. وقال تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ آل عمران: ١٠٢، ١٠٣.

من دلائل التعصب المقيت:

المتعصب: إنسان لا يرى إلا ذاته، ولا يسمع إلا قول نفسه، ولا يؤمن بأحد غيره، أو غير فرقته وجماعته التي ينتمي إليها، فمنها يبدأ، وإليها ينتهي، فهو مغلق الذهن والنفس: عن (الغير)، وكل الناس (غير): ما عدا إياه وفرقته التي منحها عقله وشعوره وولاءه، فهي التي تفكر له، وتحدد له من يحب ومن يكره، وعمن

يرضى وعمن يسخط، دون أن يعطي نفسه حق التأمل في هذه المقولات أو الامتحان لها، أو مناقشتها، فهذا كفر، أو سبيل إلى الكفر المؤدي إلى البوار، جهنم يصلاها وبئس القرار.

وقد رأينا هذا التعصب: عند كثير من الناس في شتى الأعصار والأقطار.

حكى القرآن لنا عن تعصب المشركين من قريش وغيرهم: في وجه دعوة محمد ﷺ، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ فصلت: ٥. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فصلت: ٢٦.

ويبلغ من تعصبهم ما حكاه القرآن عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الأنفال: ٣٢، وكان مقتضى العقل، أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا إليه، ووفقنا لاتباعه!

وأحيانا: لا يعترضون على الدعوة ومضمونها، ولكن على الداعي: أنه ليس من ذوي الثراء والجاه، الذين يعتبرونهم عظماء عندهم ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الزخرف: ٣١.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ الفرقان: ٤١، ٤٢.

إنه التقليد الأعمى، الذي أصم أسماعهم وأعمى أبصارهم، وأغلق عقولهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٧٠، ١٧١.

وحدثنا القرآن كذلك: عن اليهود وموقفهم من الدعوة الإسلامية، وكيف كانوا يتوقعون مبعث الرسول ويرتقبونه، وكانوا يحسبونه من بني إسرائيل، فلما ظهر أنه

من بني إسماعيل: كفروا به وحاربوه، يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ البقرة: ٨٩-٩١.

وقال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ البقرة: ١٠٩.

وتحدث عن اليهود والنصارى، فقال: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ البقرة: ١١١، ١١٢. فطالبهم بإثبات دعاواهم بالبرهان، فكل دعوى لا يقوم البرهان على صحتها: فهي مرفوضة.

وقد علمنا القرآن: أن ننصف أهل الكتاب، فلا نعمم الحكم: إذا كان فيهم الصالحون والخيرون، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ آل عمران: ١١٠.

وقال بعد ذلك: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ آل عمران: ١١٣، ١١٤.

وفي مقام آخر قال: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ آل عمران: ٧٥.

فانظر: كيف ميّز بين الفريقين بوضوح: الذين يؤدون الأمانات وإن كبرت، والذين يأكلون الحقوق ولا يبالون، مستحلين أموال (الأغيار)، كما هي تعاليم التلمود، التي تستبيح الآخرين، وتجعلهم وأموالهم وذراريهم ونساءهم: غنيمة حلالا لليهود.

وهذه النظرات المتعصبة: هي ينبوع الشر والفساد والحروب، في العالم: رفض الآخر، وإلغاؤه، واستباحته، وخصوصا إذا كان مخالفا في الدين والعقيدة.

من دلائل التسامح، والتحرر من التعصب:

وإذا كان ما ذكرنا: يشير إلى التعصب الأعمى، والانغلاق على الذات، ورفض الآخرين بالكلية، فإننا في حاجة إلى عكس هذا الموقف المتشنج الرافض للآخر، والمعادي له من أول الأمر.

أجل، إننا في حاجة إلى موقف التسامح، الذي يفتح النوافذ على الآخر، ولا يقف موقف المعاداة من كل المخالفين. إنه التسامح الديني، والتسامح الفكري، والتسامح السياسي، الذي يسع الناس: وإن اختلفوا بعضهم مع بعض.

التسامح الديني:

ونصوص ديننا العظيم: تشرع هذا التسامح، ولا سيما التسامح الديني، بل تحثّ عليه وترغّب فيه. وتاريخ المسلمين حافل بوقائع هذا التسامح، وقد كان شيخنا محمد الغزالي - رحمه الله - يقول: إن التسامح في الدين: اختراع إسلامي، أي لم يعرفه الناس بهذه الصراحة، وهذه القوة عند غير المسلمين.

وقد اعترف مؤرخو الغرب أنفسهم: بتسامح المسلمين، الذي لم يكن له نظير، كما وجدنا ذلك عند «توماس أرنولد» في كتابه: (الدعوة إلى الإسلام) و«غوستاف لوبون» في كتابه: (حضارة العرب) و«آدم متز» في كتابه: (الحضارة الإسلامية، في القرن الرابع الهجري) وغيرهم.

الحوار الإسلامي المسيحي:

ومن مجالات هذا التسامح الديني: قبول دعوة الحوار الإسلامي المسيحي، إذا اتضحت أهدافها، وتحدد مفهومها، وكان المحاورون المسلمون فيها: من الراسخة أقدامهم في الدين والعلم.

فلا بد أولا: من الاتفاق على هدف هذا النوع من الحوار، وقد سئلت عن ذلك، في المجلس الأوربي للإفتاء والبحوث: عن التقريب بين الأديان ومشروعيته، فكان جوابي: أن التقريب، منه ما هو مرفوض وما هو مقبول. فأما المرفوض، فهو الذي يراد منه: التذويب للفوارق الجوهرية بين الأديان، مثل التوحيد في الإسلام والتثليث في النصرانية، والتنزيه في الإسلام والتشبيه في اليهودية، فإن أي مؤمن بدين: لا يمكنه أن يتنازل عن الأساسيات في دينه، إلا من باب النفاق والتزييف، وهو ما لا يجوز في حوار جاد بين الممثلين للأديان الكتابية الكبرى.

فسيظل الإسلام إسلاما، والمسيحية مسيحية، ولكل منهما مقوماته وخصائصه، وأركانه وأسسه.

ولكن الحوار مسموح به، بل مطلوب في الدين عندنا: نحن المسلمين. فنحن مأمورون بالحوار، وهو جزء من منهج الدعوة عندنا، إذ يقول القرآن: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل: ١٢٥. فهذا الجدال بالتي هي أحسن: هو الحوار المنشود.

وكثير من المسلمين: يخافون من الحوار مع المخالفين، وكأنهم يخشون أن يتنازل الجانب المسلم عن عقيدته أو شريعته أو قيمه. وهو ما لا يتصور من مسلم صحيح الإسلام، راسخ الإيمان، رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا ورسولا.

ويحسن بي: أن أنقل هنا بعض الفقرات، التي ذكرتها في خطابي في (المؤتمر الإسلامي المسيحي)، الذي عقد في روما، واعتبر بمثابة قمة إسلامية مسيحية، ومما قلت فيه:

علاقة المسلم بغير المسلم:

إن الإسلام: يعتبر البشرية كلها أسرة واحدة، تشترك في العبودية لله، والبنوة لآدم، وهذا ما أعلنه رسول الإسلام، أمام الجموع الحاشدة في حجة الوداع: «أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»[1].

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

ثم إن الإسلام: قد حدد العلاقة مع غير المسلمين، في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران: بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الممتحنة: ٨، ٩.

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن المشركين الوثنيين، ولكن الإسلام أفرد (أهل الكتاب) بمعاملة خاصة، حتى أجاز مصاهرتهم والتزوج من نسائهم، ومعنى هذا أنه أجاز للمسلم أن تكون زوجته وشريكة حياته، وأم أولاده كتابية (مسيحية أو يهودية). ومقتضى هذا أن يكون أهلها أصهاره، وهم كذلك أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وأولاد أخوالهم وخالاتهم، وهؤلاء لهم حقوق أولي الأرحام وذوي القربى.

كما أن الإسلام اعتبر النصارى أقرب مودة للمسلمين من غيرهم، يقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ المائدة: ٨٢. كما قال نبي الإسلام أيضا: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة»[١].

نؤمن بالحوار:

إننا - نحن المسلمين - نؤمن بالحوار، لأننا مأمورون به شرعا، وقرآننا مليء بالحوارات بين رسل الله وأقوامهم، بل بين الله تعالى وبعض عباده، حتى إنه سبحانه حاور شر خلقه إبليس.

ولهذا: نحن نرحب بثقافة (الحوار) بدل ثقافة (الصراع)، سواء بين الحضارات أم بين الديانات.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة. (اللؤلؤ والمرجان: ١٥٢٦).

ولا نوافق على منطق بعض المثقفين الغربيين عامة، والأمريكيين خاصة الذين يؤمنون بحتمية الصدام بين الحضارات، وخصوصا بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية.

ولماذا لا تتفاعل الحضارتان وتتكاملان، ويقتبس كل منهما من الآخر ما تفوق فيه؟

ماذا نريد من الغرب؟

إننا نريد من الغرب: أن يتحرر من عقدة الخوف من الإسلام، واعتباره الخطر القادم، (الخطر الأخضر) كما سماه بعضهم، وترشيحه ليكون العدو البديل بعد سقوط (الخطر الأحمر) الاتحاد السوفيتي الذي سماه ريجان: (دولة الشر). وبعد التقارب مع الخطر الأصفر (الخطر الصيني).

كما نريد من الغرب: أن يتحرر من عقدة الحقد القديمة الموروثة من الحروب التي سماها الغرب: (صليبية) وسماها مؤرخونا: (حروب الفرنجة). فنحن أبناء اليوم لا بقايا الأمس، ولسنا الذين بدأنا هذه الحروب، بل نحن الذين شنت عليهم.

ونريد منه كذلك أن يتحرر من نظرة الاستعلاء، التي ينظر بها إلى العالم نظرة السيد إلى عبده، فهذه النظرة من شأنها: أن تثير الآخرين وتستفزهم.

مجالات مشتركة للتعاون الإسلامي المسيحي:

ونحن لدينا مجالات مشتركة يمكننا أن نلتقي عليها، ونتفاهم حولها، ونتعاون على توسيعها وتعميقها.

التركيز على القواسم المشتركة:

١- التركيز على القواسم المشتركة بيننا وبين أهل الكتاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤٦.

ففي مجال التقريب والحوار بالتي هي أحسن: ينبغي ذكر نقاط الاتفاق، لا نقاط التمايز والاختلاف.

وهناك من المسلمين المتشددين: من يزعم أنه لا توجد بيننا وبين اليهود والنصارى أية جوامع مشتركة، ما دمنا نحكم عليهم بالكفر، وأنهم حرفوا وبدلوا كلام الله.

وهذا فهم خاطئ للموقف الإسلامي من القوم. فلماذا أباح الله تعالى مؤاكلتهم ومصاهرتهم؟

ولماذا حزن المسلمون حين انتصر الفرس ـ وهم مجوس يعبدون النار ـ على الروم، وهم نصارى أهل كتاب؟ حتى أنزل الله قرآنا يبشر المسلمين بأن الروم سينتصرون في المستقبل القريب ﴿ **غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ** ﴾ الروم: ٢-٥ كما جاء في أول سورة الروم.

وهذا يدل على أن أهل الكتاب ـ وإن كفروا برسالة محمد ﷺ ـ أقرب إلى المسلمين من غيرهم من الجاحدين أو الوثنيين.

التعاون لمواجهة الإلحاد والإباحية:

٢ـ الوقوف معا: لمواجهة أعداء الإيمان الديني، ودعاة الإلحاد في العقيدة والإباحية في السلوك، من أنصار المادية، ودعاة العري، والتحلل الجنسي والإجهاض والشذوذ الجنسي، وزواج الرجال بالرجال، والنساء بالنساء.

فينبغي أن يقف أهل الكتاب في جبهة واحدة، ضد هؤلاء الذين يريدون دمار البشرية بدعاواهم المضللة، وسلوكياتهم الغاوية، وأن يهبطوا بها من أفق الإنسانية، إلى درك الحيوانية: ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ④③ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** ﴾ الفرقان: ٤٣، ٤٤.

وقد رأينا الأزهر في مصر، ورابطة العالم الإسلامي في مكة، وجمهورية إيران الإسلامية، والفاتيكان في روما يقفون في (مؤتمر السكان) في القاهرة سنة

١٩٩٤م، وفي مؤتمر المرأة في بكين ١٩٩٥م في صف واحد، لمواجهة دعاة الإباحية.

مناصرة قضايا العدل والشعوب المستضعفة:

٣ـ الوقوف معا لنصرة قضايا العدل، وتأييد المستضعفين والمظلومين في العالم، مثل قضية فلسطين والبوسنة والهرسك، وكوسوفا، وكشمير، واضطهاد السود والملونين في أمريكا وفي غيرها، ومساندة الشعوب المقهورة: ضد الظالمين والمستكبرين في الأرض بغير الحق، الذين يريدون: أن يتخذوا عباد الله عبادا لهم.

فالإسلام يقاوم الظلم، ويناصر المظلومين، من أي شعب، ومن أي جنس، ومن أي دين، بل يحث على القتال من أجل استنقاذ هؤلاء المستضعفين، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا** ﴾ النساء: ٧٤.

والرسول ﷺ ذكر حلف الفضول، الذي شارك فيه في شبابه في الجاهلية، وكان حلفا لنصرة المظلومين، والمطالبة بحقوقهم، ولو كانت عند أشراف القوم وسراتهم. وقال ﷺ « لو دعيت إلى مثله في الإسلام أجبت »[١].

إشاعة روح التسامح لا التعصب:

٤ـ ومما ينبغي أن تتضمنه هذه الدعوة: إشاعة روح السماحة والرحمة والرفق في التعامل بين أهل الأديان، لا روح التعصب والقسوة والعنف.

فقد خاطب الله تعالى رسوله محمدا بقوله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

وقال ﷺ عن نفسه: « إنما أنا رحمة مهداة »[٢].

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة كما في ابن هشام (١/ ٢٩) من الطبعة الجمالية.
(٢) الحاكم عن أبي هريرة (١/ ٣٥) صححه الحاكم ووافقه الذهبي، تفسير ابن كثير (٣/ ٢٠١، ٢٠٢).

وذمّ بني إسرائيل بقوله ـ في مخاطبتهم ـ: ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ البقرة: ٧٤.

وقال لزوجه عائشة: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[(١)].

الأساس العقائدي لتسامح المسلم مع مخالفيه:

وأحبّ أن أعرض هنا لقضية حساسة لدى كل ذي دين، فهو يعتقد أنه على حق، وأن غيره على باطل، وأنه هو الذي يملك الهدى، ولا يملكه غيره، وهذا الاعتقاد قد يؤدي إلى التعصب. ولكن هناك عناصر أخرى مهمة، تخفف من هذا الأمر في فكر المسلم وضميره.

١ـ أنه يعتقد أن اختلاف البشر في أديانهم: واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود: ١١٨، ١١٩، أي خلقهم ليختلفوا مادام قد منح كلا منهم العقل والحرية والإرادة. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٩٩.

٢ـ أن الحساب على ضلال الضالين، وكفر الكافرين: ليس في هذه الدنيا، ولكن في الآخرة، وليس موكولا إلينا، ولكن إلى الله الحكم العدل، واللطيف الخبير. كما قال تعالى لرسوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ الشورى: ١٥.

٣ـ اعتقاد المسلم بكرامة الإنسان من حيث هو إنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠. وفي هذا روى البخاري عن جابر: أن النبي ﷺ مروا عليه بجنازة، فقام لها واقفا، فقالوا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي! فقال: «أليست نفسا» بلى، فما أعظم الموقف، وما أروع التعليل!

---

(١) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان عن عائشة (١٤٠٠).

٤ـ إيمان المسلم بأن عدل الله لجميع عباد الله: مسلمين وغير مسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٨. وبهذا: لا يتحيّز المسلم الحق لمن يحب، ولا يحيف على من يكره. بل يؤدي الحق لأهله، مسلما أو غير مسلم، صديقا أم عدوا.

التسامح مع المواطنين غير المسلمين:

وأهم من التسامح مع أهل الكتاب من الغربيين، وغيرهم من المخالفين في الدين: التسامح مع المخالفين من غير المسلمين الذين يساكنوننا الوطن، ويشاركوننا سراءه وضراءه، ممن يسميهم الفقهاء: (أهل الذمة) تمييزا لهم عن (أهل الملة). ومعنى (الذمة): العهد والضمان، على معنى أنهم في ضمان الله ورسوله، وجماعة المسلمين.

وقد نص الفقهاء: على أن أهل الذمة من (أهل دار الإسلام) وتعبير (أهل الدار) يعني: ما نعبّر عنه بلغتنا المعاصرة: أنهم مواطنون، فلهم حق المواطنة بكل لوازمه كالمسلمين، وقد فصلنا هذا بأدلته وأمثلته في كتابنا: (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي).

ولقد ذكرت في بعض ما كتبت من قبل: أن تعبير (أهل الذمة) إذا كان لا يعجب إخواننا المسيحيين داخل الوطن الإسلامي، أو يتأذون منه: فلا حرج علينا أن نحذفه، فقد حذف سيدنا عمر ما هو أهم منه، لاعتبارات مصلحية شرعية رآها، حين عرض عليه عرب بني تغلب وكانوا نصارى: أن يحذف كلمة (الجزية) من تعاملهم، ويسمي ما يأخذه منهم صدقة أو زكاة، ولو كان أكثر مما يأخذ من المسلمين، وقالوا: إننا عرب نأنف من كلمة (جزية)! وقبل منهم ذلك، وقال: هؤلاء قوم حمقى، رضوا بالمعنى وأبوا الاسم!

والنصارى العرب ـ في أوطاننا العربية ـ لهم وضع خاص، لأنهم يشاركوننا الثقافة العربية التي اندمجت في الإسلام، وامتزجت به امتزاج الجسم بالروح. فهم مسلمون بالثقافة والحضارة، وإن لم يكونوا مسلمين بالديانة والعقيدة.

وقد أنكر عليَّ بعضُ المتشددين أو المتعصبين من المسلمين: أني أقول أحيانا: إخواننا الأقباط في مصر. وقالوا: إنما الأخوّة هي الأخوة الدينية وحدها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات: ١٠ .

وقلت لهم: الأخوة الدينية لها مكانتها ورتبتها العليا، ولكن هذا لا ينفي وجود أخوّات أخرى، منها: الأخوة الوطنية والأخوة القومية. وهذا ما نص عليه القرآن حين قال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الشعراء: ١٠٥، ١٠٦ . فأثبتت الآية أخوتهم لنوح، برغم تكذيبهم له وكفرهم به، لأنه واحد منهم، ولهذا كان يقول لهم: (يا قوم). وكذلك ذكر القرآن عن هود وقومه عاد، وصالح وقومه ثمود، ولوط وقومه.. إلخ. ولكن في هذه السورة قال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الشعراء: ١٧٦، ١٧٧ . فلم يقل: (قال لهم أخوهم شعيب) لأنه لم يكن منهم، إنما كان من مدين، ولذا قال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ هود: ٨٤. فدل هذا على أن للأخوة القومية اعتبارها.

التسامح الفكري:

وكما أن التسامح الديني مطلوب: لترطيب الأجواء بين أبناء البشر، الذين خلقهم الله من ذكر وأنثى، وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، وللتقريب بين أبناء الوطن الواحد، وإن اختلفت ديانتهم.

فإن من المطالب المهمة إشاعة (التسامح الفكري) بين أصحاب الاتجاهات الفكرية المختلفة، ولا سيما بين أهل الاعتدال منهم، بحيث يحاور بعضهم بعضا، ويسع بعضهم بعضا، ويبحثوا عن الجوامع المشتركة، ليلتقوا عندها، وعن العدو المشترك ليواجهوه معا في جبهة واحدة، وصف متراص كالبنيان المرصوص.

وهذه السماحة الفكرية التي تنبئ عن أفق رحب، تلزمها وتتممها سماحة نفسية وخلقية، فأرباب الأنفس الضيقة، والصدور الضيقة، لا يمكنهم تقبل الآخرين ممن يخالفهم، ولا يحبون إلا أن يبقوا على الساحة وحدهم.

وأود أن أؤكد هنا ما دعوت إليه، وأصررت عليه، في عدد من كتبي[1]، وهو ضرورة الحوار مع الفئات المختلفة في الخارج والداخل.

لقد دعوت إلى الحوار مع الغرب: على المستوى الديني مع الكرادلة والأساقفة ورجال الدين.

وعلى المستوى الفكري: مع المستشرقين والكُتَّاب والمفكرين المعنيين بالشرق الإسلامي، والحضارة الإسلامية، والأمة الإسلامية، والصحوة الإسلامية.

وعلى المستوى السياسي: مع صناع القرار، ممن يستطيع الوصول إليهم والتحدث معهم، وتغيير مفاهيمهم المغلوطة عن ديننا وأمتنا وتطلعاتنا.

كما دعوت إلى الحوار مع العقلاء من الحكام: لتضييق الفجوة بينهم وبين الإسلاميين، أو سدها نهائيا لو أمكن.

وكذلك: الحوار مع المعتدلين من القوميين: بغية الوصول إلى قاسم مشترك، وهدف مشترك، ولا سيما في قضية العرب والمسلمين الأولى، وهي: قضية فلسطين، قضية القدس، قضية الأقصى، ومقاومة تيار التطبيع المشبوه.

والحمد لله أن انتهى هذا الحوار إلى قيام (المؤتمر القومي الإسلامي) الذي أثبت وجوده على الساحة الثقافية والسياسية، وعقد عدة دورات، وكنت من أعضاء اللجنة التحضيرية التي شاركت في إعداد الورقة الأساسية من جانب الإسلاميين[2].

ومن دلائل التسامح والانطلاق والتحرر من التعصب والانغلاق ما يأتي:

النظر إلى القول لا إلى قائله:

من دلائل التحرر من التعصب: النظر إلى القول لا إلى قائله.

فمن الناس من يعرض عليه القول أو الرأي فيرده، وينأى بجانبه عنه، فإذا قيل له: إن هذا قول الإمام الذي يقلده، أو المذهب الذي يتبعه، أو الفرقة التي ينتسب

---

(١) وخصوصا كتابي (أولويات الحركة الإسلامية) فليراجع.

(٢) شارك في إعدادها: الإخوة: محمد عمارة، ومحمد سليم العوا، وفهمي هويدي، وأحمد صدقي الدجاني.

إليها، فسرعان ما يغير موقفه، وينقلب من رفض إلى قبول، ومن قدح إلى مدح، معتذرا بأساليب شتى عما صدر عنه من قبل!

وهذا ما شكا منه الإمام الغزالي وغيره من الأئمة النقاد. وهو ثمرة للتقليد أو للتعصب الذي ينظر إلى الأشخاص والطوائف، دون أن يركز على الرأي نفسه وماذا فيه من صواب وخطأ، بغض النظر عمن قاله.

يقول الإمام ابن الجوزي في كتابه القيم (تلبيس إبليس):

« اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد، وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة. واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم التفحص عن أدلة إمامهم، فيتبعون قوله، وينبغي النظر إلى القول لا إلى القائل، كما قال علي - رضي الله عنه - للحارث بن عبد الله الأعور بن الحوطي، وقد قال له: أتظن أن طلحة والزبير كانا على الباطل؟ فقال له: يا حارث! إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله» .[1]

وهنا يمكن أن نأخذ من كل فقيه، أو متكلم، أو صوفي، أو أثري: أصوب ما قاله، بصرف النظر عن انتمائه. وكذلك نأخذ من المذاهب والطوائف أفضل ما عندها مما نراه أدنى إلى الحق، وأبعد عن الباطل.

قال المحقق ابن القيم - رحمه الله - في كتابه طريق الهجرتين: « إن عادتنا في مسائل الدين كلها، دقِّها وجلّها، أن نقول بموجبها، ولا نضرب بعضها ببعض، ولا نتعصب لطائفة على طائفة، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق، لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك ونموت عليه، ونلقى الله به، ولا قوة إلا بالله »[2].

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٥٧ .

(٢) طريق الهجرتين.

الاعتراف بالخطأ:

ومن دلائل التحرر من التعصب: الاعتراف بالخطأ، والرجوع عنه جهرة بشجاعة وصراحة، وقد قال أمير المؤمنين عمر في رسالة لأبي موسى الأشعري في القضاء: «ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم، فراجعت فيه رأيك، فهديت فيه لرشدك: أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل»[1].

إن الإنسان المؤمن لا يتعصب لرأي غيره، ولا لرأي نفسه، وهو أسرع الناس فيئا إلى الصواب متى تبين له، فليس في الحق كبير، والحق أحق أن يتبع.

وكم رأينا من علماء كبار رجعوا عن آرائهم حين ظهر لهم خطؤها، أو ضعفها.

ناقش عبد الرحمن بن مهدي - الإمام المحدث المعروف - الفقيه القاضي عبيد الله بن الحسن العنبري، في مسألة، فبيّن له أنه أخطأ فيها، فقال الفقيه الشجاع المنصف: إذن أرجع وأنا صاغر، ولأن أكون ذنبا في الحق، خير من أن أكون رأسا في الباطل![2]

وقد رجع الإمام أبو يوسف - أكبر أصحاب الإمام أبي حنيفة، وقاضي الرشيد - عن بعض الآراء التي كان يقول بها من قبل، ويقول بها شيخه أبو حنيفة، حين أطلعه الإمام مالك على دلائل واعتبارات، وجد فيها ما أقنعه بضعف رأيه الأول، فأعلن رجوعه بصراحة، قائلا: لو رأى صاحبي ما رأيت لقال بمثل ما قلت!

وكذلك صاحبه: الإمام محمد بن الحسن الشيباني.

ومثل ذلك رأيناه عند الإمام محمد بن إدريس الشافعي، الذي عدل عن كثير من آرائه القديمة - قبل قدومه إلى مصر - إلى آراء أخرى، بعد أن رأى في مصر ما لم يكن قد رأى، وسمع من الآثار ما لم يكن قد سمع، وظهر له من الاعتبارات ما لم يتضح له من قبل، وبهذا غدا له مذهبان: قديم وجديد، وعرف في مذهبه: قال الشافعي في القديم، وقال في الجديد!

---

(١) إعلام الموقعين ج١ ص٨٦ ط. السعادة، مصر بتحقيق محيي الدين عبد الحميد.
(٢) انظرها في ترجمته في (تهذيب التهذيب) لابن حجر (٧/٣) طبعة مؤسسة الرسالة - بيروت.

الترحيب بنقد الآخرين:

ومما يتبع ذلك التحرر: ألا يضيق صدره بالنقد يوجه إليه من الآخرين، بل يرحب به، ويفتح له سمعه وقلبه، وإن كان الآخرون قد لا يريدون بالنقد وجه الله، بل يريدون التشويش عليه، والتشهير به، فهو يستفيد منهم مراجعة نفسه، وتقويم فكره وعيوبه وأخطائه.

ويُنسب إلى الإمام الشافعي قوله:

عداتي لهم فضل عليّ ومنة ... فلا باعد الرحمن عني الأعاديا!

فهم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... وهم نافسوني فارتكبت المعاليا!

وإذا كان المسلم ـ من الإخلاص والشجاعة ـ بحيث يعترف بالخطأ إذا تبين له، ويعلن رجوعه عنه على الملأ، ويسجله على نفسه، كما فعل الأئمة، وأصحابهم وكبار العلماء والمجتهدون، فمثله لا يضيق ذرعا بنقد الناقدين، ونصح الناصحين.

كل ما هو مطلوب: أن يكون النقد موضوعيا، وأن يبنى على معايير صحيحة، وأن يكون هدفه البناء لا الهدم، والنصيحة لا التشهير، وغايته نشدان الصواب والكمال والأكمل أبدا، وذلك بالدلالة على الصواب في مقابل الخطأ، والراجح في مقابل المرجوح، والأحسن في مقابل الحسن، فقد وصف الله عباده المهديين بقوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة الزمر: ١٧، ١٨.

وقد قال أحد الرعية لعمر: اتق الله يا ابن الخطاب! فأغضب هذا بعض من حوله، وحاول أن ينتهر هذا القائل، ولكن عمر قال: دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها!

وقد ينتفع الإنسان الكبير بالنصيحة يقدمها إليه من هو أصغر سنا أو قدرا، وقديما تعلم ابن آدم الأول من الغراب، وعرف منه: كيف يواري سوءة أخيه.

وقد قال الهدهد لسليمان: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ النمل: ٢٢. وبهذا يحتج التلاميذ الصغار على شيوخهم الكبار إذا ضاقوا بنقدهم، فليس الشيوخ أفضل من سليمان، وليس التلاميذ أقل من الهدهد.

بل تعلم أبو هريرة من إبليس: فضل آية الكرسي وأثرها في حفظ الله للإنسان، وذكر ذلك للرسول، فقال له: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب!» والحديث في صحيح البخاري.

وقد رأينا الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يعترفون بخطئهم إذا تبين لهم، دون أن يروا في ذلك أي حرج.

ردت امرأة على أمير المؤمنين عمر ـ وهو على المنبر ـ فرجع عن قوله قائلا: أصابت المرأة وأخطأ عمر.

ورد رجل على أمير المؤمنين علي، فقال له: أصبتَ وأخطأتُ، وفوق كل ذي علم عليم.

وما لهم لا يفعلون ذلك، وقد رأوا رسول الله، ﷺ، ينزل عن رأيه إلى رأي أصحابه: إذا لاح له أنه أصوب، وخصوصا في أمور المعيشة، وشئون السياسة والتعليم.

في قضية تأبير النخل قال لهم: «إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1].

وحين أرسل أبا هريرة يعلن في الناس: أن من قال: (لا إله إلا الله) دخل الجنة، ورأى عمر في ذلك مدعاة لأن يتكل الناس، ويدعوا العمل، فقال: يا رسول الله! خلّهم يعملون، قال: «خلهم يعملون». وهذا ثابت في الصحيح.

النقد الذاتي:

ومن دلائل التحرر من التعصب: النقد الذاتي، وهو أمر أوسع من مجرد الاعتراف بالخطأ.

إنه مراجعة واعية قاصدة للذات، مراجعة دقيقة مع النفس على وعي وبصيرة، وكشف مجهري لأخطائها وعيوبها، ما كان منها عن غفلة، وما كان منها عن قصد وعمد، وذلك ليتجنب الخطأ فيما بعد، ويعالج آثاره إن كان له آثار، ويتوب إلى الله من العمد، عسى أن يبدل سيئاته حسنات.

---

(١) رواه مسلم عن عائشة و أنس.

يقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم.

ويقول التابعي الجليل ميمون بن مهران: المؤمن أشد حسابا لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح.

وهذا ينطبق على الأفراد، كما ينطبق على الجماعات والحركات.

فليست هناك جماعة معصومة من كل خطأ، مبرأة من كل عيب، وإن كانت إسلامية الأهداف والوسائل.

فالجماعة: مجموعة من الأمة تجتهد لخدمة الإسلام: بالوسائل التي تراها أقدر على تحقيق الأهداف التي تصبو إليها، وليست هي كل الأمة.

فإذا كانت الأمة معصومة بمجموعها، لأنها لا تجتمع على ضلالة، كما جاء في الحديث النبوي، فإن العصمة لم تضمن لأي جماعة معينة محدودة منها.

فأي طائفة من الطوائف، التي تعمل على الساحة لنصرة الإسلام، وتجديده والتمكين له في الأرض: إنما هي جماعة من المسلمين، وليست هي جماعة المسلمين.

قد تكون بعض الجماعات والفئات: أقرب إلى الصواب في فهم الإسلام وتطبيقه والدعوة إليه من بعض، ولكن المؤكد الذي لا ريب فيه: أن لا عصمة لأي منها.

وهذا ما يجعل المجال متاحا للمراجعة والتقويم ما بين حين وآخر، لأي جماعة تريد أن يكون يومها خيرا من أمسها، وأن يكون غدها خيرا من يومها.

وهذا ما حاولته في بعض ما كتبته عن الحركة الإسلامية، وخصوصا في كتابي: «أين الخلل؟» الذي نشر قبل ذلك في صورة مقالات في مجلة: (الأمة) وقبل ذلك في كتابي: «الحل الإسلامي فريضة وضرورة». وبعد ذلك في كتابي: «أولويات الحركة الإسلامية» وغيرها من الكتب.

وقد فوجئ بعض الإسلاميين بهذا التوجه، ولامني بعضهم برفق وأدب، ولكن لا يصحٌّ في النهاية إلا الصحيح.

طلب النصح والتقويم من الآخرين:

وأمر آخر في التحرر من التعصب يكمل النقد الذاتي، وهو: طلب النصح والتقويم من الآخرين، والترحيب به.

وهذا ما قاله الخليفة الأول أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في أول خطبة له بعد تولّيه الخلافة: إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني.

وما قاله الخليفة الثاني بعده حيث كان يعلن على المنبر: رحم الله امرءا أهدى إليّ عيوب نفسي! مرحبا بالناصح أبد الدهر. مرحبا بالناصح غدوا وعشيا.

ومن مآثره التي دونها له التاريخ، قولته المشهورة: أيها الناس! من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومني، فقال له بعض من سمعه من الرعية: والله لو رأينا فيك اعوجاجا يا ابن الخطاب! لقومناه بحد سيوفنا!

ولم يعتبر عمر هذا الرد استفزازا أو تحديا، بل رآه دلالة على قوة الأمة، وشجاعة الرعية، فقال مزهوا مسرورا: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوم اعوجاج عمر بحد سيفه!

إن الولايات المتحدة طلبت من اليابانيين: أن ينقدوا نظامها التعليمي، وأن يقدموا لها تقريرا عما يرونه من ثغرات في هذا النظام، فإن الذي يسكن في داخل الغابة لا يراها جيدا. إنما يراها من كان خارجها.

التنازل عن بعض الآراء الجزئية لجمع الكلمة:

ومما يتمم ما ذكرناه من دلائل التحرر من التعصب: أن يكون لدى صاحب الرأي استعداد للتنازل عن رأيه ليوافق آراء الآخرين، فتجتمع الكلمة، ويلتئم الشمل ويتوحد الصف، وإن كان يعتقد أن رأيه أصوب وأرجح في الميزان، وهذا ضروري لمن يعمل في جماعة.

وهذا يصدق في المسائل السياسية العملية، وفي المسائل العلمية الفقهية.

فقد ترى بعض الجماعات الإسلامية: خوض معركة الانتخابات في بلد ما، لإبلاغ الصوت الإسلامي إلى السلطة التشريعية، ولإسكات الأصوات المعارضة

لتحكيم الشريعة الإسلامية، وللدفاع عن حقوق القاعدة الشعبية العريضة: في الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية.

وترى أخرى: أن لا فائدة من ذلك، وأن خوض هذه المعارك مضيعة للجهد وللوقت وللمال، وأن ما تريده السلطات الحاكمة سينفذ في النهاية.

فإذا رأت هذه الأخيرة: أن الجماعات الأخرى قد دخلت المعركة بالفعل، فالأولى بها أن تتنازل عن رأيها، وتؤيد الآخرين فيما أقدموا عليه، ولا تدعهم يواجهون التيارات اللاإسلامية واللادينية وحدهم، دون أن تقدم لهم عونا، على حين يتعاون الآخرون - من غير الإسلاميين - ويتكاتفون برغم اختلاف طرائقهم. وإن كنا نرى بعض الإسلاميين - للأسف الشديد - يقفون ضد الإسلاميين الذين يخالفونهم في الرأي، بل رأينا بعضهم يؤيد العلمانيين أو الماركسيين ضد إخوانه الإسلاميين!

وكذلك إذا رأت تلك الفصائل المشاركة في الحكم، بناء على ما تبين لها بعد الموازنة بين المصالح المتوقعة، والمضار المحتملة، وترجيحا لتحقيق المنافع على احتمال المضار، وأن النفع فيها أكبر من الضرر، فينبغي للأخرى التسليم لها بما تراه، احتراما لاجتهادها، وإحسانا للظن بها، وتعاونا معها على البر والتقوى.

وفي المسائل الفقهية: يسع المسلم أن يدع رأيه الذي يقتنع برجحانه، ليعمل بالرأي الآخر: تأليفا للقلوب، وسعيا إلى توحيد كلمة الجميع.

وهذا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في (فتاواه) حيث قال:

« مراعاة الائتلاف هي الحق، فيجهر بالبسملة أحيانا لمصلحة راجحة، ويسوغ ترك الأفضل لتأليف القلوب، كما ترك النبي ﷺ بناء البيت من خشية تنفيرهم، نص الأئمة، كأحمد على ذلك في البسملة، ووصل الوتر وغيره، مما فيه العدول من الأفضل إلى الجائز، مراعاة للائتلاف أو لتعريف السنة، أو أمثال ذلك، والله أعلم »[1].

---

(١) انظر: كتابنا (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) ص١٧٢.

الاستفادة مما عند الآخرين:

ومن دلائل التحرر من التعصب: الاستفادة مما لدى الآخرين من علم نافع أو عمل صالح أو تجربة مفيدة، وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه: «الكلمة الحكيمة ضالة المؤمن، أنى وجدها: فهو أحق بها».

نعم. إن الحديث ضعيف الإسناد، ولكن معناه صحيح، وقد قال الرسول ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر: كلمة لبيد: «ألا كل شيء ماخلا الله باطل!»[1].

وهي مطلع قصيدة للبيد بن ربيعة قالها وهو في جاهليته.

بل نرى القرآن يحكي لنا بعض الأقوال الصحيحة في نفسها لأناس لم يكونوا مؤمنين، مثل قول ملكة سبأ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ سورة النمل: ٣٤. وقد لخصت بهذه العبارة الوجيزة ما يفعله الاستعمار في البلاد المفتوحة، من إفساد البلاد وإذلال العباد.

ومثل ذلك ما قالته امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة يوسف: ٥٣.

ولهذا اشتهر بين المسلمين قولهم: خذ الحكمة من أي وعاء خرجت. ولا غرو أن وجدنا كتب المسلمين ـ في الأدب والتصوف والمواعظ والرقاق ـ تنقل عن الهنود والفرس واليونان وغيرهم ما رأوا فيه فائدة وحكمة. بل نقلوا عن اليهود والنصارى إلى حد الإسراف أحيانا فيما عرف باسم: الإسرائيليات.

ووجدنا الأئمة وكبار العلماء يحفظون الشعر الجاهلي يروونه ويستشهدون به، كما رأينا ذلك عند ابن عباس وعائشة وغيرهما.

ورأينا الراسخين من العلماء ـ من أهل السنة ـ: يأخذون من كتب المعتزلة وغيرهم، وإن أنكروا فيها مواضع معينة وجهوها لتأييد مذهبهم.

ومن هنا: وجدنا جميع المفسرين بعد الزمخشري يستفيدون من كتابه (الكشاف) وينقلون عنه، كما يبدو ذلك جليا في تفاسير: الرازي والنيسابوري والقرطبي والبيضاوي وأبي السعود والآلوسي وغيرهم.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة.

ولهذا خرّج الحافظ ابن حجر أحاديثه في كتاب سماه: (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف).

ولا يمنع ذلك أن يتعقبه رجل مثل ابن المنيّر بكتابه: «الانتصاف من الكشاف» الذي تتبع فيه (اعتزاليات) الزمخشري في تفسيره، ورد عليها من وجهة نظره.

الثناء على المخالف فيما أحسن فيه:

ومن دلائل التحرر من التعصب: الثناء على المخالف فيما أحسن فيه، فإن التعصب كثيرا ما يعمي العين عن رؤية محاسن المخالفين، كما قال القائل:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تُبْدي المَساويا!

وحتى إن رأت العين المحاسن نرى التعصب يعقد اللسان أن يقول كلمة ثناء عليها، فالمتعصبون لا يثنون إلا على أصحابهم ومن وافق مشربهم، وحطب في حبلهم. أما الراسخون في العلم والإيمان فيعرفون لكل ذي قدر قدره ويتسامحون ولا يتعصبون.

ومن المؤرخين الذين عرفوا بالاعتدال والإنصاف ـ حتى مع من خالفهم ـ الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ كما يتجلى ذلك في موسوعته التاريخية المتميزة (سير أعلام النبلاء) والتي زخرت بتعليقاته المتوازنة والمنصفة لكثير ممن يخالفهم الرأي، من المعتزلة أو الخوارج، أو غيرهم من الطوائف. وأمثلة ذلك لا تحصر في الكتاب.

قال حكيم مصره، بل عصره، الشيخ محمد عبده مفتي مصر، في كتاب «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» في مبحث «سماحة الإسلام» ما لفظه: «آخذ بيد القارئ الآن، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني أمية، والأئمة من بني العباس، ووزرائهم، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حولهم، والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون، وسائر أهل النظر من كل قبيل، مطيفون بهم، وكلٌ مقبل على عمله، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه، ووضع يده في يده، يصافح الفقيه المتكلم، والمحدث الطبيب، والمجتهد الرياضي، والحكيم، وكل يرى في صاحبه عونا على ما يشتغل هو به، وهكذا أدخل به بيتا من بيوت

العلم، فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت، يتحادثون ويتباحثون. والإمام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي: يأخذ عنه الحديث، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقّى عنه، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل: «لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربّته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمَر بشيء: كان ألزم الناس له، وإن نهى عن شيء: كان أترك الناس له. ما رأيت ظاهرا أشبه بباطن منه، ولا باطنا أشبه بظاهر منه»[1].

وهكذا كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وإن اختلفوا ـ بل وإن اقتتلوا ـ يثني بعضهم على بعض، ويعرف كل منهم لصاحب الفضل فضله.

وقد كان بين أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وبين أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ شيء من أيام معركة الجمل، وقبلها منذ حديث الإفك، ولكنها حين سئلت: أي الناس كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة، فقيل: فمن الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمتُ صوّاما قوّاما![2].

وكذلك قال علي ـ كرم الله وجهه ـ عن ابن عمته صفية: الزبير بن العوام، وقد قاتله في معركة الجمل مع طلحة وعائشة رضي الله عنهم جميعا، فقد استأذن قاتل الزبير على علي، فقال: والله ليدخلن قاتل ابن صفية النار. إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لكل نبي حواريا (أي نصيرا) وحواريي الزبير»[3].

وكذلك أثنى على طلحة ـ رضي الله عنه ـ وقال لابنه ـ وقد دخل عليه فرحب به، وأدناه: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك ممن قال فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ سورة الحجر: ٤٧.

---

(١) انظر: قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث لجمال الدين القاسمي (ص٣٨٨).

(٢) رواه الترمذي في المناقب وقال: حسن غريب (٣٧٨٣).

(٣) رواه الطيالسي (٢/ ١٤٥) وابن سعد (٣/ ١/ ٧٣) والحاكم (٣/ ٣٦٧) وصححه ووافقه الذهبي. انظر سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٧.

ولما استنكر ذلك اثنان من جلسائه، قال لهما: قوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هو إذا لم يكن أنا وطلحة؟![1]

ومن المعروف دائما: أن الأئمة تتسع صدورهم للنقد والتصحيح، ما لا تتسع له صدور الأتباع المقلدين الذين لا يقبلون ذلك ولا يسيغونه بحال، ويرون في ذلك نيلا من قدر أئمتهم، وهذا أمر عرف عند الأقدمين، ولا يزال يرى عند المعاصرين.

كتب الداعية الجليل والمربي الكبير، أبو الحسن الندوي، كتابا ينتقد فيه بعض ما كتبه العلامة أبو الأعلى المودودي، وخصوصا في كتابه (المصطلحات الأربعة في القرآن) وكذلك بعض ما كتبه الداعية والأديب الكبير الشهيد سيد قطب، فرحب الإمام المودودي بالنقد وشكر للأستاذ أبي الحسن، ودعاه أن ينظر في سائر كتبه، ويكتب له برأيه، وهذا هو شأن الأئمة حقا.

ولكن إخوان العلامة المودودي وأتباعه: ضاقوا كل الضيق بما كتبه العلامة الندوي، واعتبروه هجوما على فكر الجماعة نفسها.

وأنا لا أريد أن أحكم بين الرجلين، ولا أدخل طرفا مع واحد منهما الآن، ولكن الذي يهمني هو ضيق الصدر من الأتباع بأي نقد، واعتبار كل ناقد عدوا!

وفي حركة الإخوان المسلمين: أناسٌ لهم وزنهم وقدرهم، لا يقبلون من أحد مخالفة الإمام حسن البنا في أي جزئية من الجزئيات.. ومن فعل ذلك نُظر إليه بعين غير عين الرضا، وإن كان من أخلص أبناء الحركة وأقدرهم على فهم روح البنا.

وفي أحد الدروس يوما مع بعض الإخوة، وضحت لهم رأيي في جواز تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية، وذكرت لهم أدلتي على هذا الرأي من أصول الإسلام، ومن التراث، ومن الواقع.[2]

ولكن بعضهم: لم يعجبه ذلك، لأنه مخالف لرأي الإمام الشهيد الذي أعلن فيه أن لا حزبية في الإسلام.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٣٩).

(٢) انظر في ذلك: الجزء الثاني من كتابي (فتاوى معاصرة) فتوى: (تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية) وفتوى (الإسلام والديموقراطية). وانظر: كتابي (من فقه الدولة في الإسلام) نشر دار الشروق بالقاهرة.

وقلت لهؤلاء الإخوة ما قاله أبو يوسف حينما خالف شيخه أبا حنيفة: لو رأى صاحبي ما رأيت، لقال بمثل ما قلت!

فالبنا لم يكن جامدا ولا متعصبا، فقد كان ـ رحمه الله ـ مجددا متجددا ينقد نفسه، ويطور فكره، ويغير وسائله، فقد آمن بالعمل العسكري وأنشأ له النظام الخاص، ثم رأى خطره بعد ذلك ـ حتى على الجماعة ذاتها ـ فضاق به وأنكر بعض ما صدر منه.

ومن المعلوم: أن حسن البنا ـ رحمة الله عليه ـ لقي ربه وهو ابن اثنين وأربعين عاما، فما يدرينا لو مد الله في عمره، ماذا كان سيغير في اجتهاده، كما فعل الشافعي وغيره من الأئمة الربانيين.

وفي معارك الفتن التي وقعت في عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ نجد حادثة لها دلالتها. في تأكيد هذه الفكرة، وهي: أن الأتباع يكونون أشد تعصّبا من القادة والزعماء.

ففي معركة الجمل التي قادها عائشة وطلحة والزبير، ضد علي ـ رضي الله عنهم جميعا ـ كان في الجيش المناوئ لعلي محمد بن طلحة، وكان رجلا صالحا عابدا، يعرف باسم (السجاد): لكثرة صلاته وسجوده وقيامه لله، وكان يلبس في هذه المعركة عمامة سوداء، فقال أمير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ لأصحابه: لا تقتلوا صاحب العمامة السوداء، فإنما أخرجه برّه بأبيه!

ومع هذا لقيه أحدُ أصحاب عليّ، قيل: إنه شريح بن أبي أوفى العبسي، وقيل: الأشتر النخعي ـ وقيل غير ذلك ـ فأهوى له بالرمح فطعنه، ويبدو أن ابن طلحة حاول أن يثنيه عن قتله بقراءة شيء من القرآن، فتلا عليه من إحدى سور (حم) وربما كان قوله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ **أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾ سورة غافر: ٢٨ .

ولكن هذا الرجل من أصحاب علي ـ رضي الله عنه ـ لم يبال بما تلا صاحبه من قرآن، وما ذكره به من روابط الإيمان، فما زال به حتى قتله، وأنشد القاتل في ذلك:

وأشعثَ قوامٍ بآيات ربه قليل الأذى فيما يرى الناس مسلمِ!
هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعا لليدين وللفم!
على غير شيء. غير أن ليس تابعا عليا، ومن لا يتبع الحق يندم!
يذكرني (حاميم) والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم؟

وإن المرء ليقرأ هذا الشعر، ويعجب غاية العجب: كيف هان على هذا المسلم أن يقتل أخاه المسلم، وهو يذكره بآيات ربه، ويقرأ عليه القرآن، وهو ـ للأسف الشديد ـ مصمٌّ أذنيه، مغلق قلبه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٨ـ من الغلو والانحلال
إلى الوسطية والاعتدال

الإسلام منهج وسط للأمة الوسط، وهو يمثل (الصراط المستقيم)، في كل مجال من المجالات، ويجسد التوازن والاعتدال في كل شيء: في العقيدة، وفي العبادة، وفي الأخلاق، وفي المعاملات والتشريعات كلها، بعيدا عن الغلو والتفريط.

وقد تحدثنا عن هذه (الوسطية) بشيء من التفصيل في كتابنا: (الخصائص العامة للإسلام) باعتبارها خصيصة من خصائصه الأساسية.

كما سلطنا الضوء على ظاهرة الغلو في الدين في أكثر من كتاب لنا، وبينا ما فيه من خطر على الفرد وعلى المجتمع، وعلى الدين نفسه. كما في كتابنا: (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) ورسالتنا: (ظاهرة الغلو في التكفير).

وتحدثنا عن (الفكر الوسطي) أو (التيار الوسطي) ومعالمه وملامحه: في عدة كتب منها: (أولويات الحركة الإسلامية) و (في فقه الأولويات) و(الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي) و(مستقبل الأصولية الإسلامية) وغيرها.

حتى لاحظ بعض الدارسين: أن عددا من عناوين كتبي يتضمن كلمة (بَيْن) التي كثيرا ما تدل على وسط بين طرفين، مثل (الفقه الإسلامي: بين الأصالة والتجديد) (الفتوى: بين الانضباط والتسيب) (الاجتهاد: بين الانضباط والانفراط) (الثقافة الإسلامية: بين الأصالة والمعاصرة) (ثقافتنا: بين الانغلاق والانفتاح) .. إلخ. وأنا الآن أسعى إلى تكوين جمعية ثقافية، أسميتها: (جمعية الأمة الوسط في الفكر والثقافة) مهمتها: أن تورِّث (الفكر الوسطِي) للأجيال الصاعدة عن طريق الدعوة والتثقيف والتعليم والتربية، بطريقة مؤسَّسية عصرية. وأدعو الله أن يرى هذا المشرع النور قريبا.

وإنما عنيت بهذا الأمر كل هذه العناية، لأني أرى هذا الفكر أو هذا الاتجاه: هو طوق النجاة للدعوة الإسلامية، بل للأمة الإسلامية كلها. وهو الجدير أن يمضي بها في الطريق الصحيح، الذي يوصل إلى الغاية المنشودة، وهي الرقي بالأمة ماديا

وروحيا، والعودة بها إلى دفة القيادة للبشرية، بما لديها من رسالة ربانية إنسانية أخلاقية عالمية، متكاملة متوازنة.

كما أني أرى الإعراض عن هذه الوسطية هو الهلاك بعينه، والضياع في الدين والدنيا معا. سواء كان هذا الإعراض جنوحا إلى جانب التسيب والانفلات، وهو جانب التفريط والتقصير، بإضاعة الصلوات، واتباع الشهوات، والسير في ركاب شياطين الإنس والجن، وباعة الفجور، ومروجي الإلحاد والانحلال، ودعاة المادية المجحفة، والإباحية المسرفة. فهلاك هؤلاء محتم وفق سنن الله تعالى، ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ التوبة: ٦٩.

أم كان الإعراض عن الوسطية جنوحا إلى جانب الغلو والتنطع والتشدد، وهو جانب الإفراط أو التطرف، كما يسمونه اليوم. وهو الشائع ـ للأسف ـ بين عدد من الفصائل المنسوبة إلى الصحوة الإسلامية. وقد صرح الحديث النبوي بأنه سبب الهلاك للأمة، كما قال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين» [(١)] وقال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا [(٢)]. وهو لا يكرر الكلمة إلا لعظم خطر مضمونها. والمتنطعون: هم المتشددون المتعمقون المبالغون في التزامهم بالدين بما يخرجهم عن الحد الوسط.

والخير كل الخير في التوسط والتوازن بين الغلو والتقصير، أو بين الإفراط والتفريط، أو بين (الطغيان والإخسار) على حد تعبير القرآن: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ⑦ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ الرحمن: ٧ ـ ٩.

والطغيان: تجاوز حد الوسط، إلى جانب الغلو والإفراط، والإخسار: هو تجاوزه إلى جانب التقصير والتفريط.

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن ابن عباس (صحيح الجامع الصغير: ٢٦٨).

(٢) رواه مسلم عن ابن مسعود.

والمنهج المطلوب هو (الهَدْي القاصد) كما عبر عنه في حديث شريف.

عن بريدة الأسلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: خرجت ذات يوم لحاجة، وإذا أنا بالنبي ﷺ، يمشي بين يديّ، فأخذ بيدي، فانطلقنا نمشي جميعا، فإذا نحن بين أيدينا رجل يصلي، يكثر الركوع والسجود، فقال النبي ﷺ: أتراه يرائي؟ فقلت: الله ورسوله أعلم! فترك يده من يدي، ثم جمع يديه، فجعل يصوبهما يرفعهما، ويقول: «عليكم هديا قاصدا، عليكم هديا قاصدا، عليكم هديا قاصدا! فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه»[1].

ولا تنتقل الصحوة الإسلامية المعاصرة من المراهقة إلى الرشد، إلا بتبني هذا الهدي القاصد أو هذا المنهج الوسطي، الذي لا طغيان فيه ولا إخسار.

وتتجلى هذه الوسطية في مواقف شتى، أساسها: رفض الغلو والتفريط. وهو ما وقع فيه كثير من الناس.

انحسار الوسطية في بعض الفترات:

إن بعض الإسلاميين قد انحصرت عنده الألوان الكثيرة في لونين اثنين لا ثالث لهما، هما الأبيض والأسود، وليس بينهما ألوان أخرى، مما يعرفه الناس من الألوان الأصلية والفرعية، التي لكل منها درجات لا تكاد تحصر.

وبعض هؤلاء يكاد يحصر الألوان كلها في واحد، ويجعل الأصل في الألوان كلها وفي الحياة كلها هو: (السواد) تبعا للمنظار الذي يرى فيه الناس والأشياء.

وبهذه النظرة السوداء المتشائمة: حدد أجوبة جاهزة لكل شيء، يطلقها كالقنبلة، ولا يبالي ما أصابت من الحياة والأحياء.

فالمجتمع جاهلي كله..

والحياة إثم كلها..

والناس كلهم كفار، أو منافقون..

والعالم كله وحوش..

وكل ما يمارسه الناس في حياتهم المعاصرة من لهو وفنون: حرام في حرام..

---

(١) قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله موثقون. (مجمع الزوائد: ١/ ٦٢).

هذا مع أن سلف الأمة كانوا يتحرّجون أشد الحرج، من إطلاق كلمة (الحرام) إلا على ما علم تحريمه جزما، ولهذا نزل في ذم الخمر آيتان إحداهما في سورة البقرة: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ البقرة: ٢١٩. والثانية في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ النساء: ٤٣. ومع هذا ظل بعض الصحابة يشربها، وظل بعضهم يقول: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، حتى نزلت آية المائدة الحاسمة: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة: ٩٠.

يجب أن نعترف أن الفترة الماضية ـ وخصوصا في الخمسينيات والستينيات ـ كانت مجالا خصبا لانتشار نوع من الأفكار السوداء في الساحة الإسلامية.

فقد غلب الفكر الذي ينزع إلى الرفض والتشاؤم والاتهام، وسوء الظن بالآخرين: على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم، حتى المسلمين منهم.

أجل، راجت فكرة التفسيق والتبديع[1]، بل التكفير.. وساعد على ذلك: الجو الخانق الذين كانت تعيشه الحركة الإسلامية ورجالها ودعاتها، الذين نصبت لهم المشانق جهرة، أو قتلوا بأدوات التعذيب خفية، أو صبت عليهم ألوان التنكيل والتشريد من كل جهة، في حين: فتحت الأبواب أمام الشيوعيين والعلمانيين وكل خصوم الإسلام.

في هذه المرحلة: ظهرت كتب الشهيد سيد قطب، التي تمثل المرحلة الأخيرة من تفكيره، والتي تنضح بتكفير المجتمع واتهامه بالجاهلية، وتأجيل الدعوة إلى النظام الإسلامي، والسخرية بفكرة تجديد الفقه وتطويره، وإحياء الاجتهاد، وتدعو إلى العزلة الشعورية عن المجتمع، وقطع العلاقة بالآخرين، وإعلان الجهاد الهجومي على الناس كافة، والاستخفاف بدعاة التسامح والمرونة، ورميهم بالسذاجة والهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية.

يتجلى ذلك أوضح ما يكون في تفسير الشهيد (في ظلال القرآن) في طبعته الثانية، وفي (معالم في الطريق) ومعظمه مقتبس من (الظلال) وفي (الإسلام

---

(١) يراد بالتفسيق والتبديع: وصف الآخرين بالفسق والبدعة.

ومشكلات الحضارة) وغيرها. وهذه الكتب كان لها فضلها وتأثيرها الإيجابي الكبير، كما كان لها تأثيرها السلبي.

كما ظهرت كتب المدعو له بالرحمة والمغفرة: الشيخ سعيد حوّى، وهي تتبنى نفس الفكرة، وتسير في هذا الخط ذاته.

وفي نفس الوقت: راج فقه من سميتهم: (الظاهرية الجدد)، الذين ينسبون أنفسهم أو ينسبهم الناس إلى: (السلفية) أو بعبارة أخرى: مدرسة ابن تيمية وتلامذته، وهم كانوا أبعد الناس عن (الحرفية) والجمود على (الصورية والشكلية)، التي يستقتل هؤلاء في التمسك بها. حتى كاد الإسلام يحصر في لحية طويلة، وثوب قصير، بالنسبة للرجل، ونقاب على وجه المرأة.

ونرى هؤلاء الإخوة الأفاضل يشعلون معركة في أواخر كل رمضان: ضد الذين يخرجون صدقة الفطر نقدا ويصرون على إخراجها من الحبوب والأطعمة. وإن لم ينتفع بها الفقير، لأنه لم يعد يطحن أو يعجن أو يخبز. وقد أجاز إخراج القيمة: عدد من سلف الأمة. ولهم فتاوى ومواقف كثيرة من هذا النوع.

وبهذا غلب على الفكر الإسلامي: الإعنات والتصلب، وتقهقرت روح الوسطية السمحة الميسرة إلى حين. وأعتقد أن الحركة لا بد لها من التغلب على فكر المحنة، أو فكر الأزمة، لتنتقل إلى فكر العافية، ومن فكر (مدرسة الظواهر) إلى فكر (مدرسة المقاصد) ومن فكر الجنوح إلى الغلو إلى التسيب، إلى: الفكر الوسطي المعتدل، المعبّر عن وسطية الأمة المسلمة، ووسطية المنهج الإسلامي: الذي أراد الله به اليسر، ولم يرد به العسر [1].

اهتمامي بمقاومة الغلو:

لقد شغلتني قضية: (الغلو الديني) - أو التطرف الديني، كما أطلق عليها في بعض الفترات - باعتبارها جزءا من (ترشيد الصحوة) وتسديد مسيرتها، حتى لا تتآكل من الداخل، أو تضرب من الخارج.

وقد ألفت كتابا خاصا، في دراسة ظاهرة الغلو والتطرف الديني، نشرته مجلة:

---

(١) انظر: أولويات الحركة الإسلامية ص١١٥ - ١١٧.

(الأمة) ضمن كتبها الدورية، وهو الكتاب الثاني في سلسلتها، وأعني به كتاب: (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) وفيه حددت مفهوم التطرف وعلاماته المميزة، كما ألقيت الضوء على: أسباب التطرف الفكرية والاجتماعية والسياسية.

ثم عرضنا لسبل العلاج كما نراها، وختمنا بوصايا ونصائح أبوية للشباب الذين يتهمهم من يتهمهم بالتطرف.

ويهمني في هذا الكتاب: أن أنقل فقط ملاحظتين مهمتين حول مفهوم التطرف أو الغلو، الذي يفسره كل اتجاه بما يحلو له، وما يخدم فكرته، حتى إن بعض البلاد تعتبر من يحرص على الصلاة في المسجد: متطرفا، ومن ترتدي الحجاب ـ أي تغطي رأسها بالخمار ـ: متطرفة.

الملاحظة الأولى:

أن مقدار تدين المرء، وتدين المحيط الذي يعيش فيه، من حيث القوة والضعف، له أثره في الحكم على الآخرين: بالتطرف، أو التوسط، أو التسيب.

فمن المشاهد أن من كانت جرعته من التدين قوية، وكان الوسط الذي نشأ فيه شديد الالتزام بالدين، يكون مرهف الحس لأي مخالفة أو تقصير يراه، حتى إنه ليعجب أن يوجد مسلم لا حظ له من قيام الليل، أو صيام النهار، وفي هذا ورد القول المأثور:

«حسنات الأبرار، سيئات المقربين»

ويحضرني هنا ما قاله أنس بن مالك لمعاصريه من التابعين: إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات!

وكانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تنشد بيت لبيد بن ربيعة:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم   وبقيت في خلْف كجلد الأجرب!

وتقول: رحم الله لبيدا، كيف لو عاش إلى زماننا هذا؟ وقد عاشت إلى عهد بني أمية، وماتت في زمن معاوية وكان ابن أختها عروة بن الزبير، وقد عاش بعدها

زمنا: ينشد البيت، ويقول: رحم الله لبيدا ورحم الله عائشة، كيف لو عاشا إلى زماننا هذا؟!

وفي مقابل هذا: نجد الشخص الذي قلّ زاده من التدين علما وعملا، أو عاش في محيط تجرأ على محارم الله وتنكر لشرائعه، يعتبر التمسك بالحد الأدنى من الدين: ضربا من التعصب أو التشدد.

وكلما زادت مسافة البعد بينه وبين الدين: زاد استغرابه بل إنكاره، بل اتهامه لكل من يستمسك بعروة الدين، ويلجم نفسه بلجام التقوى، ويسأل في كل شيء يعرض له أو يعرض عليه: حلال هو أم حرام؟

وكثير من أولئك الذين يعيشون في أوطاننا بأسماء إسلامية، وعقول غربية، يعتبرون مجرد الالتزام بأوامر الله ونواهيه تطرفا دينيا!

وكثير ممن غزته الأفكار والتقاليد الأجنبية: يعتبر الذين يتمسكون بآداب الإسلام: في المأكل، والمشرب، والملبس، والزينة ونحوها: غاية في التطرف والتعصب!

لقد رأينا من يعتبر الدعوة إلى تحكيم شريعة الله، وإقامة دولة الإسلام في أرض الإسلام: تطرفا في الدين!

ورأينا من يرى الغيرة على الدين وحرماته، والأمر بالمعروف إذا ضُيع، والنهي عن المنكر إذا وقع، تطرفا في الدين، وتدخلا في الحرية الشخصية للآخرين!

ورأينا من يرى أن اعتبار الآخرين من غير المؤمنين بدينه كفارا: تعصب وتطرف، مع أن أساس الإيمان الديني أن يعتقد المؤمن أنه على حق، وأن مخالفيه على باطل، ولا مجاملة في هذه الحقيقة.

بل رأينا من يعتبر الحرص على الصلاة في المسجد: تطرفا وغلوا في الدين! ومن يرى لبس المسلمة الخمار على رأسها: غاية في التطرف، بل جريمة تعاقب عليها بالحرمان من دخول المدرسة والجامعة والتوظف في مؤسسات الدولة، ودخول مستشفيات الحكومة، ولو للولادة!!

والملاحظة الثانية:

أنه ليس من الإنصاف: أن نتهم إنسانا بالتطرف في دينه لمجرد أنه اختار رأيا من الآراء الفقهية المتشددة، مادام يعتقد أنه الأصوب والأرجح، ويرى أنه ملزم به شرعا، لأنه ليس مسئولا إلا عما يراه ويعتقده هو، وإن شدد بذلك على نفسه، بل حسبه أن يرى أن ذلك هو الأفضل والأورع، وإن لم يكن فرضا ولا واجبا، إذا كانت همته لا تقف عند حد الفرائض، وإنما يتقرب إلى الله تعالى بالنوافل حتى يحبه.

ومن حقائق الحياة: أن الناس يتفاوتون في هذه القضية، فمنهم المتساهل الميسر، ومنهم المتشدد المعسّر، وقد كان في الصحابة المترخص كابن عباس، والمتشدد كابن عمر، رضي الله عنهم.

ويكفي المسلم في هذا المقام: أن يستند رأيه الذي تبناه إلى مذهب من المذاهب المعتبرة عند المسلمين، أو يعتمد على اجتهاد صحيح قائم على استدلال شرعي سليم؛ فإذا كان هناك من أئمة المذاهب المتبوعة من يقول: بوجوب إعفاء اللحية وتركها وحرمة حلقها، فهل يوصف بالتطرف من اقتنع بهذا المذهب وأخذ به، وطبقه على نفسه، لأنه خالف رأيي ورأيك ورأي زيد وعَمْرو من العلماء، ولا سيما المعاصرين؟ وهل من حقّنا أن نصادر حق امرئ في ترجيح رأي على آخر، وبخاصة أنه يتصل بحياته وسلوكه هو، لا بحياة غيره؟!

إن جَمًّا غفيرا من علماء السلف والخلف، رأوا أن على المرأة المسلمة أن تستر جميع بدنها ما عدا وجهها وكفيها، فقد اعتبروهما مما استثنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ النور: ٣١. وأكدوا ذلك بأحاديث ووقائع وآثار.. ورجح ذلك: كثيرون من علماء عصرنا، وأنا منهم [1].

ولكنّ عددا آخر من العلماء المرموقين، ذهبوا إلى أن الوجه والكفين عورة يجب سترها، واستدلوا على ذلك بنصوص من القرآن والحديث والآثار، وأخذ بقولهم

---

(١) انظر: رسالتنا (النقاب: بين القول ببدعيته والقول بوجوبه) من رسائل ترشيد الصحوة.

كثيرون من علماء هذا العصر، وخصوصا في باكستان والهند والسعودية وأقطار الخليج، وأرسلوا نداءاتهم إلى كل فتاة تؤمن بالله واليوم الآخر: أن تلبس النقاب، ليستر وجهها، والقفاز ليستر يديها.

فهل تدمغ بالتطرف فتاة أو سيدة آمنت بهذا المذهب، واعتبرته جزءا من دينها؟ أو يدمغ به رجل دعا إلى ذلك ابنته أو زوجته فاستجابت؟ وهل يحق لنا أن نجبر هذا أو ذاك أو تلك على التنازل عما يعتقده شرع الله، ونلزمه أن يبيع الجنة ويشتري النار، إرضاء لخاطرنا، وفرارا من تهمة التطرف؟

ومثل ذلك يقال فيمن يتبنى الآراء المتشددة في الغناء أو الموسيقى أوالرسم والتصوير وغيرها، مما يخالف اجتهادي شخصيا في هذه الأمور، واجتهاد عدد من علماء العصر البارزين، ولكنه يتفق مع آخرين من علماء المسلمين: متقدمين ومتأخرين ومعاصرين.

والواقع أن كثيرا مما ينكر على من نسميهم (المتطرفين)، مما قد يعتبر من التشدد والتنطع، له أصل شرعي في فقهنا وتراثنا، تبناه بعض العلماء المعاصرين، ودافعوا عنه ودعوا إليه، فاستجاب لهم من الشباب المخلص من استجاب، رجاء رحمة الله تعالى وخوفا من عذابه، وذلك كلبس الثوب (الجلباب) بدل القميص والبنطلون، وتقصيره إلى ما فوق الكعبين، والامتناع عن مصافحة النساء، وغيرها.

ومن هنا: لا نستطيع أن ننكر على مسلم، أو نتهمه بالتطرف، لمجرد أنه شدد على نفسه، وأخذ من الآراء الفقهية بما يراه أرضى لربه، وأسلم لدينه، وأحوط لآخرته.

وليس من حقنا أن نجبره على التنازل عن رأيه، ونطالبه بسلوك يخالف ما يعتقده ويدين الله به، كل ما نملكه: أن ندعوه بالحكمة، ونحاوره بالحسنى، ونقنعه بالدليل، عسى أن يدخل فيما نراه أهدى سبيلا، وأقوم قيلا [1].

---

(١) انظر: كتابنا (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) ص٣٨-٤٣.

مظاهر الغلو ودلائله:

فما التطرف أو الغلوّ إذن، وما دلائله ومظاهره؟

أستطيع أن أذكر هنا عدة دلائل ومظاهر أساسية تنبئ عن: الغلو أو التطرف:

١. عدم الاعتراف بالرأي الآخر:

إن أولى دلائل الغلو أو التطرف: هي التعصب للرأي تعصبا، لا يعترف معه للآخرين بوجود، وجمود الشخص على فهمه جمودا لا يسمح له برؤية واضحة لمصالح الخلق، ولا مقاصد الشرع، ولا ظروف العصر، ولا يفتح نافذة للحوار مع الآخرين، وموازنة ما عنده بما عندهم، والأخذ بما يراه بعد ذلك أنصع برهانا، وأرجح ميزانا.

ونحن هنا: ننكر على صاحب هذا الاتجاه ما أنكرناه على خصومه ومتهميه، وهو محاولة الحجر على آراء المخالفين وإلغائها.

أجل، إننا ننكر عليه حقا، إذا أنكر الآراء المخالفة ووجهات النظر الأخرى، وزعم أنه وحده على الحق، ومن عداه على الضلال، واتهم من خالفه في الرأي: بالجهل واتباع الهوى، ومن خالفه في السلوك: بالفسوق والعصيان، كأنه جعل من نفسه نبيا معصوما، ومن قوله وحيا يوحى!

٢. إلزام جمهور الناس بالعزائم والتشديد:

ومن دلائل الغلو: الغفلة عن تفاوت الناس، وأن فيهم الضعيف والقويّ، وأخذهم جميعا بالعزائم والشدائد، مع عدم رعاية ظروفهم في هذا العصر، الذي لا يعين أهله على حسن الالتزام.

وقد قبل الرسول من بعض الناس: الالتزام بالفرائض وحدها، لا يزيد عنها ولا ينقص، وقال: أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق.

بل جعل الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر.

بل القرآن يدل على أن مجرد اجتناب الكبائر يكفِّر الصغائر ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ النساء: ٣١.

ولهذا قلت: إن بحسبنا في هذا الزمن من المسلم: أن يؤدي الفرائض، ويبتعد عن الكبائر، لنعتبره في صف الإسلام وأنصاره.

٣ـ التشديد في غير محله:

ومن مظاهر الغلو: اصطحاب التشديد في غير مكانه وزمانه، كأن يكون في غير دار الإسلام، وبلاده الأصلية، أو مع قوم حديثي عهد بالإسلام، أو حديثي عهد بتوبة.

فهؤلاء ينبغي التساهل معهم في المسائل الفرعية، والأمور الخلافية، والتركيز معهم على الأصول قبل الفروع، والكليات قبل الجزئيات، وأخذهم بالتدرج الحكيم، كما تدرج الإسلام مع أهل الجاهلية في فرض الفرائض، وفي تحريم المحرمات.

ولقد رأيت الإخوة الذين ذهبوا إلى البوسنة والهرسك، وغيرها من البلاد التي رزحت تحت الحكم الشيوعي طويلا، يطالبونهم أول ما يطالبونهم: أن يلتحي الرجال، وينتقب النساء!

ورأيت أخرين: يقيمون معارك في أمريكا وأوروبا، من أجل قضايا خلافية: لاتستحق مثل هذه الضجة، لو كانوا يعلمون.

٤ـ الغلظة والخشونة:

ومن دلائل الغلو: الخشونة في الدعوة، والغلظة في الأسلوب، والفظاظة في التعامل، على خلاف ما دعا إليه القرآن والسنة، من انتهاج الرفق واللين والرحمة في دعوة الناس ومعاملتهم، وقد خاطب الله تعالى رسوله فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: ١٥٩، ذلك لأن الناس لا يطيقون الفظ والغليظ، ولو كان هو رسول الله المؤيد بالوحي، فكيف بغيره من الناس؟

إن آفة كثير من أبناء الصحوة: أنهم يتعاملون مع أقاربهم وجيرانهم، بل مع آبائهم وأمهاتهم بخشونة وعنف، وأنهم يجادلون مخالفيهم بالتي هي أخشن، لابالتي هي أحسن، كما أمر الله، ولذلك ينفرون ولا يبشرون.

٥ ـ سوء الظن بالناس:

ومن دلائل الغلو كذلك: سوء الظن بالناس، وقد حذَّر الله ورسوله منه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الحجرات: ١٢. وفي الصحيح: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» متفق عليه عن أبي هريرة.

وأصل هذا كله: هو الغرور والإعجاب بالذات، والازدراء للغير، وهذه أول معصية ظهرت في الأرض، وهي معصية إبليس، حين تمرّد على السجود لآدم، ورفض أمر ربه، وقال: أنا خير منه.

وفي الحديث: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». [١]

وفيه: «إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس، فهو أهلكَهم». [٢]

روي بفتح الكاف على أنه فعل ماض، أي هو أهلكهم، أي تسبب في هلاكهم بعجبه بنفسه، وسوء ظنه بهم، وتيئيسهم من روح الله تعالى.

كما روي بضم الكاف، أي فهو أشدهم هلاكا بغروره بنفسه، وسوء ظنه بالناس، واتهامه لهم واستعلائه عليهم.

٦ـ السقوط في هاوية التكفير:

ويبلغ هذا الغلو غايته، حين يسقط في هاوية (التكفير)، ويرى نفسه ومن على شاكلته: هو المسلم، وسائر المسلمين من حوله: كفارا، إما لأنهم مرقوا من الإسلام وارتدوا عنه بسوء أعمالهم ومعاصيهم، التي تخرجهم من الملة في رأيه، وإما لأنهم لم يدخلوا في الإسلام أصلا، كما يقول بعضهم، لأنهم لم يفهموا مدلول (لا إله إلا الله).

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة في حديث طويل.
(٢) رواه مسلم.

وهذا ما سقط فيه الخوارج قديما، وما وقعت فيه جماعات التكفير حديثا، فهم يكفرون الحكام، ويكفرون العلماء، لأنهم موظفون في دولة الحكام، ويكفرون الجماهير، لأنهم سكتوا على كفر الحكام، فالتكفير عندهم بالجملة، وهو أمر خطير لأنه يترتب عليه استحلال الدماء والأموال[1]، وهو ما سنعالجه في محور مستقل: من العنف والنقمة، إلى الرفق والرحمة، في هذا الكتاب.

وقد أصدرت من قديم رسالتي: (ظاهرة الغلو في التكفير) لمقاومة هذه الموجة الطاغية المدمرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

مقاومة التفريط والتسيب أيضا:

وكما يجب علينا مقاومة تيار الغلو والتطرف، والتحذير منه، فإن علينا أن نقاوم تيار التفريط والتقصير والتسيب، والتحذير منه أيضا، وكما قال السلف: يضيع هذا الدين بين الغالي فيه والجافي عنه.

ولهذا ألفت كتابي: (الفتوى بين الانضباط والتسيّب) محذرا من الذين يفتون بغير علم، ويقولون على الله ما لا يعلمون، أو الذين يصدرون فتواهم، اتباعا لهوى النفس، أو أهواء الغير، سواء كان هؤلاء الغير حكاما وأمراء يُرجَون ويخشون، أم كانوا من الجماهير: الذين يلتمس كثير من الناس رضاهم وكسب ثنائهم، وفي رأيي: أن السعي لإرضاء الجمهور أشد خطرا من العمل لإرضاء الحكام.

كما أصدرت كتابي: (الاجتهاد بين الانضباط والانفراط) محذرا من الاجتهاد غير المنضبط بضوابط الشرع، وهو الذي لا يصدر من أهله في محله، وأهله هم الذين استكملوا شروط الاجتهاد وأدواته، التي أصلها وفصلها الأصوليون في كتبهم، وبينتها في كتابنا: (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) وهي: المعرفة الناضجة

---

(١) انظر: كتابنا (الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف) مظاهر التطرف: ٤٣-٦٠ .

بالقرآن وعلومه، والسنة وعلومها، والرسوخ في اللغة العربية، وتذوقها ومعرفة دلالاتها الإفرادية والتركيبية، ومعرفة المُجْمَع عليه والمُختلَف فيه، ومعرفة أصول الفقه ولا سيما القياس وعلته وشروطه، وممارسة الفقه والغوص فيه حتى تكون له ملكة الفقيه، ومعرفة الناس والحياة والعصر، والإلمام بثقافته، حتى يتمكّن من معرفة الواقع، ويمكنه أن يحكم له أو عليه.

وقد حذرت من مزالق الاجتهاد، وضربت له أمثلة شتى، كما وضعت المعالم اللازمة لاجتهاد معاصر قويم.

إننا نحذر هنا: من تيارات الانفراط والتسيب، التي تريد أن نذيب الأمة المسلمة في غيرها، وأن تتخلى عن هويتها ومقوماتها وخصائصها، وتسير وراء الأمم القوية في الأرض، وتتبنَّى حضارتها بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، كما قيل، وأن تتبع سننها شبرا بشبر، وذراعا بذراع.

ونحن نريد: أن نبقي على الأمة ذاتيتها وتميزها، مقتبسين من غيرنا أفضل ما عنده: من الآليات والتقنيات ونحوها من المباحات، مما لا يؤثر على عقائدنا ولا على قيمنا، ولا على محكمات شرائعنا، وأساسيات سلوكنا.

وإن كنا لا نركز هنا كثيرا على قضية التفريط أو التسيب؛ لأنها ليست من أمراض الصحوة، لكن من أمراضها وآفاتها: ركوب متن الغلو والتطرف، الذي افترس بعض فصائلها التي ركبت الشطط، وارتكبت الغلط، والخير كل الخير في الوسط.

معالم تيار الوسطية:

ولقد سألني عدد من الإخوة عن: (المعالم المميزة) لتيار الوسطية، الذي عرفت به، ودعوت إليه، وما زلت أدعو إليه، وأومن بأنه: المخلص والملاذ للأمة من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وقد ذكرت هذه المعالم مجملة مركّزة في بعض الأحيان، ومبينة مفصّلة في أحيان أخرى، ولا بأس أن أجمع بين النهجين هنا، فأوجز هذه المعالم، ثم أبينها بما يتسع له المقام.

معالم الفكر الوسطي بإيجاز:

تتميز وسطية هذا الفكر: في موقفه المعتدل من قضايا كبيرة مهمة:

فهو وسط بين دعاة المذهبية الضيقة، ودعاة اللامذهبية المنفرطة.

وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع، وأعداء التصوف، وإن التزم واتَّبع.

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر.

وسط بين المحكّمين للعقل: وإن خالف النص القاطع، والمغيبين للعقل: ولو في فهم النص.

وسط بين المقدّسين للتراث، وإن بدا فيه قصور البشر، والملغين للتراث، وإن تجلت فيه روائع الهداية.

وسط بين المستغرقين في السياسة على حساب التربية، والمهملين للسياسة كلية بدعوى التربية.

وسط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها، والغافلين عنها حتى تسقط في أيدي غيرهم بعد نضجها.

وسط بين المستغرقين في الحاضر الغائبين عن المستقبل، والمبالغين في التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرءونه.

وسط بين المقدّسين للأشكال التنظيمية كأنها أوثان تعبد، والمتحللين من أي عمل منظم كأنهم حبات عقد منفرط.

وسط بين الغلاة في طاعة الفرد: للشيخ والقائد كأنه الميت بين يدي الغاسل، والمسرفين في تحرّره كأنه ليس عضوا في جماعة.

وسط بين الدعاة إلى العالمية دون رعاية للظروف والملابسات المحلية، والدعاة إلى الإقليمية الضيقة دون أدنى ارتباط بالحركة العالمية.

وسط بين المسرفين في التفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر، والمسرفين في التشاؤم فلا يرون إلا الظلام، ولا يرقبون للظلام فجرا.

وسط بين المغالين في التحريم كأنه لا يوجد في الدنيا شيء حلال، والمبالغين في التحليل كأنه لا يوجد في الدين شيء حرام.

وسط بين الذين ينكرون الإلهام مطلقا، فلا يعترفون بوجوده ولا بأثره.. والذين يبالغون في الاعتداد به، حتى جعلوه مصدرا للأحكام الشرعية.

وسط بين دعاة التشدد ولو في الفروع والجزئيات.. ودعاة التساهل ولو في الأصول والكليات.

وسط بين فلسفة المثاليين الذين لا يكادون يهتمون بالواقع.. وفلسفة الواقعيين الذين لا يؤمنون بالمثل العليا.

وسط بين دعاة الفلسفة «الليبرالية» التي تعطي الفرد وتضخمه على حساب المجتمع.. ودعاة الفلسفة الجماعية «الماركسية» التي تعطي المجتمع وتضخمه على حساب الفرد.

وسط بين دعاة الثبات ولو في الوسائل والآلات.. ودعاة التطور ولو في المبادئ والغايات.

وسط بين دعاة التجديد والاجتهاد وإن كان في أصول الدين وقطعياته.. ودعاة التقليد وخصوم الاجتهاد وإن كان في قضايا العصر التي لم تخطر ببال السابقين.

وسط بين الذين يهملون النصوص الثابتة بدعوى مراعاة مقاصد الشريعة.. والذين يغفلون المقاصد الكلية باسم مراعاة النصوص.

وسط بين دعاة الغلو في التكفير حتى كفَّروا كل المسلمين المتدينين.. والمتساهلين فيه ولو مع صرحاء المرتدين.

هذه هي الوسطية التي تبناها هذا الفكر، وإن كان الغالب على مجتمعاتنا اليوم: السقوط بين طرفي الإفراط والتفريط، إلا من رحم ربك، وقليل ماهم.

المعالم الأساسية لتيار الوسطية

لتيار الوسطية معالم أساسية: يحسن بنا أن نذكرها هنا، حتى يستبين هذا التيار لأصحابه أولا، ولمن يريد أن يعرفه ثانيا، ليتميز من تيار الغلو، وتيار التسيب.

وقد قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الأنعام: ٥٥.

فإذا كانت استبانة سبيل المجرمين مطلوبة، فكذلك استبانة سبيل أهل الحق، حتى يتبين الرشد من الغي.

وسبيل أهل الحق يتمثل فيما سماه القرآن: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾، وقال علي ابن أبي طالب: عليكم بالنمط الأوسط، الذي يلحق به التالي، ويرد إليه الغالي.

وأهم هذه المعالم هي:

١ـ تبني التيسير والتبشير:

من معالم «الفكر الوسطي» البارزة: أنه يتبنى التيسير والتبشير، التيسير في الفقه والفتوى، والتبشير في الدعوة والتوجيه، كما شرحناه من قبل، في محور سابق.

في حين يتبنى تيار الغلو: التعسير والتنفير أبدا، منهجه التشديد والتعسير في الفتوى والأحكام، في العبادات أو في المعاملات، للأفراد أو للجماعات، وكذلك التخويف والترهيب في الدعوة، فهو يسوق الناس إلى الله: بسياط الخوف والرهبة، أكثر مما يقودهم إليه: بزمام الرحمة والمحبة.

والتيسر الذي نركّز عليه هنا هو: التيسير في الفروع، على حين يتشدد تيار الوسطية في الأصول (أي الثوابت)، ولا يتهاون فيها، وبهذا نرى أن الوسطية أبدا ملازمة للتيسير والتبشير، وكل من يتبنى المنهج الوسط: تبنى معه ـ لا محالة ـ منهج التيسير والتبشير.

وهو ما وفقني الله تعالى إلى اتباعه، عملا بالمنهج النبوي، الذي دعا إليه الرسول الكريم قولا، وطبّقه عملا، فكان أكثر الناس تيسيرا في فتاويه، وأعظم الناس تبشيرا في دعوته.

وينكر النبي ﷺ على من أفتى بعض أصحابه بوجوب الاغتسال من الجنابة وبه جراحة، فتفاقم عليه الجرح حتى مات، فقال عليه الصلاة والسلام: «قتلوه قتلهم الله! هلا سألوا إذ لم يعلموا، فإنما شفاء العِيِّ: السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم».[1]

وكان من أوصافه عليه الصلاة والسلام: أنه ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما.[2]

والناس في عصرنا: أشد حاجة إلى التيسير من أي عصر مضى، لغربة الدين، وقلة اليقين، وكثرة المغريات بالشر، والعوائق عن الخير. فيلزم الفقيه والداعية أن يقود الناس إلى طاعة الله، وأداء فرائضه بالتيسير عليهم.

وليس معنى التيسير: أن نقسر النصوص قسرا على التيسير، فهذا ما لا نقصده قطعا، ولكن المقصود: أن نتبنى من الآراء والأقوال ما هو أرفق بالناس، وما يخفف عنهم. فلو كان هناك قولان متكافئان أو: أحدهما أحوط والآخر أيسر: أفتينا عموم الناس بالأيسر.

وأما التبشير، فإني أرى كثيرا من الدعاة في عصرنا يغلبون جانب الترهيب على الترغيب، والتخويف على الترجية، ويسوقون الناس إلى الله بعصا الخوف، بدل أن يحركوهم بزمام الرجاء.

وقد شكا إليّ بعض الآباء المثقفين: أن ابنته أمست - منذ مدة - تقوم من النوم فزعة، من رؤى مخيفة تراها في نومها. وذلك بعد أن سمعت شريطا عن (عذاب القبر) لبعض الوعاظ، يشتمل على كثير من (التخويفات) التي نراها في الغالب تعتمد على أحاديث ضعيفة، وربما كانت شديدة الضعف أو موضوعة.

---

(١) رواه أبو داود عن جابر، صحيح الجامع الصغير (٤٣٦٢).
(٢) متفق عليه عن عائشة: اللؤلؤ والمرجان (١٥٠٢).

ومن يقرأ القرآن الكريم لا يجد فيه هذه المبالغات، بل يجده يمزج الخوف بالرجاء، والرهَب بالرغَب، والوعيد بالوعد، والبطش بالرحمة، مزجا رائعا متوازنا.

اقرأ قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ المائدة: ٨٩.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الرعد: ٦.

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ غافر: ٣.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ البروج: ١٢ـ١٤.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ الحديد: ٢٠.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ الحجر: ٤٩، ٥٠.

وفي هذه الآية نجد أنه تعالى جعل المغفرة والرحمة من أسمائه، والعذاب من أفعاله لا من أسمائه.

ولهذا: كانت بدايات الفاتحة، وسور القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ لإشاعة جو الرحمة لا جو البطش والقهر[1].

٢ـ الجمع بين السلفية والتجديد:

وثاني خصائص تيار الوسطية: أنه يجمع بين السلفية والتجديد، أو بين الأصالة والمعاصرة كما يقال اليوم.

فالسلفية تعني: العودة إلى الأصول، إلى الجذور، إلى المنابع. وهي تتمثل في العودة: إلى القرآن والسنة.

---

(١) تناولت هذا المبحث بالتفصيل في محور (من التعسير والتنفير إلى التيسير والتبشير) في هذا الكتاب.

والتجديد يعني: المعايشة للعصر، والمواكبة للتطور، والتحرر من إسار الجمود والتقليد.

ولا بد من إلقاء شيء من الضوء على هذين المفهومين: السلفية والتجديد.

فكثيرا ما تفهم السلفية خطأ، حيث يحسب أنها العودة إلى الماضي بإطلاق، ولو كان ماضي عصور التخلّف والانحراف والجمود.

ولكن المصطلح الإسلامي لا يجعل (السلف) مطلق الماضين، بل السلف هم أهل القرون الأولى، خير قرون هذه الأمة، وأقربها إلى تمثيل الإسلام: فهما وإيمانا وسلوكا والتزاما. ومن عدا هؤلاء يسمون (الخلف).

وليس معنى العودة إلى ما كان عليه السلف: أن نكون نسخا (كربونية) لهم. بل المهم أن نتمثل منهجهم وروحهم في فهمهم وسلوكهم، وتعاملهم مع الدين والحياة.

ومن الخطأ الذي يجب تصحيحه هنا: اعتبار الرسول المؤيد بوحي الله من جملة (السلف)، واعتبار القرآن والسنة: من جملة (التراث)، واعتبار الإسلام كله من جملة (الماضي)!!

فهذا خلط شائن بين المفاهيم، أو تحريف للكلم عن مواضعه عمدا.

إن الإسلام ليس ماضيا انقضى وانتهى زمنه، نحاول أن نستعيده. إن الإسلام هو الماضي، وهو الحاضر، وهو المستقبل، والقرآن هو كلمات الله الهادية الباقية على طول الزمان وامتداد المكان.

وربما يستبعد كثير من الناس أن يرحب الدين بالتجديد، فالدين عندهم يمثل القديم الذي لا يتجدد ولا يتطور.

وأؤكد هنا بكل صراحة: أن نبي الإسلام نفسه هو الذي علمنا أن الدين يتجدد، وأن الله يهيئ له مجددين بين حين وآخر، وذلك في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، وغيرهما، أنه ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». (١)

---

(١) رواه أبو داود في أول كتاب الملاحم من سننه (٤١٩١) والحاكم (٤/ ٥٢٢) وصححه العراقي وغيره. انظر: تجديد الدين في ضوء السنة - مقالنا في مجلة مركز بحوث السنة والسيرة - العدد الثالث. وكتابنا (من أجل صحوة راشدة: تجدد الدين وتنهض بالدنيا).

وإذا صرّح الرسول الكريم بتجديد الدين، فلا يحق لزيد أو عمرو من الناس اليوم أن يقول: إن الدين لا يقبل التجديد، فليس هو أعرف بالدين ممن بعثه الله به. لكن المهم هو تحديد مفهوم التجديد ومجاله وحدوده.

وقد يحسب بعض الناس أن هناك تعارضا حتميا بين السلفية والتجديد. فالسلفية الرجوع إلى الماضي، والتجديد انطلاق إلى المستقبل.

ورأيي عكس ذلك تماما، أي أن هناك تلازما بين السلفية الحقيقية والتجديد الحقيقي. فروح السلفية هو التجديد. وكلما رجعنا إلى العهود الأولى: عهود الصحابة والتابعين وأتباعهم، وجدنا المرونة واليسر والتسامح، وسعة الأفق في فهم نصوص الدين ومصالح الدنيا، وفي التوفيق بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية.

وكلما تدرّجنا - تنازليا - من عصر إلى عصر، بعدنا عن المرونة والتيسير والتجديد، ودخلنا في دائرة (الأحوط) بدل دائرة (الأيسر)، وجنحنا إلى الظواهر أكثر من ميلنا إلى المقاصد، حتى إذا انتهينا إلى العصور المتأخرة، وجدنا الجمود والتقليد، والوقوف عند أقوال المتقدمين، الذين نهوا عن تقليدهم، واتخاذ أقوالهم واجتهاداتهم شرعا يتبع، ودينا يطاع.

بل أكثر من ذلك: أنهم اتبعوا أقوال المتأخرين، الذين يمثلون عصور التخلف والتراجع الحضاري عند المسلمين، فأصبحت كتبهم هي المراجع المعتمدة، وآراؤهم هي التي تحسم الخلاف.

مفهوم التجديد:

أما التجديد: فهو لا ينافي السلفية، والتجديد الحقيقي لأمر ما لا يعني إلغاءه، واستحداث شيء جديد مكانه، بل يعني العودة به إلى ما كان عليه يوم إنشائه وظهوره لأول مرة. كما نعمل في تجديد أي مبنى أثريّ عريق.

وكذلك (تجديد الدين): أن نحافظ على جوهره ومعالمه، وخصائصه، ومقوماته، ونعود به إلى ما كان عليه يوم ظهوره، وبزوغ فجره على عهد رسول الله ﷺ، وخلفائه الراشدين المهديين.

التجديد الحق يعني العودة إلى (الإسلام الأول)، قبل أن تشوبه بدع المبتدعين، وتضييقات المتشددين، وتحريفات الغالين، وانتحالات المبطلين، وتأويلات الجاهلين، وعدوى التشويه التي أصابت الملل والنحل من قبل.

و(الإسلام الأول): هو إسلام النقاء والسهولة في العقيدة، وإسلام الإخلاص واليسر في العبادة، وإسلام الطهارة والاستقامة في الأخلاق، وإسلام الوضوح والتجديد في الفكر، وإسلام الاجتهاد والمرونة في التشريع، وإسلام العمل والإنتاج للحياة، وإسلام التوازن بين الدنيا والآخرة، وإسلام الاعتدال بين العقل والقلب، وإسلام الوسطية بين الفرد والمجتمع.

المهم هنا: ألا نجمد ونتغلق، فتتجمد الحياة معنا، ونظلم ديننا وأنفسنا، وألا ننفرط ونتسيب، فنضيع هويتنا وخصائصنا، ونذوب في غيرنا، فالاجتهاد اليوم فريضة وضرورة: فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع.

على أن من اللازم: أن يكون الاجتهاد من أهله في محله، لا أن يفتح بابه لكل دعيٍّ يقول على الله ما لا يعلم، ولا أن يدعي الاجتهاد في (المنطقة المنغلقة) منطقة (الثوابت) التي لا تقبل الاجتهاد، والتي تحفظ الأمة من التفكك والذوبان.

الخلاصة: أن التجديد الحق لا يكون إلا سلفيًا، والسلفيّة الحقّة لا تكون إلا مجددة.

نحو فقه جديد:

ومن أهم عناصر التجديد لديننا وأمتنا، هو: ما دعوت إليه في كتبي[1] ومحاضراتي في شتى المحافل، فقد دعوت وألححت في الدعوة إلى « فقه جديد » يتبناه الدعاة الصادقون، والعلماء المصلحون، وتتبناه الحركة الإسلامية العالمية، المعبرة عن آمال الأمة الإسلامية.

ولم أقصد بكلمة « الفقه » المعنى الاصطلاحي المعروف عند المسلمين، والذي ألفت فيه الكتب، وتأسست عليه المذاهب، وأنشئت له كليات، وأقيمت له مجامع، وهو: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية، فهذا الفقه موجود، وإن كان يحتاج إلى تجديد وإحياء وتطوير، حتى يكون « فقها ميسرا معاصرا » يفي بحاجات الأمة، ومطالب حياتها المتجددة.

---

(١) وخصوصا كتابي (أولويات الحركة الإسلامية).

ولكن الفقه الذي عنيته: يشمل تجديد هذا الفقه، كما يشمل الفقه بالمفهوم القرآني، الذي نفاه القرآن عن المشركين وعن المنافقين، فوصفهم بأنهم قوم «لا يفقهون» ، وجاء ذلك في القرآن المكي قبل أن تشرع الأحكام العملية، التي هي موضوع الفقه الاصطلاحي.

ويشمل هذا الفقه فيما يشمل: فقه السنن، أعني قوانين الله في الكون والمجتمع، وهي قوانين ثابتة، لا تجامل أحدا، ولا تلين لأحد، فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا.

وكذلك « فقه الموازنات » بين المصالح بعضها وبعض، وبين المضار والمفاسد بعضها وبعض، وبين المصالح والمفاسد إذا تعارضتا، وما هي الموازين التي يجب الرجوع إليها في التقدير والترجيح؟

وكذلك « فقه الأولويات» وأعني به: وضع كل عمل في مرتبته، فلا نصغر الكبير، ولا نكبر الصغير، ولا نقدم ما حقه التأخير، ولا نؤخر ما حقه التقديم. وقد وقع المسلمون في خلل خطير إزاء هذا الفقه، ترتب عليه مفاسد كثيرة، وضاعت من أجل ذلك مصالح كبيرة، وقد نشرت في هذا كتابا بهذا العنوان « في فقه الأولويات ».

ومثل ذلك: « فقه المقاصد » ، فلا ينبغي أن نتمسك بالظواهر، ونغفل المقاصد والأسرار التي يقصد إليها الشرع من وراء هذه النصوص والأحكام، وهذا هو ما جاء فيه الحديث الصحيح: « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»[1].

وليس معنى ذلك: إهمال النصوص الجزئية، كما يزعم بعض دعاة التجديد، بل المقصود الموازنة بين النصوص الجزئية والمقاصد الكلية، بحيث تفهم النصوص في ضوء المقاصد، والجزئيات في ضوء الكليات.

ومن ذلك: «فقه المآلات» آي الآثار والنتائج التي تترتب على الأفعال، فلاينبغي للمكلف أن يعمل العمل، ولا يبالي بآثاره على نفسه وعلى من حوله، وإنما الواجب أن ينظر في نتائجه ومآلاته المرتقبة، يقينا أو ظنا، فقد يؤديه هذا النظر إلى ترك ما يفكر في فعله، أو فعل ما يفكر في تركه، وقد طلب من النبي صلى الله

---

(١) متفق عليه عن معاوية.

عليه وسلم أن يقتل المنافقين المعروفين، مثل عبد الله بن أبي بن سلول وأمثاله، فقال: أخشى أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.

ومن ذلك: «فقه الاختلاف» فقد خلق الله الناس مختلفين، حين منحهم العقل والإرادة، وابتلاهم بالتكليف: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هود: ١٨٨ ـ ١١٩. قال المفسرون: أي وللاختلاف خلقهم، فلا بد أن نتعلم كيف تختلف آراؤنا، ولا تختلف قلوبنا، وقد تحدثت عن هذا الموضوع في كتابي: «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم». وفي كتابي: «كيف نتعامل مع التراث والتمذهب؟».

وقبل ذلك كله: لا بد من (فقه الواقع) الذي نعيشه، ونعاني مشكلاته، ونحاول أن نعالجها من صيدلية الإسلام لا من خارجه.

٣ـ المصالحة بين السلفية والصوفية:

من معالم الوسطية التي ندعو إليها: أن نعقد صلحا بين السلفية والصوفية، فنأخذ من كلٍّ من المدرستين: خير ما عندها، ونخرج من بينهما مزيجا نافعا، كما تفعل النحلة، حين تأكل من كل الثمرات، سالكة سبل ربها ذللا. ليخرج من هذا وذاك شراب مختلف ألوانه، فيه شفاء للناس.

وهذا ما نعبر عنه أحيانا بالعمل على (تصويف) السلفية، و(تسليف) الصوفية، فنحن في حاجة إلى سلفية متصوفة، أو صوفية متسلفة.

فإن بعض السلفيين الأقحاح، تنقصهم دفقة روحانية، وشحنة ربانية، ترطب قلوبهم من الجفاف، وترقق مشاعرهم وعواطفهم، وتحيي وجدانات الإيمان في أنفسهم، من الرجاء والخوف والحياء والحب والشوق، والأنس، والرضا، وهو ما يسميه الصوفية (الأحوال) أو (المنازل) أو (المقامات) وكتب فيه شيخ الإسلام «ابن تيمية» رسالته (التحفة العراقية في الأعمال القلبية)، وكتب فيه «ابن القيم» وأطال النفس في عدد من كتبه.

والصوفية هم فرسان الميدان في هذا الجانب، فليؤخذ عنهم. عن طريق كتب المعتدلين منهم، والمصاحبة للصادقين من رجالهم، فإن التربية بالأسوة والحال: أبلغ من التربية بالخطبة والمقال.

كما أن بعض الصوفيين: تنقصهم دقة الانضباط، بما كان عليه سلف الأمة، من تحرّ للوقوف عند نصوص الشرع وحدوده، في العبادات والمعاملات والأدب، فلا غرو أن يتسرب إليهم بعض الشركيات في العقيدة، والمبتدعات في العبادة، والتجاوزات في الأفكار، والسلبيات في التربية والأخلاق.

والعلماء السلفيون: هم الأسوة في ذلك، لحرصهم، على الالتزام الصارم بالكتاب والسنة، والحذر من كل بدعة.

وأعتقد أن الإمامين « ابن تيمية وابن القيم » كانا يمثلان الوسطية المعتدلة في هذه القضية إلى حد بعيد.

فابن تيمية ينوه بقيمة التصوف السليم، وبأقطابه البعيدين عن البدع الفكرية والعملية. ويشرح بعض كلمات المربي الكبير الشيخ « عبد القادر الجيلاني» في كتابه « فتوح الغيب» ويشيد بكلمته: « الرجل من ينازع القدر بالقدر»! وينكر على من قدح في جميع الصوفية، وقال: إنهم كغيرهم من الطوائف. مثل المتكلمين والفقهاء، فيهم الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات بإذن الله.

ومن قرأ الجزأين الخاصين بالتصوف والسلوك في مجموع فتاوى شيخ الإسلام، استبان له ذلك بجلاء.

ومن قرأ سيرة الرجل، وتابع مسيرة حياته: تبين له أنه من الرجال الربانيين، الذين عاشوا لله لا لأنفسهم، وعُنوا بالباطن قبل الظاهر، وبالحقائق قبل الصور، وبالقلوب قبل الأجساد.

ويتضح ذلك أكثر في مؤلفات تلميذه الإمام «ابن القيم» فقد ألف في موضوعات التصوف جملة من الكتب القيمة، منها:

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين.

وأعظم كتبه هنا، هو بلا شك كتابه الشهير: (مدارج السالكين)، الذي شرح فيه رسالة شيخ الإسلام إسماعيل الهروي الأنصاري الحنبلي: (منازل السائرين إلى مقامات (إياك نعبد وإياك نستعين) وهو كتاب جليل حافل، تجلت فيه شخصية ابن القيم السلفي، الصوفي، الفقيه، الأصولي، المفسر، المحدث، النظار، اللغوي، الأديب، الداعية، المربي، الجامع لفنون المعرفة الإسلامية في عصره، شأنه شأن شيخه رحمهما الله تعالى.

وعلى فصائل الصحوة الإسلامية: أن تقتبس من منهج الإمامين: ابن تيمية وابن القيم: ما يزيل الجفوة بين السلفية والصوفية، وما يعقد صلحا بينهما، من أجل خير الصحوة ومستقبلها، بل من أجل مستقبل الأمة كلها.

٤ـ الاعتدال بين الظاهرية والمؤولة:

ومن معالم الوسطية: الاعتدال والتوازن بين الجمود على ظاهر النص من ناحية، والتوسع في التأويل من ناحية أخرى، بلا مسوغ، ولا ضابط.

ومقتضى هذا: فقدان الثقة بدلالات الألفاظ، ووظيفة اللغة.

وقد تحدثنا عن (سوء التأويل) باعتباره أحد المزالق الخطيرة في تفسير القرآن في كتابنا (كيف نتعامل مع القرآن؟). ونحن نريد الموقف الوسط.

فنحن نجد من يرفض أي فهم جديد لآية من كتاب الله تعالى، أو لحديث من أحاديث رسول الله ﷺ، ولو كان هذا الفهم مما تؤيده اللغة، ويقتضيه السياق، ويتفق مع روح الإسلام، ولا يخالف نصا ثابتا، ولا قاعدة شرعية.

كل عيبه: أنه جديد: لم ينص عليه واحد من المفسرين للقرآن أو الشراح للحديث، أو المستنبطين للنصوص من علماء الفقه.

ونجد في مقابل هؤلاء: من يفتح الباب لتأويلات بعيدة، وتفسيرات معتسفة، أشبه بتأويلات «الباطنية» الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، وبدلوا كلام الله، وأخرجوه عما أريد به إلى معان وضعوها ما أنزل الله بها من سلطان.

فنجد من يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ النساء: ١. النفس الواحدة هي الإلكترون، وزوجها هو البروتون، ومنهما كانت الذرة التي هي أساس الكون، ولو قرأ تكملة الآية لوجدها ترد عليه اعتسافه، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾. أو يقول في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ النمل: ٨٢. إن هذه الدابة: هي الصواريخ التي تحمل الأقمار الصناعية وسفن الفضاء إلى الكواكب!

وآخر يقول في آيات الحدود؛ مثل قوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ المائدة: ٣٨. إن الأمر بالقطع هنا للإباحة لا للوجوب، هذا مع أن الأصل في الأمر القرآني أنه للوجوب إلا إذا صرفته عن ذلك قرينة مانعة. وهنا كل القرائن تدل على الوجوب المؤكد. ويكفي في ذلك تمام الآية نفسها: ﴿ جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

يؤيد ذلك ما صح واستفاض من الأحاديث النبوية المؤكدة لهذا المعنى مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف: تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف: أقاموا عليه الحد. وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». متفق عليه.

ولقد بلغت التأويلات بل التحريفات الباطنية مداها في كتاب المهندس السوري محمد شحرور، الذي ادّعى على القرآن - من المعاني - ما لا يوافقه نقل ولا عقل، وما يناقض ما أجمعت عليه الأمة طوال عصورها، فهو يأتي بدين جديد غير دين الأمة المسلمة، التي عرفته بطريق التواتر اليقيني جيلا بعد جيل. كأن الرسول لم يبين للناس من نزل إليهم، وكأن الصحابة الذين شاهدوا تنزيل القرآن، لم يفهموه ولم يطبقوه في حياتهم، وكأن القرون الأولى - وهي خير قرون الأمة - لم يقولوا شيئا في القرآن، حتى يأتي رجل غير متخصص يلغي تراث الأمة كله، ويبدأ من الصفر، ليقرأ القرآن من جديد قراءة معاصرة، تبعا لهواه ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ القصص: ٥٠.

وفي أحاديث المسيخ الأعور الدجال، ونزول المسيح عيسى بن مريم آخر الزمان، نجد من يركب متن التكلف ويؤول الدجّال: بأنه كناية عن سيادة «الحضارة المادية» التي لا تنظر إلى الحياة إلا بعين واحدة: هي العين المادية، مغفلة العين الأخرى: المتعلقة بالجانب الروحي والإيماني من الحياة.

وآخر يقول: المسيخ الدجّال: كل من يمسخ جمال الحق ويشوهه، فمسيخ بمعنى «ماسخ» لا بمعنى ممسوخ. فليس هو شخصا معينا، وإنما هو مخلوق أو صفة توجد في أناس كثيرين.

وكل هذا تعسّف وبعد عما صحت به الأحاديث التي بلغت حد التواتر، كما بين ذلك المختصون من علماء الأمة.

٥ـ الموازنة بين الثوابت والمتغيرات:

ومن خصائص تيار الوسطية الإسلامية: الموازنة العادلة بين الثوابت والمتغيرات في الإسلام، وتحديد ذلك بوضوح: حتى لا تختلط الأمور، وتذوب الحواجز، وحتى لا نجور على أحد الطرفين لحساب الآخر. وحتى لا نجمد ما من شأنه الحركة والمرونة، ولا نغير ما من شأنه الثبات والدوام.

ومن ثم كان لزاما علينا أن نحدد (ما الثوابت، وما المتغيرات في رسالة الإسلام؟)

الثوابت والمتغيرات:

أما الثوابت فتتمثل أولا في: (العقائد) التي تمثل نظرة الإسلام الكلية: عن الألوهية والعبودية، وبعبارة أخرى عن الله والإنسان وعن الكون بشقيه: المنظور وغير المنظور. وموقف الإسلام هنا: موقف الواصف المخبر عن حقيقة هذه الأشياء، الموجب للإيمان بها كما هي، بلا تهوين ولا تهويل.

وتتمثل الثوابت كذلك في: (العبادات) التي فرضها الله على عباده، قياما بواجب شكره، وحق ربوبيته لهم، مثل الشعائر الركنية الأربع، التي تمثل أركان الإسلام العملية ومبانيه العظام: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وما يكملها من نوافل تقرب المرء من ربه، وتزيد من رصيده عنده، وما يلحق بها من عبادات أخرى مثل الذكر والدعاء وتلاوة القرآن.

ومن الثوابت كذلك: (القيم الأخلاقية العليا)، وأمهات الأخلاق العملية التي تحدد علاقة الإنسان بربه كالإخلاص له، والرجاء في رحمته، والخشية من عقابه . . . وتحدد علاقته بنفسه مثل: النظافة، والعفة، والحياء، والصبر، والشجاعة، والعزة ومحاسبة النفس . . . وتحدد علاقته بأسرته مثل: الرعاية لحقوق الزوجة، وحقوق البنوة، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وتحدد علاقته بالمجتمع مثل: قول الصدق، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، ورعاية الأمانة، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، والعدل مع الصديق والعدو، والبر بالناس، وفعل الخير للجميع وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي بعث النبي ﷺ ليتممها.

وفي الجانب السلبي: أمهات الرذائل التي حذر الإسلام منها أشد التحذير، مثل: القتل، والسرقة، والزنى، والشذوذ الجنسي، وشرب الخمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وشهادة الزور، والكذب والغيبة، والنميمة، والخيانة، وسوء الظن، والغدر، والشح، والظلم، فكل هذه حرام، بل من أكبر المحرمات عند الله.

ومن الثوابت أيضا: (الأحكام القطعية) في شئون الفرد والأسرة والمجتمع، والحكم والعلاقات الدولية، التي ثبتت بالنصوص المحكمة القطعية في ثوابتها ودلالتها. وأجمعت عليها الأمة، واستقر عليها الفقه والعمل.

فهذا النوع من الأحكام: هو الذي يمثل (الوحدة الفكرية والشعورية والسلوكية) للأمة، ويجسد (ثوابتها) على اختلاف البيئات والأقطار، وتغير الأعراف والأعصار.

وفيما عدا هذه الثوابت الراسيات: نجد جل أحكام الشريعة قابلة للاجتهاد وتعدد الأفهام.

وهناك بعد ذلك شئون الحياة المتغيرة: من زراعة وصناعة، وطب وهندسة، وما إلى ذلك مما يتعلق بالعلوم التجريبية وتطبيقاتها في الحياة اليومية، فهذه ونحوها: متروكة لعقول البشر وتجاربهم وممارساتهم - ليس عليهم إلا أن يحكموا فيها منطق العقل والعلم والتجربة، وهي التي ورد في مثلها الحديث الصحيح: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أنس وعائشة.

والإسلام بهذا التوازن: يجمع بين الثبات والتطور، أو الثبات والمرونة في تناسق بديع.

إنه الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب.. الثبات على الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات.. الثبات على القيم الدينية والأخلاقية، والمرونة في الشئون الدنيوية والعلمية.

والإسلام بهذا: يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة، ومع طبيعة الكون الكبير عامة، فقد جاء هذا الدين مسايرا لفطرة الإنسان، وفطرة الوجود.

أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها. ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقي الإنسان، وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور. وكذلك طبيعة الكون من حولنا.

والخطر كل الخطر على الحياة الإسلامية: أن نثبت ما من شأنه المرونة والتطور، أو نطوّر ما من شأنه الثبات والخلود، فتضطرب الحياة، وتختل الموازين.(١)

٦ـ مراعاة الواقع:

ومن معالم هذا التيار: أنه يراعى الواقع المعيش ولا يغفل عنه: سواء في عرض الدعوة الإسلامية والخطاب الديني للمسلمين وغير المسلمين، بحيث يهتم بما يقنع عقولهم، وينير قلوبهم، ويحل مشاكلهم، ولا يسبح بهم في الماضي بعيدا عن الحاضر، ولا في المثاليات الحالمة بعيدا عن الواقع.

وكذلك في تقديم الشريعة الإسلامية، بدلا من الأنظمة والقوانين الوضعية، أو في تقديم الحل الإسلامي بديلا عن الحلول المستوردة من اليمين أو اليسار، فالفقيه الحق ـ كما قال الإمام ابن القيم ـ هو الذي يزاوج بين الواجب والواقع، فلا يعيش فيما يجب أن يكون، مغفلا ما هو كائن.

---

(١) انظر: كتاب (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي) الصادر عن منتدى الفكر العربي، ومجمع بحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ـ الصفحات ٢٤-٥٦ .

وقد نبهت هنا على بعض أشياء، قد تغيب عن بعض الناس، إذا أردنا أن نطبق أحكام الشريعة في واقعنا المعاصر:

أولها: أن كثيرا من المشكلات التي نعانيها اليوم، ونشكو منها، ونختلف في وصف علاج إسلامي لها: قد لا تبرز أصلا في ظل المجتمع الإسلامي الصحيح، لأن بروزها الآن ثمرة لأوضاع غير إسلامية، ونتيجة لمجتمع غير ملتزم بمنهج الإسلام كله، ونظام الإسلام كله. فإذا تغيرت صفة المجتمع، وتغيرت أوضاعه بظهور المجتمع المسلم المتوازن المتكامل ـ بمقوماته وخصائصه وأوضاعه ـ تلاشت تلك المشكلات أو انكمشت، ولم تعد تكوّن مشكلة حقيقية.

ثانيها: أن من الناس من يتصور أن كل ما في مجتمعنا الحالي مخالف للإسلام، وأن كل الأنظمة والقوانين والمؤسسات ستهدم وتبنى من جديد. وهذا ليس بتصور سليم. فأكثر الأنظمة والقوانين والمؤسسات القائمة ستبقى، ولكن بعد أن تنقى من العناصر الغريبة المنافية للإسلام، وتطعم بالعناصر الإسلامية الخالصة، وبهذا: تكتسب الشرعية، وتستحق البقاء باسم الإسلام.

ثالثها: أن قيام نظام إسلامي في مجتمع، لا يعني تغيير كل ما يراد تغييره فيه ما بين عشية وضحاها، فمن الناس من يتصور في المجال الاقتصادي مثلا: أنه ـ بمجرد انتصار الاتجاه الإسلامي، والعودة إلى تطبيق شريعة الله ـ لا يطلع صباح اليوم التالي، إلا وقد صدرت الأوامر بإغلاق المصارف (البنوك) الربوية السائدة وشركات التأمين وتسريح موظفيها، وفرض الحراسة على ممتلكاتها، . . . إلخ وتبعا لهذا التصور يتوقعون زلزلة الاقتصاد، وتعطيل المصالح، واختفاء رءوس الأموال، وغير ذلك من النتائج والآثار.

وهذا التصور: إنما جاء نتيجة القصور في فهم المنهج الإسلامي في علاج الواقع الفاسد، وتغيير المنكر القائم، وبناء المجتمع الصالح.

مبادئ ثلاثة تراعى في تغيير الواقع:

فهناك مبادئ ثلاثة، لا بد أن توضع في الاعتبار عند الاتجاه إلى تطبيق النظام الإسلامي، وإقامة المجتمع المسلم المتكامل المنشود.

أ ـ رعاية الضرورات:

هناك مبدأ (الضرورات) التي اعترف بها الشرع، وجعل لها أحكامها، وتقرر ذلك في قواعد فقهية عامة، أصّلها علماؤنا في كتب (القواعد الفقهية) وفي كتب (الأشباه والنظائر) هي: (الضرورات تبيح المحظورات ـ الضرورة تقدر بقدرها ـ الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة).

ولهذا المبدأ أدلته الكثيرة من الشرع في باب الأطعمة وغيره. وهو مبدأ مسلَّم به مُجمع عليه. والضرورات الشرعية ليست كلها فردية، كما قد يتوهم. فللمجتمع ضروراته، كما للفرد ضروراته، فهناك ضرورات اقتصادية، وسياسية، وعسكرية، واجتماعية، لها أحكامها الاستثنائية، التي توجبها الشريعة، مراعاة لمصالح البشر، التي هي أساس التشريع الإسلامي كله.

ب ـ ارتكاب أخف الضررين:

مبدأ السكوت على المنكر: إذا ترتب على تغييره منكر أكبر منه، دفعا لأعظم المفسدتين، وارتكابا لأخف الضررين. وبناء على هذا المبدأ يقرر الفقهاء طاعة الإمام الفاسق إذا لم يمكن خلعه إلا بفتنة وفساد أكبر من فسقه. ومما يستدل به لهذا المبدأ: حديث النبي ﷺ لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لهدمت الكعبة، وبنيتها على قواعد إبراهيم»[1]. ومن ذلك إبقاؤه ﷺ على المنافقين، وترك التعرض لهم، مع علمه بنفاق بعضهم على التعيين، وتعليله ذلك بقوله: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي»[2].

---

(١) متفق عليه عن عائشة. انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان. الأحاديث: ٨٤١-٨٤٣.

(٢) رواه أحمد والشيخان عن جابر. انظر: صحيح الجامع الصغير (٥٨٧٨).

جـ ـ مراعاة سنة التدرج:

المبدأ الثالث: هو مبدأ (التدرج) الحكيم، الذي نهجه الإسلام عند إنشاء مجتمعه الأول، فقد تدرج بهم في فرض الفرائض كالصلاة والصيام والجهاد، كما تدرج بهم في تحريم المحرمات: كالخمر ونحوها.

وعند تجدد ظروف مماثلة لظروف قيام المجتمع الأول أو قريبة منها: نستطيع الأخذ بهذه السنة الإلهية، سنة (التدرج) إلى أن يأتي الأوان المناسب للحسم والقطع. وهو تدرج في (التنفيذ)، وليس تدرجا في (التشريع) فإن التشريع قد تم واكتمل باكتمال الدين، وإتمام النعمة، وانقطاع الوحي: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ المائدة: ٣.

ومن الشواهد التي تذكر هنا: ما رواه المؤرخون عن الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز، الذي عده كثير من أئمة الإسلام خامس الراشدين، أن ابنه عبد الملك قال له يوما: يا أبت ما لك لا تنفذ الأمور؟ فوالله! ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق!

يريد الشاب التقى المتحمّس من أبيه ـ وقد ولاه الله إمارة المؤمنين ـ أن يقضي على المظالم وآثار الفساد دفعة واحدة، دون تريث ولا أناة، وليكن بعد ذلك ما يكون. فماذا كان جواب الأب الصالح، والخليفة الراشد، والفقيه المجتهد؟

قال عمر: « لا تعجل يا بني! فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة: فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة »[(١)].

وهذا هو اليسر، وتلك هي الواقعية في منهج الإسلام العظيم.[(٢)]

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٢/ ١٤).

(٢) انظر: كتابنا (بينات الحل الإسلامي) ص ٢٠٨-٢١٣ . ط. وهبة.

٧ـ الدعوة إلى التسامح والتعايش مع الآخرين:

ومن معالم هذا التيار: أنه يرفض العنف، ويدعو إلى التعايش، والتسامح مع الآخرين، ممن يخالفونه في العقيدة أو في المنهج، كما وضحت ذلك في كتابي: (غير المسلمين في المجتمع الإسلامي).

كما يدعو إلى إقامة جسور للحوار معهم، على اختلاف طوائفهم واتجاهاتهم. وقد شاركت في بعض هذا الحوار في العام الماضي (٢٠٠١م)، في روما في القمة الإسلامية المسيحية التي دعت إليها جمعية (سانت جديو) في أكتوبر ٢٠٠١م، وفي مؤتمر القاهرة: الذي دعا إليه منتدى الحوار الإسلامي، المنبثق عن المجلس الأعلى للدعوة والإغاثة.

فهو يدعو للحوار مع الإسلاميين: بعضهم مع بعض، ويميز بين الاختلاف المشروع والتفرق الممنوع، ويرى أن الاختلاف في مسائل الفروع ضرورة، ورحمة وسعة، ضرورة اقتضتها طبيعة الدين، وطبيعة اللغة، وطبيعة البشر، وطبيعة الكون والحياة. وقد بينت ذلك في كتابي: (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم).

كما دعوت في كتابي: (أولويات الحركة الإسلامية) إلى الحوار مع غير الإسلاميين .. مع المنصفين من القوميين والعلمانيين، وقد شاركت في المؤتمر القومي الإسلامي، وكنت عضوا في اللجنة التحضيرية التي أعدت الورقة التي قدمها الجانب الإسلامي، وحضرت أكثر من دورة من دورات هذا المؤتمر الذي جمع المعتدلين من الإسلاميين ومن القوميين: على قضايا أساسية تهم الفريقين، ولا سيما قضية فلسطين، وأحسب أنه كانت له ثمار طيبة. كما حضرت مؤتمرا في بيروت تحت عنوان: (مسلمون ومسيحيون معا من أجل القدس) التقى فيه مشايخ الإسلام مع آباء المسيحية في العرب: جنبا إلى جنب، من أجل القضية المقدسة: قضية القدس.

كما ناديت بالحوار: مع العقلاء من الحكام، لإزالة الفجوة أو الجفوة التي بين العلماء والدعاة العاملين للإسلام، والحكام الذين يخافون من التيار الإسلامي، ويتوجسون شرًا من الدعاة إليه. وأعتقد أن الحوار البنَّاء هنا: يوضح كثيرا من المواقف، ويقرب كثيرا من المسافات، ويعالج كثيرا من المخاوف والهواجس.

كما ناديت بالحوار مع الغربيين أنفسهم، على المستوى الديني: (مع رجال الدين الكبار) وعلى المستوى الفكري: (مع المستشرقين وكبار الكتاب) وعلى المستوى السياسي: (مع الذين يصنعون القرار أو يؤثرون في صنعه من السياسيين).

٨ـ تبني الشورى والحرية للشعوب:

ومن معالم هذا التيار: أنه يدعو إلى التعددية السياسية، ويرى تعدد الأحزاب السياسية أشبه بتعدد المذاهب في الفقه، وقد قلت: إن الأحزاب مذاهب في السياسة، كما أن المذاهب إنما هي أحزاب في الفقه! ويقاوم الاستبداد السياسي أيا كان نوعه. ولا سيما ما قام باسم الدين، ويرفض اتباع كل جبار عنيد، يستخف قومه فيطيعونه، فإن الإسلام ينكر من أمَّ قوما في الصلاة، وهم له كارهون، فإذا كان هذا في الإمامة الصغرى، فكيف بالإمامة الكبرى؟

كما يحارب كل نمرود أو فرعون: يدعي الألوهية ـ قولا أو فعلا ـ، ويدعو الناس جميعا إلى كلمة سواء: ﴿**أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ آل عمران: ٦٤.

ويرى أن الشورى واجبة، وأن رأي الأكثرية ملزم للأقلية، وأن من الواجب اتخاذ ضمانات الديمقراطية وأساليبها لتقليم أظفار الطغاة والمتسلطين.

وهذا ما وضحته في أكثر من فتوى لي في الجزء الثاني من كتابي: (فتاوى معاصرة) وخصوصا فتوى: (الإسلام والديمقراطية) وفتوى: (تعدد الأحزاب في الدولة الإسلامية) وفي كتبي الأخرى، ولا سيما كتاب: (من فقه الدولة في الإسلام) وكتاب: (السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها).

٩ـ إنصاف المرأة باعتبارها شقيقة الرجل:

ويتجلّى ذلك في: وقوفه بجانب المرأة، ضد تيارين مرفوضين: التيار المتشدد، الذي ينظر بريبة إلى المرأة، ويجسد تعنت الرجال، وظلمهم لها، وجورهم على حقوقها المشروعة: في التجمل، وفي التعليم، وفي العمل، وفي التصويت، وفي الترشيح للمجالس النيابية، وفي ممارسة الأنشطة المختلفة في المجالات الثقافية، والمجالات الاجتماعية، والمجالات السياسية.

والتيار الآخر: تيار التبعية للحضارة الغربية المعاصرة، التي تنظر إلى المرأة وكأنها مجرد جسد، وتعاملها كأنها رجل، ناسية أنها إنسان له روح وجسد، وأنها ليست رجلا، وإنما هي شقيقة الرجل، ولهذا ظهر عند الغربيين ما سمي: (الجنس الثالث) الذي لم يعد امرأة، ولم يصبح رجلا. وجنت الإباحية على الأسرة، وعلى الأخلاق.

والواجب على المجتمع المسلم حماية المرأة من تقاليد الشرق الموروثة من عهود التراجع الإسلامي، ومن تقاليد الغرب الوافدة، التي تريد أن تسلخ المرأة من ذاتيتها.

ويتخذ تيار الوسطية موقفه انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ التوبة: ٧١.

وقد ألقيت ضوءا على هذه القضايا وأمثالها، في أكثر من كتاب لي، وخصوصا الجزء الثاني من كتابي: (فتاوى معاصرة) وفي كتابي: (ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده). وفي رسالة: (مركز المرأة في الحياة الإسلامية) من رسائل ترشيد الصحوة.

١٠ـ إحياء الاجتهاد:

تيار الوسطية يرى أن: الاجتهاد فريضة وضرورة، فريضة يوجبها الشرع، وضرورة يحتمها الواقع، ويحترم نتائج الاجتهاد، وإن خالفت رأيه، ما دام صادرا من أهله في محله، ويتبنى ما قاله أمير المؤمنين في الحديث، وإمام الفقه والورع: سفيان بن سعيد الثوري ـ رحمه الله ـ «إنما الفقه الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد»[١]. يتبنى قاعدة المنار الذهبية: «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه»[٢].

وإني لموقن يقينا لا ريب فيه: أن الفقه الإسلامي المعبّر عن شريعة الإسلام ـ بمصادره الغنية، وأصوله المحكمة، وقواعده الضابطة، ومدارسه الاجتهادية، وثروته الفكرية ـ لجدير أن يمد الأمة بكل ما تحتاج إليه: من فتاوى وأقضية وتشريعات: تحقق المصلحة، وتدرأ المفسدة، وتلائم الفطرة، وتقيم الموازين القسط بين الناس.

---

(١) ذكره أبو نعيم في (الحلية) وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) والنووي في مقدمات (المجموع) في شرح المهذب (١/ ٤٢).

(٢) راجع تدليلنا على صحة هذه القاعدة في كتابنا (فتاوى معاصرة) (٢/ ١٣٠-١٣٩) طبعة دار الوفاء ـ القاهرة. وطبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٩ ـ من العنف والنقمة
إلى الرفق والرحمة

منهج الدعوة يقوم على الرفق:

إن منهج الدعوة الإسلامية: يقوم على الرفق واللين، والرقة والرحمة، ولا يقوم على العنف والشدة، والغلظة والنقمة.

ولقد رسم القرآن منهج الدعوة، بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ النحل: ١٢٥.

والدعوة بالحكمة تعني: الخطاب الذي يقنع العقول بالحجة والبرهان.

والموعظة الحسنة تعني: الخطاب الذي يستميل العواطف، ويؤثر في القلوب رغبا ورهبا.

والجدال بالتي هي أحسن، يعني: الحوار مع المخالفين بأحسن الطرق، وأرق الأساليب، التي تقربهم ولا تبعدهم.

وقد رأينا القرآن الكريم: وهو يعرض لنا قصص الرسل عليهم السلام، وكيف خاطبوا أقوامهم بالحسنى، كما في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء: ١٠٥ ـ ١٠٩.

وفي سورة نوح، يقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نوح: ٢ ـ ٤.

فانظر؛ كيف بدأ خطابهم بقوله: (يا قوم) يذكرهم: أنه واحد منهم، وليس غريبا عنهم.

وانظر خطاب إبراهيم لقومه، وكيف تدرج معهم، حين رأى في الليل كوكبا، قال: هذا ربي، فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، ثم القمر، ثم الشمس، حتى

قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: ٧٦ـ٧٩.

وانظر خطابه لأبيه وترفقه به: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ مريم: ٤٢ ـ ٤٥. إلى أن رد أبوه بقوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ مريم: ٤٦، ٤٧.

وانظر إلى موسى وأخيه هارون، حين بعثهما الله إلى فرعون، وأوصاهما بتليين القول له: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه: ٤٣، ٤٤.

ولذا وجدنا موسى عليه السلام، حين ذهب إلى فرعون، قال له: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ النازعات: ١٨، ١٩. بهذه الصيغة المأنوسة الرقيقة.

ودخل رجل على المأمون يعظه، فقال له: اتق الله أيها الظالم الفاجر، فقال له المأمون ـ وكان على علم وفقه ـ: يا هذا! إن الله بعث من هو خير منك، إلى من هو شرٌّ مني، وأمره بالرفق. بعث موسى وهارون وهما خير منك، إلى فرعون، وهو شر مني، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ طه: ٤٤.

الرسول يدعو إلى الرفق وينكر العنف:

ومن قرأ سنة الرسول الكريم القولية: ممثلة في أحاديثه عليه الصلاة والسلام، أو قرأ سنته العملية: ممثلة في سيرته ﷺ: يجد أسلوب الرفق واللين واللطف، في الدعوة والمعاملة: شديد الوضوح والعمق، في أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

وحسبنا أن ننقل من كتاب مثل: (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري فيما أورده من أحاديث صحاح وحسان، في الترغيب في الرفق والحلم.

وأولها: حديث عائشة: «إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله».

وينبغي لنا: أن نذكر هنا سبب ورود هذا الحديث، كما رأته وروته أم المؤمنين عائشة، فهي شاهد عيان، وكما رواه البخاري في صحيحه: قالت: استأذن رهط من اليهود على النبي ﷺ، فقالوا (أي للنبي): السام عليك. فقلت: بل عليكم السام واللعنة، فقال: يا عائشة: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله. قلت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: قلت: وعليكم»[1].

فهؤلاء اليهود من سوء أدبهم وسوء طويتهم: لوَّوا ألسنتهم، وحرفوا الكلم، فبدل أن يقولوا: السلام عليك، قالوا: السام، أي الموت والهلاك. ولكن الرسول الكريم من حسن أدبه، وعظمة خلقه، لم يرد أن يجعل من ذلك معركة، بل رد بهذه الكلمة النبيلة قائلا: «وعليكم». أي أن الموت مكتوب على كل البشر، علينا وعليكم. ثم علم عائشة هذا الأدب الرفيع، أدب الرفق في التعامل، حين قال لها: «يا عائشة! إن الله رفيق، يحب الرفق في الأمر كله».

ونسوق بقية الأحاديث ـ التي انتقيناها هنا ـ في كتابنا: (المنتقى من الترغيب والترهيب):

منها: ما رواه مسلم عن عائشة: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»[2].

وعنها أيضا، عن النبي ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[3].

وعن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ، قال: «إن الله عز وجل، ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخُرْق، وإذا أحب الله عبدا أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا الخير»[4].

---

(١) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين (٦٩٢٧).

(٢) رواه مسلم عن عائشة (٢٥٩٣).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٤).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٢) والطبراني ورواته ثقات، وأبو داود مختصرا.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: « من أعطي حظه من الرفق: فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق: فقد حرم حظه من الخير»(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: « دعوه، وأريقوا على بوله سَجْلا من ماء ـ أو ذنوبا من ماء ـ، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين »(٢).

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: « يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»(٣).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين قَطُّ إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى»(٤).

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ؛ قال: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان، وما أحد أكثر معاذير من الله، وما من شيء أحب إلى الله من الحمد »(٥).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ للأشج: « إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة»(٦).

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بُرْد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله، ﷺ، وقد أثَّر بها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال:

---

(١) رواه الترمذي (٢٠١٤) وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري (٢٢٠) والسجل بفتح السين المهملة، وسكون الجيم: هو الدلو الممتلئة ماء. والذنوب بفتح الذال المعجمة: مثل السجل، وقيل: هي الدلو مطلقا سواء كان فيها ماء أم لم يكن، وقيل: دون الملأى.

(٣) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١١٣١).

(٤) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٥٠٢).

(٥) رواه أبو يعلى وقال الهيثمي: رواته رواة الصحيح. انظر: المجمع: (٨/ ١٩). ونسبه في «الجامع الصغير» إلى البيهقي في «الشعب»، وسنده عنده ضعيف كما في « الفيض ».

(٦) رواه مسلم (١٧).

يامحمد! مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»[1].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ، يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «اللهم! اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[2].

الإسلام دين الرحمة:

وكما دعا الإسلام إلى الرفق، وحذر من العنف، في الدعوة والتعامل: نجده كذلك دعا إلى الرحمة، واعتبرها جوهر أخلاقه، ونهى عن القسوة وذمها، وذم من اتصف بها: أشد الذم.

فقد قص القرآن علينا قصة البقرة، التي حدثت في بني إسرائيل، ثم عقب عليها بتوجيه الخطاب لهم بقوله: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ البقرة: ٧٤.

بل ذكر القرآن: أن قسوة القلوب عند بني إسرائيل، كانت عقوبة إلهية لهم على عصيانهم، ونقضهم مواثيقهم وعهودهم مع الله تعالى، كما قال سبحانه ـ بعد أن ذكر ما أخذ عليهم من ميثاق ـ: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً** ﴾ المائدة: ١٣. والتوراة نفسها: تصفهم بأنهم الشعب الغليظ الرقبة.

أما أمة الإسلام: فإنها مأمورة بالرحمة، موصوفة بها، بل إن رسالتها نفسها قائمة على الرحمة، بل هي الرحمة ذاتها، كما جاء في القرآن الكريم، فقد خاطب الله رسوله بقوله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

فهو عليه السلام: ليس رحمة لجنس العرب أو الشرقيين، أو حتى المسلمين وحدهم، بل هو رحمة للعالمين. لأن رسالته رسالة عالمية، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ الأعراف: ١٥٨.

---

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (٦٢٩).

(٢) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١١٠٧).

وما دامت دعوته ورسالته للناس جميعا: فإن الرحمة المقترنة بها للناس جميعا، وإن كان أكثر الناس انتفاعا بهذه الرحمة: هم الذين آمنوا به واتبعوه واهتدوا بهديه، فهم يعيشون في جو هذه الرحمة: إيمانا، وتعبدا، وفكرا، وخلقا، وسلوكا، وتعاملا.

ذلك: أن أكثر الناس استفادة من علم الطبيب النطاسي وتجربته: هو من يؤمن بطبِّه، ويلجأ إليه، ويأخذ منه، ويعالج على يديه. وهذا هو سر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٥٧. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الإسراء: ٨٢.

وقال لرسوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل: ٨٩.

ولقد عبّر محمد ﷺ عن نفسه ودعوته، بعبارة موجزة، فقال: «إنما أنا رحمة مهداة»[1].

فهو رحمة مهداة من الله: للعالمين عامة، وللمؤمنين خاصة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١٢٨.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ التوبة: ٦١.

ولا أجد في تعاليم نبي من الأنبياء ـ من الدعوة إلى الرحمة، والحث عليها، والترغيب في التخلق بها، ومعاملة الناس جميعا، بل الحيوانات على أساسها ـ ما أجد في تعاليم محمد، عليه الصلاة والسلام.

وأكتفي بأن أنقل جملة أحاديث، من بعض ما انتقيته من كتاب الإمام المنذري في (الترغيب الترهيب)، في فصل (الترغيب في الشفقة على خلق الله تعالى، من

---

(١) الحاكم (١/ ٣٥) وصححه ووافقه الذهبي.

الرعية والأولاد، والعبيد، وغيرهم، ورحمتهم، والرفق بهم والترهيب من ضد ذلك، ومن تعذيب العبد، والدابة، وغيرهما بغير سبب شرعي، وما جاء في النهي عن وَسْم الدواب في وجوهها)، وقد سرد هنا: جملة وافرة من الأحاديث، ننتقي منها ما يلي:

عن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: « من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله »[1].

وفي رواية لأحمد: « ومن لا يغفر، لا يغفر له »[2].

وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع النبي ﷺ يقول: « لن تؤمنوا حتى ترحموا » قالوا: يا رسول الله! كلنا رحيم! قال: « إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة »[3].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: « الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[4].

وعنه رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: « ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرِّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»[5].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت الصادق المصدوق صاحب هذه الحجرة، أبا القاسم، ﷺ يقول: « لا تُنزع الرحمة إلا من شقي»[6].

---

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٤٩٨).

(٢) وقال الهيثمي: رجال أحمد رجال الصحيح. انظر: المجمع (١٠/١٩٣).

(٣) رواه الطبراني وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. انظر: المجمع (٨/٧٨).

(٤) رواه أبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٥) وقال: حسن صحيح.

(٥) رواه أحمد برقم (٦٥٤١) وقال شاكر: إسناده صحيح، ورواه البخاري في الأدب المفرد. والأقماع: جمع قمع ـ بكسر القاف وفتح الميم ـ وهو: الإناء الذي يوضع في رءوس الظروف لتملأ بالمائعات. شبه الذين يستمعون القول ولا يعونه ولا يعملون به بالأقماع التي لا تمسك شيئا مما يفرغ فيها.

(٦) رواه أبو داود (٤٩٤٢) والترمذي (١٩٢٤) وقال: حسن. ورواه ابن حبان (٢٠٦٥) وقال الشيخ شعيب: إسناده حسن.

وعنه ـ رضي الله عنه؛ قال ـ قبَّل رسول الله ﷺ : الحسن أو الحسين بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبَّلت منهم واحدا قَطُّ، فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال: «من لا يرحم لا يُرحم»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: جاء أعرابي إلى رسول الله، ﷺ، فقال: إنكم تُقَبِّلون الصبيان وما نقبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو أملك لك: أن نزع الله الرحمة من قلبك»(٢).

وعن معاوية بن قرَّة، عن أبيه رضي الله عنه؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، إني لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: «إن رحمتها رحمك الله»(٣).

وقد تقدم حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلا أضجع شاة، وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك، قبل أن تضجعها؟!»(٤).

وعن ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ؛ قال: «ما من إنسان، يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها: إلا يسأله الله عنها يوم القيامة» قيل: يا رسول الله! وما حقها؟ قال: «حقها: أن تذبحها فتأكلها، ولا تقطع رأسها فترمي به»(٥).

وعن ابن سيرين؛ أن عمر ـ رضي الله عنه ـ رأى رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له: «ويلك: قُدها إلى الموت قودًا جميلا»(٦).

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أنه مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا ـ أو دجاجة ـ يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن

---

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٤٩٧).
(٢) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٤٩٦).
(٣) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣١).
(٤) رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح على شرط البخاري وقال المنذري: رجال الطبراني رجال الصحيح، ونحوه قال الهيثمي (٤/ ٣٣).
(٥) رواه النسائي، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣٣) ورواه أحمد في المسند (٦٥٥١) وصححه الشيخ شاكر.
(٦) رواه عبد الرزاق موقوفا في المصنف (٨٦٠٥).

عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله، ﷺ: لعن من اتخذ شيئا ـ فيه الروح ـ غرضا»[1].

وعن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا مع رسول الله، ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة معها فَرْخَان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرِّش، فجاء النبي ﷺ، فقال: «من فجع هذه بولديها؟ ردّوا ولديها إليها». ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «من حرق هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»[2].

وعن عبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أردفني رسول الله ﷺ: خلفه ذات يوم، فأسَرَّ إلي حديثا، لا أحدث به أحدا من الناس، وكان أحبُّ ما استتر به النبي ﷺ، لحاجته: هدفا، أو حائش نخل[3]، فدخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي ﷺ حَنَّ، وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله، ﷺ، فمسح ذفْرَاه[4] فسكت فقال: «من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصَار فقال: لي يا رسول الله، فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة، التي ملكك الله إياها؛ فإنه شكا إلي أنك تجيعه، وتُدْئِبه»[5].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

---

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٢٧٩). و«الغرض» بفتح العين المعجمة والراء ـ: هو ما ينصبه الرماة، يقصدون إصابته، من قرطاس وغيره.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الجهاد (٢٦٧٥) وهو من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه. وقد رجح البخاري وابن أبي حاتم سماعه منه. وصحح الترمذي حديثا عنه. والرواية فيه «تفرش» بدل «تعرض» والتفريش مأخوذ من فرش الجناح وبسطه، والتعريش أن يرتفع فوقهما ويظلل عليهما. «قرية نمل»: هي موضع النمل مع النمل.

(٣) الهدف: ما انتصب وارتفع من بناء وغيره. والحائش: النخل الملتف المجتمع.

(٤) ذفراه: مؤخرة رأسه، وهو الموضع الذي يعرق من قفاه.

(٥) تدئبه: تكده وتتعبه بالعمل المتواصل دون إعطائه حقه من الراحة. والحديث رواه أحمد من مسند عبد الله بن جعفر (١٧٤٥) وقال شاكر: إسناده صحيح، وهو عند أبي داود (٢٥٤٩).

وفي رواية: «عُذِّبت امرأة في هرة سجنتها[1] حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض»[2].

ورواه أحمد: من حديث جابر، فزاد في آخره: «فوجبت لها النار بذلك».

وعن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه؛ قال: مرّ الرسول ﷺ: ببعير قد لصق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المُعْجَمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة» رواه أبو داود، وابن خزيمة في «صحيحه» إلا أنه قال: «قد لحق ظهره»[3].

وعن أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ، صلّى صلاة الكسوف، فقال: «دنت مني النار حتى قلت: أي رب! وأنا معهم، فإذا امرأة ـ حسبت أنه قال: تخدشها هرة ـ قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعا»[4].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئرا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من شدة العطش، قال: لقد بلغ هذا الكلبَ مثلُ الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقيَ، فسقى الكلب! فشكر الله له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائمَ أجرا؟ قال: في كل كبد رطبة أجر»[5].

وعن أبي مسعود البدري ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت أضرب غلاما لي بالسوط، فسمعت صوتا من خلفي: اعلم أبا مسعود! فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني، إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود! أن الله عز وجل أقدر عليك منك على هذا الغلام» فقلت: لا أضرب مملوكا بعده أبدا.

وفي رواية: فقلت: يا رسول الله! هو حرّ لوجه الله تعالى، فقال: «أما، لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمستك النار»[6].

---

(١) فكيف بمن يسجن ألوف المؤمنين بغير جرم جنوه؟!

(٢) رواه البخاري (٣٤٨٢) وغيره.

(٣) ورقمه عند أبي داود (٢٤٥٨)، ورواه أيضا أحمد (٤/ ١٨٠، ١٨١)، وابن حبان (٥٤٥) قال الشيخ شعيب: إسناده صحيح. وصححه النووي في «الرياض».

(٤) رواه البخاري (٢٣٦٤).

(٥) رواه البخاري (٢٤٦٦) ومسلم (٢٢٤٤) وانظر: اللؤلؤ والمرجان (١٤٤٧).

(٦) رواه مسلم (١٦٥٩) وأبو داود (٥١٥٩) والترمذي (١٩٤٩) وقال: حسن صحيح.

وعن زاذان - وهو الكندي مولاهم، الكوفي - قال: أتيت ابن عمر، وقد أعتق مملوكا له، فأخذ من الأرض عودا أو شيئا، فقال: ما لي فيه من الأجر ما يساوي هذا، سمعت رسول الله، ﷺ يقول: «من لطم مملوكا له أو ضربه، فكفارته: أن يُعتقه» رواه أبو داود واللفظ له، ورواه مسلم؛ ولفظه قال: «من ضرب غلاما له حدا لم يأته أو لطمه، فإن كفارته أن يعتقه»[١].

وعن عمار بن ياسر - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ: «من ضرب مملوكه ظلما: أُقِيد (أي اقتص) منه، يوم القيامة»[٢].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال أبو القاسم ﷺ، نبيُّ التوبة: «من قذف مملوكه بريئا مما قال: أقيم عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وشرابه وكسوته، ولا يكلَّف إلا ما يطيق، فإن كلفتموهم فأعينوهم، ولا تعذبوا عباد الله، خلقا أمثالكم»[٤].

وعن عمرو بن حريث - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ؛ قال: «ما خفّفتَ على خادمك من عمله: كان لك أجرا في موازينك»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ضرب سوطا: ظلما اقتصّ منه يوم القيامة»[٦].

وعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ في بيتي، وكان بيده سواك، فدعا وصيفة له - أو لها - حتى استبان الغضب في وجهه، وخرجت

---

(١) ورقمه عند أبي داود (٥١٦٨) وأخرجه مسلم (١٦٥٧). وكلام ابن عمر يعني: أنه أعتقه كفارة عن ضربه له.

(٢) رواه الطبراني وقال الهيثمي: رواته ثقات. انظر: المجمع (٤/ ٢٣٨).

(٣) رواه البخاري (٦٨٥٨) ومسلم (١٦٦٠).

(٤) رواه ابن حبان (١٢٠٥) وقال الهيثمي في الموارد: قلت: في الصحيح بعض أوله.

(٥) رواه ابن حبان (٤٣١٤) وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.

(٦) رواه البزار والطبراني وقال الهيثمي: إسناده حسن. انظر: المجمع (١٠/ ٣٥٣).

أم سلمة إلى الحجرات، فوجدت الوصيفة وهي تلعب ببهمة فقالت: ألا أراك تلعبين بهذه البهمة، ورسول الله ﷺ يدعوك؟ فقالت: لا، والذي بعثك بالحق! ما سمعتك، فقال رسول الله ﷺ: «لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك»(١).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ، مر على حمار قد وُسِمَ في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»(٢).

وفي رواية له: نهى رسول الله، ﷺ: عن الضرب في الوجه، وعن الوَسْم في الوجه.

ورواه الطبراني، بإسناد جيد مختصر: أن رسول الله، ﷺ: لعن من يسم في الوجه (٣).

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: مرّ حمار برسول الله ﷺ: قد كوي في وجهه، يفور منخراه من دم، فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله من فعل هذا» ثم نهى عن الكي في الوجه، والضرب في الوجه»(٤).

والأحاديث في النهي عن الكي في الوجه كثيرة.

وهذا الحشد الجم من الأحاديث النبوية الصحاح، في فضل الرحمة والترغيب فيها، وشمولها للإنسان، ولا سيما الضعفاء من الخلق، وكذلك للحيوانات العجماوات التي تؤكل أو تركب، والتي لا تؤكل ولا تركب: مثل الهرّ والكلب، لا أحسب دينا من الأديان: يشتمل على هذه الوصايا المكررة والمؤكدة، ترغيبا في الرحمة والشفقة على خلق الله، وترهيبا من الشدة والقسوة على عباد الله.

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وقال الهيثمي: إسناده جيد. انظر: المجمع (١٠/ ٣٥٣).
(٢) رواه مسلم (٢١١٧).
(٣) في نسخة: «من يسم الوجه»، والوسم: الكي. لقد حرص الإسلام على صيانة وجه الحمار، فكيف بالإنسان؟!
(٤) رواه ابن حبان في صحيحه وهو في «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» (٢٠٠٣). قال الشيخ شعيب: إسناده صحيح، الإحسان (٥٦٢٦).

الرحمة في حالة الحرب:

وأظهر ما تكون الرحمة، التي أمر بها الإسلام: في حالة الحرب، التي كثيرا ما تحكمها عواطف الغضب على العدو، وتبرّر عوامل الغلظة عليه، والانتقام منه، فيقتل من لا يستحق القتل، أو يقتل بطريقة لا تليق بالإنسان، فيها تعذيب له، أو تمثيل بجثته، أو إظهار التشفي منه.

ومثل ذلك: قطع الأشجار المثمرة، وهدم المباني والمنشآت المدنية، وتحريق كل ما تناله يد الإنسان، وفقا للنظرية التي يعبرون عنها بـ(سياسة الأرض المحروقة).

وهذا ما سار عليه الغرب - للأسف - في عامة حروبه، ولا سيما في الحرب العالمية الثانية، التي قتل فيها عشرات الملايين، حتى استحلت أمريكا لنفسها: ضرب مدينتي هيروشيما وناجازاكي، اليابانيتين: بالقنابل الذرية، حتى بعد استسلام اليابان!

والغرب، هو الذي اخترع أسلحة الدمار الشامل وامتلكها، ويطالب العالم اليوم بالتخلص منها، ليظل هو وحده الذي يمتلكها.

وسر ذلك: أن الحرب عنده كالسياسة والاقتصاد، منفصلة عن الدين والقيم والأخلاق.

أما الإسلام، فالحرب - كالسياسة والاقتصاد -: لا تنفصل عن قيمه الدينية والأخلاقية. ولهذا تتجلى فيها آثار العدل والرحمة، في جوانب شتى.

من ذلك: أنه لا يقتل في الحرب إلا من يقاتل. ولهذا رأى النبي ﷺ: امرأة مقتولة في بعض الغزوات، فأنكر قتل النساء والصبيان[1].

وفي موقف آخر؛ قال عن المرأة المقتولة: « ما كانت هذه لتقاتل »![2].

---

(١) رواه البخاري عن ابن عمر في الجهاد (٤/ ٧٤) كما رواه مسلم في الجهاد - باب تحريم قتل النساء والصبيان عن ابن مسعود وابن عمر (١٧٤٤).

(٢) رواه أبو داود في الجهاد عن رباح بن ربيع (٢٦٦٩) وابن ماجه (٢٨٨٢) ونسبه المنذري للنسائي أيضا.

وكان من وصايا الرسول لأمرائه، وقادة سراياه: «لا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدا»[1]. فهو هنا ينهى عن الغَلول - وهو الخيانة في الغنيمة -، وعن الغدر - وهو نقض العهد - وعن التمثيل، - وهو تشويه القتلى بقطع الأنوف أو الآذان، أو بقر البطون - ونحو ذلك.

وبعث النبي ﷺ رجلا، يدرك خالد بن الوليد في إحدى المعارك، ليبلغه هذا التوجيه النبوي: «قل لخالد: لا تقتلن امرأة ولا عسيفا»[2].

والعسيف: هو الأجير والتابع.

ولا غرو أن قال الرسول الكريم: «أعفّ الناس قِتْلةً: أهلُ الإيمان»[3].

وكذلك كان خلفاؤه الراشدون من بعده، على نهجه: في العفة والرحمة.

أوصى أبو بكر قائده «يزيد بن أبي سفيان» حين وجهه إلى الشام، فقال: لاتقتل صبيا، ولا امرأة، ولا هرما.

وعن عمر؛ أنه أوصى «سلمة بن قيس» فقال: لا تقتلوا امرأة، ولا صبيا، ولا شيخا هرِما. (الهرم: الكبير الفاني). [4]

وروي عن ابن عباس، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة: ١٩٠. قال: لا تقتلوا النساء، والصبيان، والشيخ الكبير.

ونهى أبو بكر عن قتل الرهبان، في صوامعهم، لأنهم لا يُقاتَلون تديّنا.

وكذلك جاء عن عمر: اتقوا الله في الفلاحين، الذين لا ينصبون لكم الحرب[5].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٤٩٣) وأبو يعلى (٢٥٤٩) والطبراني في «الكبير» (١١/ ١٧٩) والبيهقي في «السنن» (١٣/ ٣٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وحسن إسناده محققو المسند حديث رقم (٢٧٢٨).

(٢) هو جزء من الحديث الذي رواه أبو داود (٢٦٦٩).

(٣) رواه أبو داود عن ابن مسعود في الجهاد - باب النهي عن المثلة (٢٦٦٦) وابن ماجه في الديات (٢٦٨١).

(٤) قال في المغني (١٣/ ١٧٨): رواهما (أي أثر أبي بكر وأثر عمر) سعيد في سننه.

(٥) البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٩١) وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٢٣٩).

وخلاصة هذا كله: أن الحرب في الإسلام، لا يقصد بالقتل فيها: إلا من قاتل المسلمين بالفعل، وحمل السلاح في وجوههم.

وعند قتل من يُقاتل: لا يشوّه ولا يمثل، ولا يحمل رأسه إلى مكان آخر، ليراه القائد الأعلى أو الخليفة، لأنه نوع من المثلة المنهيّ عنها.

وقد حُملَ إلى أبي بكر - رضي الله عنه - رأس أحد القواد في صرة، فلما كشف عنها رأى الرأس، وعرف أنه لأحد قوادهم، ولما سألهم عن ذلك، قالوا: إنهم يفعلون ذلك برءوس قادتنا! فقال: آستنان (أي اقتداء) بفارس والروم؟! والله! لا يُحمل إليّ رأس بعد اليوم!

ومن التوجيهات القرآنية: أنه أمر المسلمين بعد (الإثخان) في الأعداء، أي إضعافهم في القتال: أن يكفوا عن القتل ويكتفوا بالأسر، ثم خيرهم في الأسرى بين إطلاق سراحهم منًّا عليهم بلا مقابل، أو فدائهم بمال أو أسرى. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ (أي بالأسر) ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ محمد: ٤.

فهل عرف التاريخ أمة عندها مثل هذه التعاليم: التي تغرس العفة والرحمة حتى في حالات الحروب، التي يتعدى الناس فيها - عادة - الحدود؟

فقه جماعات العنف:

وإذا كان هذا هو موقف الإسلام في دعوته إلى الرفق واللين، وإلى الرحمة والرأفة، وذمه للعنف والقسوة، فلماذا ظهرت جماعات العنف في بلادنا الإسلامية؟ وما الأساس الشرعي الذي تستند إليه، ولا سيما أنها تنتسب إلى الإسلام؟

ونقول هنا: إن العنف الذي تمارسه بعض الجماعات، التي تنسب للإسلام، إنما هو إفراز لفلسفة معينة، تتبناها هذه الجماعات، وثمرة لفقه خاص له وجهته ومفاهيمه وأدلته، التي تستند إليها هذه الفئة من الناس.

ومن نظر إلى جماعات العنف، القائمة اليوم في عالمنا العربي مثلا: وجد لها فلسفتها ووجهة نظرها، وفقهها الذي تدعيه لنفسها، وتسنده بالأدلة من القرآن والسنة، ومن أقوال بعض العلماء.

صحيح: أنها تعتمد على المتشابهات وتدع المحكمات، وتستند إلى الجزئيات وتهمل الكليات، وتتمسك بالظواهر وتغفل المقاصد، كما تغفل ما يعارض هذه الظواهر من نصوص وقواعد، وكثيرا ما تضع الأدلة في غير موضعها، وتخرجها عن سياقها وإطارها، ولكن ـ على أي حال ـ: لها فقه مزعوم يبرر العنف، ويروج لدى بعض الأغرار من الشباب، والسطحيين من الناس، الذين يقفون عند السطوح، ولا يغوصون في الأعماق، أساسه فقه الخوارج قديما، الذين كانوا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، كما صحت بذلك الأحاديث.

العنف الداخلي:

بدأت هذه الجماعات العنف: في داخل أوطانها أنفسها، أي العنف ضد الأنظمة الحاكمة.

فعلى أي أساس بررت ذلك وأجازته: من الوجهة الشرعية، في نظرها على الأقل؟

مبررات جماعات العنف ومدى اعتبارها:

إن فقه جماعات العنف، يقوم على أن الحكومات المعاصرة: حكومات كافرة، لأنها لم تحكم بما أنزل الله، واستبدلت بشريعته المنزلة من الخالق: القوانين التي وضعها المخلوق، وبهذا: وجب الحكم عليهم بالكفر والردة، والخروج من الملة، ووجب قتالها حتى تدع السلطة لغيرها. إذ كفرت كفرا بواحا عندنا فيه من الله برهان.

ويؤكد فقه هذه الجماعات: كفر هذه الأنظمة الحاكمة بأمر آخر، وهي: أنها توالي أعداء الله من الكفار، الذين يكيدون للمسلمين، وتعادي أولياء الله من دعاة الإسلام، الذين ينادون بتحكيم شرع الله تعالى، وتضطهدهم وتؤذيهم. والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١.

والحكومات المعاصرة: تعارض هذه التهم بدعاوى مختلفة، منها: أنها تعلن أن دينها الرسمي هو الإسلام، وأنهم ينشئون المساجد لإقامة الصلاة، ويعينون الأئمة والخطباء والمؤذنين، ويؤسسون المعاهد الدينية، والكليات الشرعية، ويوظفون

الوعاظ ومدرسي الدين في المدارس وغيرها، ويحتفلون برمضان وعيدي الفطر والأضحى، ويذيعون تلاوة القرآن في الإذاعات والتلفازات، إلى غير ذلك: من المظاهر الدينية، التي تثبت إسلامية الدولة بوجه من الوجوه.

كما أن بعض دساتير هذه البلاد يعلن: أن الشريعة مصدر رئيس، أو المصدر الرئيس للتقنين، وبعضها: يعتذر بضعفه أمام قوى الضغط الغربي، وبعضها وبعضها.

فتوى ابن تيمية:

كما تعتمد جماعات العنف: على فتوى الإمام ابن تيمية - في قتال كل فئة تمتنع عن أداء شريعة ظاهرة متواترة من شرائع الإسلام -، كالصلاة أو الزكاة، أو الحكم بما أنزل الله: في الدماء والأموال والأعراض، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى آخره. وهو ما اعتمد عليه كتاب (الفريضة الغائبة) لجماعة الجهاد، وجعل هذه الفتوى: الأساس النظري لقيام جماعته، وتسويغ أعمالها كلها.

ويستدلون هنا: بقتال أبي بكر ومن معه من الصحابة - رضي الله عنهم - لمانعي الزكاة.

فكيف بمن يمتنعون عن تطبيق أكثر أحكام الشريعة، برغم مطالبة جماهير الناس بها، وخصوصا العلماء والدعاة، بل هم أشد الناس خصومة لهؤلاء، وتضييقا عليهم، ومعاداة لهم؟!

ونسي هؤلاء، أن الذي يقاتل هذه الفئة الممتنعة: ولي الأمر، وليس عموم الناس، وإلا أصبح الأمر فوضى!

وتعتمد جماعات العنف أيضا: على أن هذه الأنظمة غير شرعية، لأنها لم تقم على أساس شرعي من اختيار جماهير الناس لها، أو اختيار أهل الحل والعقد، وبيعة عموم الناس، فهي تفتقد الرضا العام، الذي هو أساس الشرعية، وإنما قامت على أسنة الرماح بالتغلب والسيف والعنف، وما قام بقوة السيف: يجب أن يقاوم بسيف القوة، ولا يمكن أن يقاوم بسيف القلم!

ونسي هؤلاء ما قاله فقهاؤنا من قديم: أن التغلب هو إحدى طرائق الوصول إلى السلطة، إذا استقرّ له الوضع، ودان له الناس.

وهذا ما فعله عبد الملك بن مروان، بعد انتصاره على ابن الزبير ـ رضي الله عنه ـ وقد أقره الناس، ومنهم بعض الصحابة: مثل ابن عمر وأنس وغيرهما، حقنا للدماء، ومنعا للفتنة، وقد قيل: سلطان غشوم، خير من فتنة تدوم.

وهذا من واقعية الفقه الإسلامي، ورعايته لتغير الظروف.

وترى جماعات العنف كذلك: أن هذه المنكرات الظاهرة السافرة ـ التي تبيحها هذه الحكومات ـ: من الخمر، والميسر، والزنى، والخلاعة والمجون، والربا، وسائر المحظورات الشرعية: يجب أن تغير بالقوة لمن يملك القوة، وهي ترى أنها تملكها، فلا يسقط الوجوب عنها إلى التغيير باللسان بدل اليد، كما في الحديث الشهير: «من رأى منكم منكرا، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه». رواه مسلم.

ويغفل هؤلاء: الضوابط والشروط اللازمة لتغيير المنكر بالقوة، التي قررها العلماء.

وبعض هذه الجماعات تنظر إلى المجتمع كله: أنه يأخذ حكم هذه الأنظمة التي والاها ورضي بها، وسكت عنها، ولم يحكم بكفرها، والقاعدة التي يزعمونها: أن من لم يكفّر الكافر: فهو كافر!

وبهذا توسعوا وغلوا في (التكفير)، وكفّروا الناس بالجملة.

وعلى هذا: لا يبالون من يُقتل من هؤلاء المدنيين، الذين لا ناقة لهم في الحكومة ولا جمل: لأنهم كفروا فحلت دماؤهم وأموالهم.

كما يرون بالنظر إلى الأقليات غير المسلمة: أنهم نقضوا العهد، بعدم أدائهم للجزية، وبتأييدهم لأولئك الحكام المرتدين، وأنظمتهم الوضعية، ولرفضهم للشريعة الإسلامية. و بهذا لم يعد لهم في أعناق المسلمين عهد ولا ذمة، وحل دمهم ومالهم. وبهذا استحلوا سرقة محلات الذهب: من الأقباط في مصر، كما استحلوا سرقة بعض المسلمين أيضا.

وهم يرون: أن السياح وأمثالهم، الذين يدخلون بلاد المسلمين بتأشيرات رسمية، وترخيصات قانونية، والذين يعدّهم الفقهاء (مستأمنين) ولو كانت دولهم محاربة للمسلمين، يرون هؤلاء مستباحي الدم، لأنهم لم يأخذوا الإذن من دولة شرعية، ولأن بلادهم نفسها: محاربة للإسلام، فلا عهد بينهم وبين المسلمين. والواجب: أن يقاتل هؤلاء ويقتلوا، فلا عصمة لدمائهم وأموالهم!!

وكذلك يقول هؤلاء عن الدول الغربية - التي يقيم بعض هؤلاء فيها - وقد أعطتهم: حق الأمان، أو حق اللجوء السياسي: لمن طردوا من بلادهم الأصلية، فآوتهم هذه الدول من تشرد، وأطعمتهم من جوع، وآمنتهم من خوف.

يقول هؤلاء بكل جرأة وتبجح: إن هذه الدول كلها كافرة، محاربة للإسلام وأمته، ويجب أن نقاتلهم جميعا حتى يُسلموا فيَسْلَموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ولما سئل بعضهم عن إقامته في هذه البلاد، قال: إنها كدورة المياه، نستخدمها للضرورة، برغم نجاستها.

وهؤلاء الكفار: دماؤهم حلال، وأموالهم حلال للمسلمين، بنصوص الدين.

ويذكرون هنا آيات وأحاديث: يضعونها في غير موضعها، فإذا واجهتهم بغيرها: من الآيات والأحاديث، التي هي أكثر منها وأظهر وأصرح، قالوا لك: هذه نسختها آية السيف!

هذا هو فقه جماعات العنف باختصار، الذي على أساسه ارتكبوا ما ارتكبوا من مجازر تشيب لهولها الولدان، وتقشعر من بشاعتها الأبدان: ضد مواطنيهم من مسلمين وغير مسلمين، وضد السياح وغيرهم من الأجانب المسالمين.

وهو بلا ريب: فقه أعوج، وفهم أعرج، يعتوره الخلل والخطل: من كل جانب. ويحتاج من فقهاء الأمة إلى وقفة علمية متأنية: لمناقشتهم في أفكارهم هذه، والرد عليهم فيما أخطئوا فيه: في ضوء الأدلة الشرعية من القرآن والسنة وإجماع الأمة.

ظاهرة العنف إسلامية أم عالمية؟

وهنا يحق لنا أن نسأل عن العنف: هل هو ظاهرة إسلامية؟ أو هو ظاهرة عالمية؟ فبعض أبواق الإعلام الغربي - ومن يدور في فلكها في ديارنا - تريد أن يبرز الإرهاب، وكأنه مقصور على المسلمين، أو كأن جنسيته إسلامية، وخصوصا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، وهذا خطأ فاحش، بل ظلم مبين.

لقد وجدنا العنف في أقطار ودول شتى: في أنحاء العالم. لقد وجدناه في كل القارات: في أيرلندا، وفي اليابان، وفي أمريكا نفسها، وفي الهند، وفي إسرائيل. فلماذا ألصق بالمسلمين وحدهم دون غيرهم؟ إنه الإعلام الغربي والأمريكي والصهيوني، الذي يكتم الحق، ويشيع الباطل، ويقولون على الناس الكذب وهم يعلمون.

أسباب العنف في العالم الإسلامي:

صحيح: أن هناك عنفا في العالم الإسلامي، ولكنه عنف له أسبابه ودوافعه، فما هي؟

أسبابه:

أما أسباب هذا العنف، فيمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ المظالم الواقعة على المسلمين من الخارج: فلسطين ـ البوسنة ـ كوسوفو ـ الشيشان ـ كشمير ـ السودان.

٢ ـ طغيان بعض الحكام، واضطهادهم لدعاة الإسلام، ومصادرة حرياتهم، وإغلاق الأبواب كلها دونهم، وعدم تمكينهم من حرية الدعوة مثل غيرهم، واستجابتهم لوساوس القوى المعادية للإسلام من صليبيين وغيرهم.

٣ ـ التضييق على الفكر الوسطي المعتدل، مما أتاح لفكر العنف أن يعمل في السراديب تحت الأرض، حيث لا يحاكم ولا يناقش. ولو عمل تحت سمع القانون وبصره: لكان أقل وأهدى.

٤ ـ الخلل الفكري والفقهي، لدى بعض الفصائل الداعية للإسلام، التي وقفت عند بعض الظواهر من النصوص، ولم تغص في مقاصدها، ولم تضم بعضها إلى بعض.

وهذه أهم الأسباب في رأيي. وينبغي أن نلقي الضوء على السبب الأخير لخطورته، وشدة تأثيره.

حقيقة فصائل العنف:

هذه الفصائل الداعية للعنف إما:

١ ـ عملاء للقوى الصهيونية والصليبية والمادية، المعادية للإسلام، اخترقوا الجماعات الإسلامية، وحركوها من حيث لا تدري.

٢ ـ أو جهلاء مخلصون، يعملون مجانا: لحساب هذه القوى المعادية من حيث لا يشعرون، وهذا هو الأغلب. ولو أن القوى المعادية: استأجرت أناسا

ودفعت لهم مئات الملايين: ما خدموها بأفضل مما يخدمهم به هؤلاء، في تشويه صورة الإسلام. جهل هؤلاء جهل مركب (جهل من لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري) كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ البقرة: ١١.

آفة هؤلاء في الأغلب: في عقولهم، وليست في ضمائرهم، فأكثرهم مخلصون، ونياتهم صالحة، وهم متعبدون لربهم، شأنهم شأن أسلافهم من الخوارج الذين كفروا عامة المسلمين، وكفروا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، واستحلوا دمه، ودماء المسلمين معه، وصحت الأحاديث في ذمهم من عشرة أوجه.

قالت الأحاديث في الصحيحين: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية».

فهم: صوام قوام، قُرّاء عبّاد، ولكن قراءتهم للقرآن لا تتجاوز حناجرهم، أي لم تدخل إلى أعماق قلوبهم وعقولهم: ليفقهوه حق الفقه، ويتعرفوا على أسراره ومقاصده، دون أن يجعلوا همهم: الوقوف عند ألفاظه وظواهره.

وقد أدى بهم هذا الفقه الأعوج إلى: استباحة دماء المسلمين الآخرين وأموالهم، حتى استباحوا دم فارس الإسلام وابنه البكر، علي بن أبي طالب، وقال شاعرهم يمدح قاتله:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوما فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

حسن النية لا يبرر الأعمال الطائشة:

ولقد حذر رسول الإسلام ﷺ من الأعمال الطائشة، والتصرفات الرعناء، التي قد يقوم بها بعض الناس الطيبين، بنوايا حسنة، وبواعث نبيلة، دون أن ينظروا في مآلاتها، ويفكروا في وخيم عواقبها، وذلك لقصر نظرهم، وضيق أفقهم،

فما لم يتنبه المجتمع لهم، ويأخذ على أيديهم، ويمنعهم من الاستمرار في تفكيرهم الأخرق، فإنهم سيودون بالمجتمع كله، وينتهي بهم طيشهم - مع حسن نيتهم - إلى هلاكهم وهلاك الجماعة كلها معهم.

ولذا حذر الرسول الكريم الجماعة - ممثلة في أهل البصيرة وأولي العلم والحكمة - أن تتيقظ لهم، وتأخذ على أيديهم، تمنعهم من تنفيذ ما فكروا فيه، وعقدوا عليه العزم، حفظا لوجود الجماعة كلها، وحرصا على حياتها وحياتهم معها.

وضرب الرسول ﷺ لذلك مثلا حيا رائعا ناطقا، هو مثل ركاب السفينة الواحدة التي تتكون من طابقين أو أكثر، وبعض الناس في أعلاها، وبعضهم في أسفلها. فلو أراد ركاب الطابق الأسفل أن يخرقوا في نصيبهم خرقا، ليستقوا منه الماء مباشرة من النهر أو البحر، بدعوى أنهم يخرقون في نصيبهم وهم أحرار فيه، وأنهم لا يريدون أن يؤذوا من فوقهم بكثرة المرور عليهم بين حين وآخر.

وليس أفضل من أن نقرأ هذا الحديث النبوي الرائع بصيغته كاملا، كما جاء في صحيح البخاري:

عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»[1].

إن الحديث يبين لنا المسئولية التضامنية المشتركة للأمة، وأنها لا يجوز لها أن تدع بعض أبنائها يتسببون في غرقها بجهلهم وسوء تصرفهم، وإن كانوا مخلصين، فالإخلاص لا يكفي وحده، ولكن لا بد من تحري الصواب مع الإخلاص.

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٤٩٣).

جوانب الخلل في فقه جماعات العنف:

فقه هؤلاء الخوارج المحدثين: فقه أعرج أعوج. يقوم على ما يلي:

١ ـ خلل في فقه الجهاد.

٢ ـ خلل في فقه تغيير المنكر بالقوة.

٣ ـ خلل في فقه الخروج على الحكام.

٤ ـ خلل في فقه التكفير.

وسنتحدث عن كل واحدة من هذه الألوان من الخلل ما يوضحه، ويزيل عنه اللبس والغموض.

١ ـ الخلل في فقه الجهاد:

يبدأ الخلل في فقه الجهاد عندهم: أنهم يرون قتال كل الكفار واجبا، وإن كانوا مسالمين للمسلمين.

ونريد أن نسألهم هنا سؤالا صريحا: لماذا نقاتل الكفار؟ لكفرهم، أو لعدوانهم؟

لو كان القتال لمجرد الكفر: لوجب أن نقتل الشيوخ، والنساء، والرهبان، والحراثين، والتجار، ومن في حكمهم: ممن لا يحارب ولا يقاتل، ولكن هذا محظور، ولهذا نهتنا الأحاديث النبوية، والوصايا الراشدية: من أبي بكر وعمر، عن قتلهم.

وجاء عن ابن عباس، في تفسير قوله تعالى: (ولا تعتدوا) قال: الاعتداء: قتل الناس والصبيان.

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية، في رسالة (قاعدة في قتال الكفار)، على من زعم أن قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ البقرة: ١٩٠. منسوخة: بأن الاعتداء هو الظلم، والله لا يبيح الظلم قط[1].

---

(١) انظر: ابن تيمية للإمام محمد أبي زهرة ٣٧٨-٣٨٠. طبعة دار الفكر العربي.

وأضيف إلى ذلك: أنه معلل بعلة لا تقبل النسخ، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ومثل هذا لا ينسخ أبدا.

من أحكام القتال في القرآن:

وينبغي لمن أراد أن يعرف أحكام القتال: أن يرجع أول ما يرجع إلى المصدر الأول للإسلام، وهو القرآن، وما يبينه من صحيح السنة. ومن أبرز هذه الأحكام:

١ ـ القتال لمن يقاتل المسلمين:

ومن قرأ القرآن بتدبر، وضم آياته بعضها إلى بعض: تبين له أنه إنما شرع القتال لمن يقاتل المسلمين، أو يتعدى على حرماتهم، أو على المستضعفين من عباد الله، كما نرى في هذه الآيات:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ الحج: ٣٩، ٤٠.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ البقرة: ١٩٠، ١٩١.

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ النساء: ٩٠.

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ النساء: ٩١.

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ التوبة: ١٣.

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ النساء: ٧٥.

٢ـ ليس القتال لإكراه الناس على الإسلام:

وليس القتال في الإسلام: لإكراه الناس على الدخول في الإسلام. فالإسلام يرفض بصورة قاطعة: الإكراه في الدين.

يقول تعالى في القرآن المكي: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ يونس: ٩٩.

ويقول في القرآن المدني: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ البقرة: ٢٥٦.

بل هذا الرفض للإكراه مقرر من عهد نوح شيخ المرسلين ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ هود: ٢٨.

والقرآن لا يعتبر الإيمان إيمانا إلا إذا نشأ عن اختيار حر، وإلا رفض، مثل إيمان فرعون حينما أدركه الغرق ﴿ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فكان الرد الإلهي عليه: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ يونس: ٩١.

وكذلك رفض القرآن إيمان الأمم التي تعلن الإيمان حين ينزل بها بأس الله وعقوبته ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ غافر: ٦٨.

القتال إذن ليس لكفر الكفار، فالكفر واقع بمشيئة الله تعالى، المرتبطة بحكمته.

وتعدد الأديان: أمر مفروغ منه في عقيدة المسلم، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ يونس: ٩٩. ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ هود: ١١٨، ١١٩. أي خلقهم ليختلفوا، مادام قد أعطى كلا منهم العقل والإرادة.

٣ـ القتال لمنع الفتنة في الدين:

وشرع الإسلام القتال كذلك لمنع الفتنة في الدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ الأنفال: ٣٩.

الفتنة هي: مصادرة حرية الناس واضطهادهم: من أجل عقيدتهم، مثل (أصحاب الأخدود) الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات. والقرآن يعتبر هذه الفتنة للناس: أشد من القتل، وأكبر من القتل، لأن القتل يتلف الجسم، والفتنة تتلف العقل والإرادة، وهما حقيقة الإنسان. ولذا رد القرآن على المشركين الذين أعظموا القتال في الشهر الحرام، وقد وقع خطأ من بعض المسلمين، وهونوا من صدهم عن سبيل الله، وإخراج الناس من ديارهم وفتنتهم في دينهم، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ البقرة: ٢١٧.

ومعنى هذا: أن الإسلام يشرع القتال، ليهيئ مناخ الحرية للناس، ليؤمن من آمن عن إرادة واختيار حر، ولا يخشى الفتنة في دينه، والاضطهاد من أجل عقيدته.

آية السيف:

وإذا كان الأمر كما وضحته هذه الآيات، في شأن القتال، فما معنى (آية السيف) التي زعم من زعم أنها نسخت كذا وكذا آية من القرآن؟

إن القرآن يصدق بعضه بعضا، ولا يجوز دعوى نسخ آية منه إلا بيقين.

ونسأل هؤلاء:

آية السيف التي زعموا أنها نسخت مائة وعشرين آية، أين هي؟

قال بعضهم: إنها آية: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ التوبة: ٣٦. وهذه ليست إلا المعاملة بالمثل، قاتلوهم كافة كما يقاتلونكم كافة.

وقال آخرون: آية السيف هي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ﴾ التوبة: ٥.

وهذه الآية نزلت في مشركي العرب، الذين نكثوا العهود، وأخرجوا المؤمنين من ديارهم، وبدءوا المسلمين بالقتال، كما قال تعالى في نفس السياق: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ التوبة: ١٣.

وقد أمهلوا أربعة أشهر يسيحون في الأرض، ثم بعد ذلك عليهم أن يحددوا موقفهم.

قبل هذه الآية، نقرأ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ التوبة: ٤.

وبعدها نقرأ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ التوبة: ٦.

وعقبها نقرأ: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ التوبة: ٧.

وقال بعضهم: آية السيف هي قوله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ التوبة: ٢٩.

وهذه الآية في قتال: انعقدت أسبابه، بوقوف هؤلاء ضد الدعوة، وصدهم الدعاة أو قتلهم، أو تآمرهم على المسلمين، ومعاونتهم لأعدائهم المحاربين لهم. وقد نزلت بعد غزوة تبوك، التي وقعت مع دولة الروم البيزنطية.

وقوله ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾: غاية للقتال، أي يقاتلون حتى يخضعوا للدولة المسلمة، ويدفعوا لها ضريبة الحماية لهم: في أنفسهم، وأعراضهم، وأموالهم.

وليس من الضروري أن تسمى (جزية)، كما فعل سيدنا عمر مع بني تغلب. فقد رضي منهم: أن تسمى زكاة أو صدقة، فالعبرة عنده: بالمسميات والمضامين، لا بالأسماء والعناوين.

واستدل بعضهم بقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال: ٦٥، ٦٦.

وهذا في قتال قام بالفعل أو انعقدت أسبابه، فالتحريض من القيادة للجند واجب، حتى يدخلوا المعركة أقوياء متوكلين على الله.

وقبل هذه الآية: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأنفال: ٦١، ٦٢.

وقبلها: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الأنفال: ٦٠.

فالمطلوب إذن من المسلمين هو:

١ ـ إعداد المستطاع من القوة والمعدات: إرهابا لعدو الله وعدوهم، فهذه الرهبة هي التي تمنع وقوع الحرب.

٢ ـ الجنوح للسلم: إذا جنح العدو لها حقيقة، لا ادعاء.

٣ ـ الوقوف في وجه المخادعين بالسلم، اعتمادا على نصر الله المؤمنين المتآلفين.

٤ ـ تحريض المؤمنين على القتال، فإن الواحد منهم بعشرة في حال القوة، وباثنين في حال الضعف.

بين الجهاد والقتال:

ومن المهم هنا: أن نميز بين الجهاد والقتال، فقد حدث خلط شديد بينهما، في حين أنهما مختلفان لغة وشرعا، واشتقاق كل منهما: يدل على اختلافهما، فالجهاد مشتق من بذل الجُهد: وهو الوسع، أو تحمل الجَهد وهو المشقة.

أما القتال، فهو مشتق من القتل.

وفي الشرع: كل مسلم مطالب بالجهاد، كما قال تعالى في خطاب المؤمنين ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ الحج: ٧٨. وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الحجرات: ١٥.

وهذا يتم بمجاهدة النفس، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة المظالم والمنكرات في المجتمع، ومجاهدة المشركين: باللسان، والقلم، وبالمال، وبالسلاح، كل في أوانه، وفي موضعه.

ولا غرو أن نجد في القرآن المكي ـ قبل أن يشرع القتال ـ الأمر بالجهاد في مثل قوله تعالى: (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به، (أي القرآن) جهادا كبيرا) الفرقان: ٥٢.

وكذلك في أوائل العنكبوت: ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ العنكبوت: ٦.

والجهاد هنا: هو جهاد الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله.

وفي أواخر السورة: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٦٩.

فكل مسلم إذن: يجب أن يكون مجاهدا، وليس بالضرورة أن يكون مقاتلا، إلا عندما توجد أسباب القتال.

حديث (بعثت بالسيف):

أما حديث « بعثت بالسيف ـ بين يدي الساعة ـ حتى يعبـ. الله وحده » فقد بحثنا في سنده ومتنه، وبينا في بحث ضاف: أنه ضعيف عند التحقيق، فليرجع إليه[1].

أما من ناحية السند: فمداره على عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد اختلف الأئمة في توثيقه، وتجريحه، والمجرحون له أكثر، وهم من أمثال الإمام أحمد الذي قال: أحاديثه مناكير، والإمام يحيى بن معين الذي ضعفه، والإمام النسائي وغيرهم.

وحتى الذين وثقوه: لم يوثقوه بإطلاق. بل منهم من قال: ليس به بأس، ومنهم من رماه بالقدر.

على أنهم قالوا: تغير في آخر حياته. وهذا يكفي في التشكيك فيما يرويه.

وقد ذكر البخاري في صحيحه: جزءا من هذا الحديث معلقا، ولكن بصيغة التمريض، بقوله: يذكر عن ابن عمر، مما يدل على ضعفه عنده.

وقد ضعفه الشيخ شعيب وإخوانه، في تخريج المسند، وفسروا ذلك بما يشفي ويكفي.

وإذا غضضنا الطرف عن السند، ونظرنا في متن الحديث ومضمونه، وجدناه: مخالفا مخالفة صريحة للقرآن، الذي لم يقرر في آية واحدة من آياته بأن الله بعث محمدا بالسيف، بل أرسله بالهدى ودين الحق، وبالبينات والشفاء والرحمة للعالمين وللمؤمنين.

وهذا ثابت بوضوح في القرآن المكي، وفي القرآن المدني، على سواء.

يقول تعالى في سورة الأنبياء، وهي مكية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء: ١٠٧.

وعبر عن هذا: النبي ﷺ، فقال: «إنما أنا رحمة مهداة»[2].

---

(١) انظره في (مجلة بحوث السنة والسيرة) في جامعة قطر العدد العاشر ص٢٧-٤٠ . وفي الجزء الثالث من كتابنا (فتاوى معاصرة).

(٢) الحاكم (١/ ٣٥) وصححه ووافقه الذهبي.

وقال تعالى في سورة النحل، وهي مكية: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل: ٨٩.

وقال تعالى في سورة يونس، وهي مكية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٥٧.

وقال تعالى في سورة التوبة، وهي مدنية: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة: ٣٣.

وقد تكررت بلفظها، في سورة الصف: ٩ وهي مدنية.

وفي سورة الفتح، وهي مدنية، نقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ الفتح: ٢٨.

ولقد بينت آيات القرآن: موقف الرسول الكريم، عند تولي الناس وإعراضهم عنه.

ففي ختام سورة التوبة، يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ التوبة: ١٢٨، ١٢٩.

وفي سورة آل عمران، وهي مدنية: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ آل عمران: ٢٠.

وفي سورة النور، وهي مدنية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ النور: ٥٤.

وهذه الآيات كلها: قد اتفقت على أن محمداً - ﷺ - إنما بعث بالرحمة والهدى ودين الحق، وتبيان كل شيء، وإقامة الحجة على الناس، ولم يبعث شاهراً سيفه

على الناس، حتى في حالة تولي الناس عنه: لم يؤمر بأن يشهر في وجوههم السيف، إنما قيل له: إنما عليك البلاغ، وإنما عليه ما حمل، وعليهم ما حملوا، وقل: حسبي الله.

والمبشرون والمستشرقون، وغيرهم من خصوم الإسلام يشيعون: أن الإسلام إنما انتشر بالسيف، وأن محمدا إنما انتصر بالسيف، ويستند كثيرون منهم إلى هذا الحديث وأمثاله.

والحقيقة: أن الإسلام إنما شهر السيف في وجه الذين صدوا عن سبيله، وقاوموه بالقوة، ورفعوا السيف في وجهه، وغزوه في عقر داره في أحد والخندق، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ١٩٠ إلى ١٩٣.

فهذا هو منطق القرآن، بيّن كل البيان، لا لبس فيه ولا غموض، فإذا عارضه حديث مثل حديث (بعثت بالسيف)، فلا شك أن القرآن هو المقدم، فهو المصدر الأول، والدليل الأول، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولو بعث الرسول بالسيف: لظهر ذلك طوال ثلاثة عشر عامًا، قضاها في مكة، وأصحابه يأتون إليه بين مضروب ومشجوج ومعتدى عليه، يستأذنونه في أن يدافعوا عن أنفسهم بالسلاح، فيقول لهم: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة. حتى هاجروا إلى المدينة، فأذن الله لهم: أن يدافعوا عن أنفسهم وحرماتهم ودعوتهم. كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...... ﴾ الآية الحج: ٣٩، ٤٠.

والخلاصة: أن هذا الحديث (بعثت بالسيف) سواء نظرنا إلى إسناده أم نظرنا إلى متنه، فهو مردود غير مقبول في ضوء موازين العلم وقواعده الضابطة.

العلاقة بغير المسلمين:

منذ أكثر من أربعين سنة ذكرت، في كتابي (الحلال والحرام في الإسلام):

أن الإسلام قد حدد العلاقة مع غير المسلمين، في آيتين محكمتين من كتاب الله، تعتبران بمثابة الدستور في ذلك، يقول تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الممتحنة: ٨، ٩.

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن المشركين ـ عباد الأوثان، من قريش وأمثالهم ـ. وقد شرع البرّ بالمسالمين منهم، والإقساط لهم، فاختار عنوان (البر) لهم، وهو الذي يستعمله المسلمون في أقدس الحقوق، بعد حق الله تعالى، وهو بر الوالدين.

حث القرآن هنا على: برهم والإقساط إليهم، والإقساط ـ أي العدل ـ أن يعطوا حقوقهم ولا يبخسوا شيئا منها، والبر: أن يعطوا فوق حقوقهم.

كما أن الإقساط: أن تأخذ منهم الحق الواجب عليهم، ولا تزيد عنه. أما البر فهو أن تتنازل لهم عن بعض حقك، اختيارا وكرما.

وهذا في شأن الوثنيين، الذين نزلت بخصوصهم الآيتان الكريمتان.

ولكن الإسلام أفرد (أهل الكتاب): بعنوان خاص، وبمعاملة خاصة، حتى أجاز مصاهرتهم والتزوج من نسائهم، ومعنى هذا أنه أجاز للمسلم: أن تكون زوجته وشريكة حياته، وأم أولاده: كتابية (مسيحية أو يهودية). ومقتضى هذا: أن يكون أهلها أصهاره، وهم كذلك أجداد أولاده وجداتهم، وأخوالهم وخالاتهم، وأولاد أخوالهم وخالاتهم، وهؤلاء لهم حقوق «أولي الأرحام، وذوي القربى».

كما أن الإسلام اعتبر النصارى: أقرب مودة للمسلمين من غيرهم، يقول تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ المائدة: ٨٢، كما قال نبي الإسلام أيضا: « أنا أولى الناس: بعيسى ابن مريم، في الدنيا والآخرة »[١].

٢ـ الخلل في فقه تغيير المنكر بالقوة:

وأما الخلل في فقه (تغيير المنكر بالقوة) فيتضح بأنهم لا يراعون شروط المنكر الذي أوجب الحديث تغييره أي المنكر الذي يجب أن يغير باليد أو باللسان أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

شروط تغيير المنكر باليد (أي بالقوة):

لا بد أن يكون مجمعا على أنه منكر، إذ لا إنكار في المسائل الاجتهادية الخلافية.

وأن يكون ظاهرا بحيث يراه الناس، دون أن يتجسس على صاحبه، ولهذا قال: « من رأى منكم منكرا ».

وأن يكون واقعا بالفعل: ساعة الإنكار، ولا يكون قد وقع وفرغ منه، ولا متوقعا حدوثه بعد.

ومراتب تغيير المنكر ـ كما ذكرها الإمام الغزالي، في الإحياء ـ متفاوتة ومتدرجة.

والتغيير بالقهر والمحاربة: هو أشد مراتب التغيير، فلا يجوز إلا لذي قوة وشوكة بحيث يكون أقوى ممن ينكر عليه.

ولا يجوز: تغيير المنكر بوقوع منكر أكبر منه، أو مثله، فالضرر لا يزال: بضرر مثله أو أكبر منه.

ولا بأس بأن نذكر بعض التفصيل في هذه الشروط، لأهميتها:

الشرط الأول: أن يكون محرمًا مجمعًا عليه:

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة. (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: ١٥٢٦).

أي أن يكون «منكرا» حقًا، ونعني هنا: المنكر الذي يطلب تغييره باليد أولاً، ثم باللسان، ثم بالقلب عند العجز. ولا يطلق «المنكر» إلا على «الحرام»، الذي طلب الشارع تركه طلبًا جازمًا، بحيث يستحق عقاب الله من ارتكبه.. وسواء أكان هذا الحرام فعل محظور، أم ترك مأمور.

وسواء أكان الحرام من الصغائر أم من الكبائر، وإن كانت الصغائر قد يتساهل فيها، ما لا يتساهل في الكبائر، ولاسيما إذا لم يواظب عليها، وقد قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ النساء: ٣١.

وقال - ﷺ - : «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»[(١)].

فلا يدخل في المنكر إذن: المكروهات، أو ترك السنن والمستحبات، لابد إذن أن يكون المنكر في درجة «الحرام»، وأن يكون منكرًا شرعيًا حقيقيًا، أي ثبت إنكاره: بنصوص الشرع المحكمة، أو قواعده القاطعة، التي دل عليها استقراء جزئيات الشريعة.

وليس إنكاره: بمجرد رأي أو اجتهاد، قد يصيب ويخطئ، وقد يتغير بتغير الزمان والمكان، والعرف والحال.

وكذلك يجب: أن يكون مجمعًا على أنه منكر، فأما ما اختلف فيه العلماء المجتهدون قديمًا أو حديثًا، بين مجيز ومانع: فلا يدخل دائرة «المنكر» الذي يجب تغييره باليد، وخصوصًا للأفراد. ولهذا قرر العلماء قاعدة: أن لا إنكار في المسائل الاجتهادية والخلافية[(٢)].

فإذا اختلف الفقهاء في حكم التصوير، أو الغناء بآلة، وبغير آلة، أو في كشف وجه المرأة وكفيها، أو في تولي المرأة القضاء ونحوه، أو في إثبات الصيام والفطر برؤية الهلال في قُطر آخر: بالعين المجردة، أو بالمرصد، أو بالحساب، أو غير ذلك

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة.

(٢) اقرأ أقوال العلماء في ذلك في كتابنا (كيف نتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف؟) نشر مكتبة وهبة. القاهرة.

من القضايا التي طال فيها الخلاف قديمًا وحديثًا: لم يجز لإنسان مسلم، أو لطائفة مسلمة: أن تتبنى رأيًا من الرأيين، أو الآراء المختلف فيها، وتحمل الآخرين عليه بالعنف.

حتى رأي الجمهور والأكثرية: لا يسقط رأي الأقل، ولا يلغي اعتباره، حتى لو كان المخالف واحدًا، مادام من أهل الاجتهاد، وكم من رأي مهجور في عصر ما، أصبح مشهوراً في عصر آخر.

وكم ضُعِّف رأي لفقيه، ثم جاء من صححه ونصره وقواه، فأصبح هو المعتمد والمفتى به.

وهذه آراء شيخ الإسلام «ابن تيمية»، في الطلاق وأحوال الأسرة، قد لقي من أجلها ما لقي في حياته، وظلت تقاوم قرونًا عدة بعد وفاته، ثم هيأ الله لها: من نشرها وأيدها، حتى غدت عمدة الإفتاء والقضاء والتقنين، في كثير من الأقطار الإسلامية.

إن المنكر الذي يجب تغييره بالقوة: لابد أن يكون منكراً بيِّنًا ثابتًا، اتفق أئمة المسلمين على أنه منكر، وبدون ذلك: يفتح باب شر لا آخر له، فكل من يرى رأيًا: يريد أن يحمل الناس عليه بالقوة!

الشرط الثاني: ظهور المنكر:

أي أن يكون المنكر ظاهراً مرئيًا، فأما ما استخفى به صاحبه عن أعين الناس وأغلق عليه بابه: فلا يجوز لأحد التجسس عليه، بوضع أجهزة التنصّت عليه، أو كاميرات التصوير الخفية، أو اقتحام داره عليه لضبطه متلبسًا بالمنكر.

وهذا ما يدل عليه لفظ الحديث: «من رأى» منكم منكراً فليغيره... «فقد ناط التغيير برؤية المنكر ومشاهدته، ولم ينطه بالسماع عن المنكر من غيره.

وهذا؛ لأن الإسلام يدع عقوبة من استتر بفعل المنكر ولم يتبجح به، إلى الله تعالى، يحاسبه في الآخرة، ولم يجعل لأحد عليه سبيلا في الدنيا، حتى يبدي صفحته ويكشف ستره.

حتى إن العقاب الإلهي ليخفّف كثيراً على من استتر بستر الله، ولم يظهر المعصية كما في الحديث الصحيح: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين»[1].

ومن الوقائع الطريفة، التي لها دلالتها في هذا المقام: ما وقع لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو ما حكاه الغزالي في كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» من «الإحياء»: أن عمر تسلق دار رجل، فرآه على حالة مكروهة فأنكر عليه، فقال: يا أمير المؤمنين! إن كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد، فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه، فقال: وما هي؟ قال: قد قال الله تعالى: ﴿ وَلاَتَجَسَّسُوا ﴾ الحجرات: ١٢، وقد تجسست، وقال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ البقرة: ١٨٩. وقد تسورت من السطح، وقال تعالى: ﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ النور: ٢٧. وما سلمت، . فتركه عمر، وشرط عليه التوبة[2].

والشرط الثالث لتغيير المنكر بالقوة: القدرة الفعلية على التغيير:

أي أن يكون مريد التغيير قادراً بالفعل ـ بنفسه، أو بمن معه من أعوان ـ على التغيير بالقوة. بمعنى أن يكون لديه قوة مادية أو معنوية: تمكنه من إزالة المنكر بسهولة.

وهذا الشرط مأخوذ من حديث أبي سعيد أيضا؛ لأنه قال: «فمن لم يستطع فبلسانه» أي: فمن لم يستطع التغيير باليد، فليدع ذلك لأهل القدرة، وليكتف هو بالتغيير باللسان والبيان، إن كان في استطاعته.

وهذا في الغالب إنما يكون لكل ذي سلطان في دائرة سلطانه، كالزوج مع زوجته، والأب مع أبنائه وبناته، الذين يعولهم ويلي عليهم، وصاحب المؤسسة في داخل مؤسسته، والأمير المطاع في حدود إمارته وسلطته، وحدود استطاعته[3]. . وهكذا.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة. (اللؤلؤ والمرجان: ١٨٨٣).

(٢) الإحياء (٧/ ١٢١٨) ط. الشعب، القاهرة.

(٣) أعني أن من الأمراء من يعجز عن بعض الأشياء في إمارته نفسها، وقد رأينا عمر بن عبد العزيز يعجز عن رد الأمر شورى بين المسلمين، بعيداً عن نظام الوراثة.

وإنما قلنا: القوة المادية أو المعنوية؛ لأن سلطة الزوج على زوجته، أو الأب على أولاده، ليست بما يملك من قوة مادية، بل بما له من احترام وهيبة: تجعل كلمته نافذة، وأمره مطاعًا. ومن الناس من يكون له مقام وجيه في جماعته، تجعل أمره نافذا، وإن لم يكن معه قوة مادية.

إذا كان المنكر من جانب الحكومة:

هنا تظهر مشكلة ما إذا كان المنكر من جانب الحكومة أو الدولة، التي تملك مقاليد القوة المادية والعسكرية، ماذا للأفراد والفئات، أو عليهم أن يعملوا لتغيير المنكر الذي ترتكبه السلطة أو تحميه؟؟

والجواب: أن عليهم أن يملكوا القوة التي تستطيع التغيير، وهي في عصرنا إحدى ثلاث:

الأولى: القوات المسلحة، التي يستند إليها كثير من الدول في عصرنا ـ ولا سيما في العالم الثالث ـ في إقامة حكمها، وتنفيذ سياستها، وإسكات خصومها بالحديد والنار، فالعمدة لدى هذه الحكومات: ليس قوة المنطق، بل منطق القوة، فمن كان معه هذه القوات: استطاع أن يضرب بها كل تحرك شعبي يريد التغيير، كما رأينا ذلك في بلاد شتى آخرها في الجزائر، وقبلها في الصين، وإخماد ثورة الطلبة المطالبين بالحرية.

الثانية: المجلس النيابي، الذي يملك السلطة التشريعية، وإصدار القوانين وتغييرها، وفقًا لقرار الأغلبية، المعمول به في النظام الديمقراطي، فمن ملك هذه الأغلبية في ظل نظام ديمقراطي حقيقي غير مزيف: أمكنه تغيير كل ما يرى من منكرات، بوساطة التشريع الملزم، الذي لا يستطيع وزير، ولا رئيس حكومة، ولا رئيس دولة أن يقول أمامه: لا.

الثالثة: قوة الجماهير الشعبية العارمة، التي تشبه الإجماع، والتي إذا تحركت لا يستطيع أحد أن يواجهها، أو يصد مسيرتها؛ لأنها كموج البحر الهادر أو السيل العرم: لا يقف أمامه شيء، حتى القوات المسلحة نفسها؛ لأنها في النهاية جزء منها، وهذه الجماهير ليسوا إلا أهليهم وآباءهم وأبناءهم وإخوانهم.

فمن لم يملك إحدى هذه القوى الثلاث: فما عليه إلا أن يصبر، ويصابر ويرابط، حتى يملكها، وعليه أن يغير باللسان، والقلم، والدعوة والتوعية والتوجيه، حتى يوجد رأيًا عامًا قويًا يطالب بتغيير المنكر، وأن يعمل على تربية جيل طليعي مؤمن يتحمل تبعة التغيير. وهذا ما يشير إليه حديث أبي ثعلبة الخشني، حين سأل النبي - ﷺ - عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥). فقال له النبي - ﷺ - : «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًا مطاعًا، وهَوًى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام، فإن من ورائكم أيامًا، الصابر فيهن: مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم»[1] وفي بعض الروايات: (ورأيت أمرًا لا يدان - أي لا طاقة - لك به).

الشرط الرابع: عدم خشية منكر أكبر:

أي ألا يخشى من أن يترتب على إزالة المنكر بالقوة: منكر أكبر منه، كأن يكون سببًا لفتنة تسفك فيها دماء الأبرياء، وتنتهك الحرمات، وتنتهب الأموال، وتكون العاقبة أن يزداد المنكر تمكنا، ويزداد المتجبرون تجبرًا وفسادًا في الأرض.

ولهذا قرر العلماء مشروعية السكوت على المنكر، مخافة ما هو أنكر منه وأعظم، ارتكابًا لأخف الضررين، واحتمالا لأهون الشرين.

وفي هذا جاء الحديث الصحيح، أن النبي - ﷺ - قال لعائشة: «لولا أن قومك حديثو عهد بشرك، لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم»[2]. أي لنقضها وأعاد بناءها من جديد حتى يدخل فيها ما ترك منها، حين بنتها قريش، فقصرت بها النفقة.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب صحيح، وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك. ورواه ابن ماجه، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن عتبة بن أبي حكيم.

(٢) متفق عليه من حديث عائشة. اللؤلؤ والمرجان (٨٤١).

وفي القرآن الكريم: ما يؤيد ذلك، في قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، حين ذهب إلى موعده مع ربه، الذي بلغ أربعين ليلة، وفي هذه الغيبة فتنهم السامري بعجله الذهبي، حتى عبده القوم، ونصحهم أخوه هارون، فلم ينتصحوا وقالوا: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ (طه: ٩١).

وبعد رجوع موسى ورؤيته لهذا المنكر البشع ـ عبادة العجل ـ: اشتد على أخيه في الإنكار، وأخذ بلحيته يجره إليه من شدة الغضب، ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ طه: ٩٢ ـ ٩٤.

ومعنى هذا: أن هارون قدم الحفاظ على وحدة الجماعة، في غيبة أخيه الأكبر، حتى يحضر، ويتفاهما معًا: كيف يواجهان الموقف الخطير بما يتطلبه: من حزم وحكمة.

هذه هي الشروط الأربعة، التي يجب: أن تتوافر لمن يريد تغيير المنكر بيده، وبتعبير آخر: بالقوة المادية المرغمة.

تغيير المنكرات الجزئية، ليس علاجًا:

وأود أن أنبه هنا: على قضية في غاية الأهمية، لمن يشتغلون بإصلاح حال المسلمين، وهي أن التخريب الذي أصاب مجتمعاتنا، خلال عصور التخلف، وخلال عهود الاستعمار الغربي، وخلال عهود الطغيان والحكم العلماني: تخريب عميق ممتد، لا يكفي لإزالته: تغيير منكرات جزئية، كحفلة غناء، أو تبرج امرأة في الطريق، أو بيع أشرطة «كاسيت» أو «فيديو» تتضمن ما لا يليق أو ما لا يجوز.

إن الأمر أكبر من ذلك وأعظم، لا بد من تغيير أشمل وأوسع وأعمق.

تغيير يشمل الأفكار والمفاهيم، ويشمل القيم والموازين، ويشمل الأخلاق والأعمال، ويشمل الآداب والتقاليد، ويشمل الأنظمة والتشريعات.

وقبل ذلك كله لا بد: أن يتغير الناس من داخلهم بالتوجيه الدائم، والتربية المستمرة، والأسوة الحسنة، فإذا غير الناس ما بأنفسهم: كانوا أهلا لأن يغير اللّه ما بهم وفق السنة الثابتة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ الرعد: ١١.

ضرورة الرفق في تغيير المنكر:

وقضية أخرى لا ينبغي أن ننساها هنا، وهي: ضرورة الرفق في معالجة المنكر، ودعوة أهله إلى المعروف، فقد أوصانا الرسول - ﷺ - بالرفق، وبين لنا: أن اللّه يحبه في الأمر كله، وأنه ما دخل في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه. ومن الكلمات المأثورة: من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

٣ - الخلل في فقه الخروج على الحكام:

وأما الخلل عند جماعات العنف في فقه الخروج على الحكام: فهو يتمثل في أنهم يرون وجوب الخروج على الحكام المعاصرين في البلاد الإسلامية، للأسباب التي بيناها من قبل، ما داموا لا يحكمون بما أنزل الله، وما داموا يوالون أعداء الله، وما داموا يعادون الدعاة إلى الله، وما داموا قد فرضوا أنفسهم على شعوبهم بغير رضاها واختيارها.

ومن هنا كان واجب النصيحة في الدين، وفرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوب مقاومة الظلمة، وتغيير المنكر بالقوة أو باليد، وغير ذلك من عمومات القرآن والسنة، كلها توجب الخروج على هؤلاء الحكام الظلمة - أو الكفرة - وتطهير بلاد المسلمين من شرهم وفسادهم، حتى لا تعم نقمتهم الناس جميعا، كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ الأنفال: ٢٥.

وقال النبي ﷺ: «وإن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا علي يديه: أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»[١].

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٤) وأبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (٢١٦٨) وابن حبان (٣٠٤) عن أبي بكر الصديق.

الأحاديث تأمرنا بالصبر على جور الأئمة:

وأود أن أبدأ حديثي هنا: بأني من الذين يطالبون حكام المسلمين أن يطبقوا شرع الله في جميع جوانب الحياة، ولا يعطلوا بعضه ويأخذوا بعضه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ المائدة: ٤٩. ولا يكونوا كبني إسرائيل، الذين قرعهم الله تعالى بقوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ البقرة: ٨٥.

ولا أرى أن وضع الحكم في معظم الأقطار الإسلامية: وضع يرضى عنه الله ورسوله والمؤمنون، بل هناك مخالفات شتى لشريعة الإسلام: في مجالات عدة، لا يجوز السكوت عليها: في التشريع، والاقتصاد، والسياسة، والثقافة، وغيرها. وإن كنا نعترف أن هذه المخالفات الشرعية: متفاوتة في كمها وكيفها من بلد إلى آخر. وهذا يوجب علينا: أن نعمل على إصلاحها ـ ما استطعنا ـ: بالنصح والدعوة والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: بالرفق والحكمة، والجدال بالتي هي أحسن، وتقديم البدائل الشرعية الصالحة للتطبيق المعاصر، بدل المحرمات القائمة، وتوعية الشعوب وتربيتها، وتجميعها لتسوق الحكام إلى التغيير السلمي، بدلا من الفتن والمصادمات المسلحة.

ولكنا نخالف جماعات العنف في حمل السلاح، والخروج على الحكام بالقوة المادية، بدعوى أن هذا واجب ديني، وفريضة شرعية: لما ذكروه من أدلة واعتبارات تؤيد وجهة نظرهم.

فقد غفل هؤلاء ـ من جماعات العنف ـ عن أمر مهم، وهو أن الذي ذكروه هنا من النصوص، يدخل في باب العمومات والمطْلقات، التي خصصتها أو قيدتها نصوص أخرى، جاءت تأمر بالصبر على جور الأئمة، ومظالم الأمراء، وإن جاروا على حقوق الأفراد بأخذ المال، وضرب الظهر، ما لم يظهر منهم كفر بواح عندنا فيه من الله برهان. وما ذلك إلا للإبقاء على وحدة الأمة واستقرار الدولة، والحرص على حقن الدماء، والخشية من أن تفتح أبواب فتن لا تسد، وأن تفتق فتوق يصعب رتقها، وقد شددت الأحاديث في هذا الجانب، حتى لا يسارع أهل الورع وأهل الحماس، بالخروج على السلطان الشرعي: بكل ما يرونه مخالفا.

وحسبنا أن نلقي نظرة سريعة على الأحاديث، التي ذكرها صاحب (منتقى الأخبار) وشرحها الشوكاني في (نيل الأوطار)، تحت عنوان:

(باب الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والكف عن إقامة السيف)

١ ـ عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه: فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية».

وفي لفظ: «من كره من أميره: شيئا فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبرا فمات عليه: إلا مات ميتة جاهلية». متفق عليه.

٢ ـ وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ؛ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي: وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فُوا بيعة الأول فالأول، ثم أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». متفق عليه.

قال الشوكاني:

(قوله: من فارق الجماعة شبرا): كناية عن معصية السلطان ومحاربته. قال ابن أبي جمرة: المراد بالمفارقة: المسعى في حلّ عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شيء، فكنى عنها بمقدار الشبر، لأن الأخذ في ذلك يئول إلى سفك الدماء بغير حق. (قوله: فميتته جاهلية) وفي رواية لمسلم: «فميتته ميتة جاهلية» وفي أخرى له، من حديث ابن عمر: «من خلع يداً من طاعة الله: لقي الله ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة: مات ميتة الجاهلية».

والمراد بالميتة الجاهلية: أن يكون حاله في الموت: كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرا، بل يموت عاصيا. ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره؛ ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلي، وإن لم يكن جاهليا، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير فظاهره غير مراد. ويؤيد أن المراد بالجاهلية التشبيه: ما أخرجه الترمذي وابن خزيمة، وابن حبان وصححه؛ من حديث الحارث بن الحارث الأشعري من حديث طويل، وفيه: «من فارق الجماعة شبرا: فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه».

(قوله: فُوا ببيعة الأول فالأول): فيه دليل على أنه يجب على الرعية الوفاء ببيعة الإمام الأول ثم الأول، ولا يجوز لهم المبايعة للإمام الآخر قبل موت الأول.
(قوله: ثم أعطوهم حقهم) أي ادفعوا إلى الأمراء حقهم، الذي لهم المطالبة به وقبضه، سواء كان يختص بهم أو يعم، وذلك من الحقوق الواجبة في المال: كالزكاة، وفي الأنفس: كالخروج إلى الجهاد.

٣ ـ وعن عوف بن مالك الأشجعي؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خيار أئمتكم: الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصلّون عليهم ويُصلّون عليكم. وشرار أئمتكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم. قال: قلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصيَة الله، ولا ينزعن يدا من طاعة». رواه مسلم.

٤ ـ وعن حذيفة بن اليمان: أن رسول الله ﷺ قال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي؛ ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيكم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس، قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله! إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع، وإن ضُرِب ظهرك، وأخذ مالك، فاسمع وأطع». رواه أحمد ومسلم.

٥ ـ وعن عرفجة الأشجعي؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع ـ على رجل واحد ـ يريد: أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم: فاقتلوه» رواه أحمد ومسلم.

٦ ـ وعن عبادة بن الصامت، قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة: في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله: إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان». متفق عليه.

قال الشوكاني: وفي الباب أحاديث غير هذه، بعضها تقدم في باب براءة رب المال بالدفع إلى السلطان الجائر، في كتاب الزكاة. وبعضها مذكور في غير هذا

الكتاب، من ذلك حديث ابن عمر عند الحاكم بلفظ: «من خرج من الجماعة، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه، ومن مات وليس عليه إمام جماعة: فإن ميتته ميتة جاهلية». وقد قدمنا نحوه قريبا: عن الحارث ابن الحارث الأشعري، ورواه الحاكم: من حديث معاوية أيضا، والبزار: من حديث ابن عباس.

وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة؛ بلفظ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات فميتته جاهلية».

وأخرج أيضا مسلم نحوه، عن ابن عمر وفيه قصة.

وأخرج الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري؛ بلفظ: «من حمل علينا السلاح فليس منا». وأخرجاه أيضا من حديث ابن عمر، وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسلمة بن الأكوع.

وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم من حديث أبي ذر «من فارق الجماعة قدر شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه».

وأخرج البخاري من حديث أنس: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، رأسه زبيبة: ما أقام فيكم كتاب الله تعالي».

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة؛ «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني».

وأخرج الشيخان وغيرهما، من حديث ابن عمر: «على المرء المسلم: السمع والطاعة فيما أحبّ وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية: فلا سمع ولا طاعة».

وأخرج الترمذي، من حديث ابن عمر: «ألا أخبركم بخير أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم: الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم. وشرار أمرائكم: الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم».

وأخرج الترمذي من حديث أبي بكرة: «من أهان سلطان الله في الأرض: أهانه الله تعالي».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وهذا طرف منها.

قال الشوكاني :

(وقوله : خيار أئمتكم . . . إلخ) : فيه دليل على مشروعية محبة الأئمة ، والدعاء لهم ، وأن من كان من الأئمة محبا للرعية ومحبوبا لديهم ، وداعيا لهم ومدعوا له منهم ، فهو من خيار الأئمة ، ومن كان باغضا لرعيته مبغوضا عندهم ، يسبهم ويسبونه ، فهو من شرارهم ، وذلك لأنه إذا عدل فيهم وأحسن القول لهم : أطاعوه وانقادوا له وأثنوا عليه ، فلما كان هو الذي تسبب بالعدل وحسن القول إلى المحبة والطاعة والثناء منهم : كان من خيار الأئمة ، ولما كان هو الذي يتسبب أيضا بالجور والشتم للرعية : إلى معصيتهم له وسوء القالة منهم فيه : كان من شرار الأئمة .

(قوله : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة) فيه دليل على أنه : لا يجوز منابذة الأئمة بالسيف مهما كانوا مقيمين للصلاة ، ويدل ذلك بمفهومه على جواز المنابذة عند تركهم للصلاة . وحديث عبادة بن الصامت المذكور ، فيه دليل على أنها لا تجوز المنابذة ، إلا عند ظهور الكفر البواح .

قوله : « فليكره ما يأتي من معصية الله ، ولا ينزعنّ يدا من طاعة » فيه دليل على أن من كره بقلبه ما يفعله السلطان من المعاصي : كفاه ذلك ، ولا يجب عليه زيادة عليه . وفي الصحيح « فمن رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه » . ويمكن حمل حديث الباب ، وما ورد في معناه : على عدم القدرة على التغيير باليد واللسان ، ويمكن أن يجعل مختصا بالأمراء إذا فعلوا منكرا ، لما في الأحاديث الصحيحة : من تحريم معصيتهم ومنابذتهم ، فكفى في الإنكار عليهم مجرد الكراهة بالقلب ؛ لأن في إنكار المنكر عليهم باليد واللسان : تظاهرا بالعصيان ، وربما كان ذلك وسيلة : إلى المنابذة بالسيف .

(قوله : في جُثْمان إنس) بضم الجيم وسكون المثلثة : أي لهم قلوب كقلوب الشياطين وأجسام كأجسام الإنس .

(قوله : وإن ضرب ظهرك ، وأخذ مالك : فاسمع وأطع) : فيه دليل على وجوب طاعة الأمراء ، وإن بلغوا في العسف والجور إلى ضرب الرعية وأخذ أموالهم ، فيكون هذا مخصصا لعموم قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ البقرة : ١٩٤ . وقوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ الشورى : ٤٠ .

قوله: (وأَثَرَة علينا) والمراد: أن طاعتهم لمن يتولى عليهم، لا تتوقف على إيصالهم حقوقهم، بل عليهم الطاعة ولو منعوهم حقهم.

(قوله: «وأن لا ننازع الأمر أهله» أي الملك والإمارة، زاد أحمد في رواية: «وإن رأيت أن لك في الأمر حقا». فلا تعمل بذلك الظن، بل اسمع وأطع، إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة.

(قوله: «إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان» أي: نص آية أو خبر صريح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه: أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل.

قال الإمام النووي: المراد بالكفر هنا: المعصية، ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك: فأنكروا عليهم، وقولوا بالحق حيثما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم: فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين.

قال النووي:

وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق، وأما الوجه المذكور - في كتب الفقه - لبعض أصحابنا: أنه ينعزل، وحكي عن المعتزلة أيضا: فغلط من قائله، مخالف للإجماع. قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه: ما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله: أكثر منها في بقائه.

قال القاضي عياض: أجمع العلماء أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر: انعزل، قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها. قال: وكذلك - عند جمهورهم - المبتدع، قال: وقال بعض البصريين: تنعقد له وتستدام له؛ لأنه متأول. قال القاضي: فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع، أو بدعة: خرج عن حكم الولاية، وسقطت طاعته، ووجب على المسلمين القيام عليه، وخلعه ونصب إمام عادل ما أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر، ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحققوا العجز: لم يجب القيام، وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها، ويفرّ بدينه.

قال: ولا تنعقد لفاسق ابتداء، فلو طرأ على الخليفة فسق، قال بعضهم: يجب خلعه إلا أن تترتب عليه فتنة وحرب.

وقال جماهير أهل السنة - من الفقهاء، والمحدثين، والمتكلمين -: لا ينعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يُخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك، بل يجب وعظه وتخويفه؛ للأحاديث الواردة في ذلك، قال القاضي: وقد ادعى أبو بكر بن مجاهد في هذا الإجماع، وقد رد عليه بعضهم هذا: بقيام الحسين وابن الزبير وأهل المدينة على بني أمية، وبقيام جماعة عظيمة - من التابعين والصدر الأول - على الحجاج مع ابن الأشعث، وتأول هذا القائل قوله: «ألا ننازع الأمر أهله» في أئمة العدل. وحجة الجمهور: أن قيامهم على الحجاج ليس بمجرد الفسق، بل لما غير من الشرع، وظاهر من الكفر، قال القاضي: وقيل: إن هذا الخلاف كان أولا، ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم. والله أعلم[1].

ونقل الحافظ في الفتح: إذا كانت المنازعة - في الولاية -: فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر، وحمل رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية، فإذا لم يقدح في الولاية: نازعه في المعصية بأن ينكر عليه برفق ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف، ومحل ذلك إذا كان قادرا.

قال الحافظ: ونقل ابن التين عن الداودي قال: الذي عليه العلماء في أمراء الجور: أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم: وجب، وإلا، فالواجب: الصبر. وعن بعضهم: لا يجوز عقد الولاية لفاسق ابتداء، فإن أحدث جورا بعد أن كان عدلا، فاختلفوا في جواز الخروج عليه، والصحيح: المنع إلا أن يكفر، فيجب الخروج عليه.

قال ابن بطال: إن حديث ابن عباس المذكور - في أول الباب - حجة في ترك الخروج على السلطان، ولو جار.

قال في الفتح: وقد أجمع الفقهاء: على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه، لما في ذلك من حقن الدماء، وتسكين الدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك؛ بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها كما في الحديث. انتهى[2].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٤/ ٥٠٧).
(٢) فتح الباري (١٢/ ٨،٧) طبعة دار الفكر.

قال الشوكاني: وقد استدل القائلون بوجوب الخروج على الظّلمة، ومنابذتهم بالسيف، ومكافحتهم بالقتال، بعمومات من الكتاب والسنة في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك ولا ريب: أن الأحاديث التي ذكرها المصنف في هذا الباب وذكرناها: أخص من تلك العمومات مطلقا، وهي متواترة المعنى، كما يعرف ذلك من له أنسة بعلم السنة، ولكنه لا ينبغي لمسلم: أن يحط على من خرج من السلف الصالح - من العترة وغيرهم - على أئمة الجور، فإنهم فعلوا ذلك باجتهاد منهم، وهم أتقى لله وأطوع لسنة رسول الله من جماعة ممن جاء بعدهم من أهل العلم. ولقد أفرط بعض أهل العلم كالكرامية ومن وافقهم في الجمود على أحاديث الباب، حتى حكموا بأن الحسين السبط - رضي الله عنه وأرضاه - باغ على الخمّير السكّير الهاتك لحرم الشريعة المطهرة يزيد بن معاوية، فيالله العجب من مقالات تقعشرّ منها الجلود، ويتصدع من سماعها كل جلمود. اهـ[1].

وقفة مع الحكام المعاصرين:

بقي أن يقال هنا: إن جماعات العنف ترى أن الحكام الحاليين قد ارتكبوا (كفرا بواحا عندنا فيه من الله برهان): حينما عطلوا بعض أحكام الشرع عمدا، مثل إقامة الحدود، ومثل تحريم الربا، ومثل إباحة الخمر، ومثل نشر الخلاعة في أجهزة الإعلام المختلفة، بل إن بعضهم ليحارب المرأة المحتشمة، ويعتبر لبسها الخمار جريمة، في حين يطلق العنان للكاسيات العاريات، أو العاريات غير الكاسيات، ومنهم: من يعتبر الدعوة إلى تحكيم الشريعة جريمة مخالفة للدستور، إلى غير ذلك مما يعلمه الخاص والعام.

وأحب هنا أن أفرق بين نوعين من الحكام في ديار الإسلام:

١ - **النوع الأول**: هو الذي يعترف بالإسلام دينا للدولة، وبالشريعة مصدرا للقوانين، ولكنه مفرط في تطبيق الشريعة في بعض الجوانب، فهذا أشبه بالمسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويلتزم بأحكام الإسلام عامة،

---

(١) نيل الأوطار (٩/ ٤٠). طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

ولكنه يرتكب بعض الكبائر: من فعل محظور، أو ترك مأمور، فالخوارج ومن وافقهم يكفرونه، وأهل السنة وجمهور المسلمين يعتبرونه مسلما عاصيا، غير خارج من الملة، ما لم يستحل ذلك، أو ينكر معلوما من الدين بالضرورة، وجل الحكام من هذا النوع.

٢ ـ **والنوع الثاني**: هو العلماني المتطرف، الذي يجاهر بالعداوة لشريعة الإسلام، ويسخر منها، ويعتبرها مناقضة للحضارة والتقدم، فهو يرفض الشريعة رفضا، فهو أشبه بإبليس الذي رفض أمر الله بالسجود لآدم، ووصفه القرآن بأنه ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٣٤.

وقد تحدثنا عن هذا النوع في كتابنا: (التطرف العلماني في مواجهة الإسلام).

وقليل من الحكام: هم الذين يمثلون هذا النوع، الذي يباهي بعداوته لشريعة الله، ويستحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويسقط ما فرضه الله، ويتبع غير سبيل المؤمنين، بل يتبع سبيل المجرمين، ويعمل جاهدا في تجفيف ينابيع التدين في نفوس جماهير المسلمين وفي حياتهم.

وهؤلاء هم الذين يجب مقاومتهم والخروج عليهم، ولكن هذا كله مقيد بحدود القدرة والإمكان، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. وكثيرا ما يؤدي استعمال القوة في غير موضعها إلى كوارث كبيرة، ربما عاقت العودة إلى الشريعة، زمنا قد يقصر أو يطول.

والأولى بالمسلمين هنا: أن يتفقوا على آليات سلمية للتغيير، ويستفيدوا مما وصل إليه العالم عن طريق الوسائل الديمقراطية في التغيير، أو أي طرق أخرى لا تترتب عليها فتنة في الأرض وفساد كبير. والمؤمن يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت. ولا حرج على المسلمين أن يقتبسوا من الوسائل عند غيرهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ما دامت هذه الوسائل غير مخالفة لنصوص الشرع ولا قواعده، بل هي من (المصالح المرسلة) التي تتحقق بها مقاصد الشريعة ومنافع الناس.

٤ـ الخلل في فقه التكفير:

وأما الخلل في (فقه التكفير): فقد عالجناه في رسالتنا: (ظاهرة الغلو في التكفير).

وبعض هذه الجماعات يكفّرون الحكام، وقد بحثنا ذلك في الفقرة الماضية.

وبعضهم يكفرون المجتمع أو الناس بالجملة، فمنهم من يقول: رضوا بكفر الحكام، والرضا بالكفر: كفر.

ومنهم من يقول: لم يكفّروا الحكام الكافرين، ومن لم يكفر الكافر: فهو كافر.

ومنهم من يقول: تولوا هؤلاء الحكام، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١.

ومنهم من يقول: هذه الجماهير لم تدخل الإسلام أصلا حتى تخرج منه، لأنها لم تفهم المدلول الحقيقي لكلمة: (لا إله إلا الله) فهؤلاء ليسوا مسلمين.

وكل هذه دعاوى لا تقوم على أسس علمية، فالمرء يثبت إسلامه بالشهادتين، ولسنا مطالبين أن نشق عن قلبه، بل نقبل ظاهره وندع ما خفي إلى الله. كما جاء في الحديث المتفق عليه: «فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله»[١]. وقوله عليه الصلاة والسلام لأسامة: «هلا شققت عن قلبه».

ومن دخل الإسلام بيقين: لا يخرج منه إلا بيقين مثله، لأن اليقين لا يزال بالشك. والأصل هو حسن الظن بالمسلم، وحمل حاله على الصلاح ما أمكن ذلك، ولو وجد في قول أو فعل أو تصرف وجوه تحتمل الكفر، ووجه واحد يحتمل الإسلام: حمل على هذا الوجه، إبقاء على الأصل، وتحسينا للظن بالمسلم.

وقد بينا في رسالتنا المشار إليها: أن الغلو في التكفير وتوسيع نطاقه: خطأ ديني، وخطأ علمي، وخطأ سياسي، ولا يجوز للمسلم الحريص على دينه أن يتورط فيه، فلتراجع تلك الرسالة، فهي مركزة وكافية للكثيرين.

---

(١) عن أبي هريرة وابن عمر (اللؤلؤ والمرجان: ١٣، ١٤، ١٥).

وهنا نقطة ينبغي أن ننبه عليها، وهي العلاقة بين (العنف) والإرهاب، وهي علاقة العموم والخصوص، بمعنى أن الإرهاب أخص من العنف، فكل إرهاب عنف، وليس كل عنف إرهابا، فيما أراه.

الإرهاب: أن تستخدم العنف فيمن ليس بينك وبينه قضية، وإنما هو وسيلة لإرهاب الآخرين وإيذائهم بوجه من الوجوه.

ويدخل في ذلك: خطف الطائرات، فليس بين الخاطف وركاب الطائرة ـ عادة ـ قضية، ولا خلاف بينه وبينهم، إنما يتخذهم وسيلة للضغط على حكومة معينة: لتحقيق مطالب له: كإطلاق مساجين أو دفع فدية، أو نحو ذلك، وإلا قتلوا من قتلوا من ركاب الطائرة.

كما يدخل في ذلك: احتجاز رهائن لديه، لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولكن يتخذهم وسيلة ضغط: لتحقيق مطالبه أو يقتل منهم من يقتل، كما فعل جماعة أبو سياف في جنوب الفلبين وغيرهم.

ومن ذلك: قتل السياح في مصر، كما حدث في مذبحة الأقصر وغيرها، لضرب الاقتصاد المصري، للضغط على الحكومة المصرية.

ومن ذلك: ما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطن، من اختطاف الطائرات المدنية بركابها: من المدنيين الذين ليس بينهم وبين خاطفيها مشكلة أو نزاع، واستخدامها (آلة هجوم) وتفجيرها بمن فيها، للضغط والتأثير على السياسة الأمريكية.

وكذلك ضرب المدنيين البرآء: في برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، وفيهم: أناس لا علاقة لهم باتخاذ القرار السياسي، ومنهم مسلمون وغيرهم.

وإذا كنا ندين العنف بصفة عامة، فنحن ندين الإرهاب بصفة خاصة، لما فيه من اعتداء على أناس ليس لهم أدنى ذنب يؤاخذون به.

وقد أصدرت فتوى ـ منذ بضعة عشر عاما ـ: بتحريم خطف الطائرات، وذلك بعد حادثة خطف الطائرة الكويتية، وبقاء ركابها فيها محبوسين: ستة عشر يوما، كما قتلوا واحدا أو اثنين من ركابها.

كما أفتيت بتحريم حجز الرهائن والتهديد بقتلهم، إنكارا على ما اقترفته جماعة (أبو سياف).

وكذلك أصدرت بيانا - عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر - دنْتُ فيه هذا العمل ومقترفيه، أيا كان دينهم، أو جنسهم أو وطنهم.

وأيضا: دنت الإرهاب بوضوح - في خطبي، ومحاضراتي، ومقالاتي، وكتبي - ومن ذلك: ما ذكرته في كلمتي التي ألقيتها في مؤتمر القمة الإسلامية المسيحية، الذي عقد في روما في أكتوبر ٢٠٠١م، وفيها قلت:

نرفض الإرهاب:

(إنني باسمي وباسم كل علماء المسلمين: نرفض الإرهاب، الذي يعني ترويع الآمنين وقتل البرآء بغير حق، ولكننا لا نعد أبدا من الإرهاب: من يدافع عن وطنه وحرماته ومقدساته، فمن الظلم أن يسمى هذا إرهابا، بل هو دفاع مشروع.

إن الشرائع السماوية، والقوانين الوضعية، والأعراف الدولية، والقيم الفطرية، كلها متفقة على مشروعية: المقاومة لكل غاز يحتل الأرض، حتى يجلو عن الوطن.

كما أننا ننكر: أن نحارب الإرهاب بإرهاب مثله، يستخدم نفس منطقه، ويأخذ البريء بذنب المسيء، والمظلوم بجريرة الظالم، ولهذا نحذر هنا أن يؤخذ شعب كامل بجريمة أفراد منه، حتى لو ثبتت الجريمة عليهم، أو يتّهم دين تتبعه أمة كبرى بأنه دين العنف والإرهاب بسبب أفراد منه، وقد سبق لأفراد مسيحيين في أمريكا نفسها اتهموا بجرائم إرهابية، وحوكموا عليها ودينوا فيها، كما في حادث أوكلوهوما سيتي الشهير، الذي قام به مسيحي أمريكي بدوافع خاصة، فلم تتهم - بسببه - أمريكا كلها، ولا العالم المسيحي، ولا الديانة المسيحية؟

(يجب أن نتعامل مع الإرهابيين على أساس من معرفة دوافعهم، ودراسة نفسياتهم، فالإرهابي: إنسان مغلق على نفسه، شديد التعصب لفكرته التي يؤمن بها، ويرى من خلالها العالم والحياة والإنسان، على غير ما يراه الآخرون، ويرى نفسه هو المصيب، وكل الآخرين مخطئين، أو منحرفين. فهو صاحب قضية يعمل

من أجلها، وليس من أجل مصلحة نفسه، وهو مستعد أن يضحي بنفسه: من أجل قضيته. وآفته ليست في ضميره، بل في رأسه وفكره.

(ولهذا يجب أن يقاوم أول ما يقاوم: بتصحيح فكرته الخاطئة، ومفاهيمه المغلوطة، ولا يقاوم عنفه: بعنف مضاد، إلا بمقدار ما تمليه الضرورة، فإن هذا العنف لا يزيده إلا تصلّبًا وإصرارا على موقفه. وهنا عمل أهل الفكر والدعوة والتربية، والميدان مفتوح أمامهم، لتقويم ما اعوج من فكر، وإصلاح ما فسد من السلوك.

(ثم إن جرائم الإرهاب ـ عادة ـ إنما هي جرائم أفراد، أو مجموعات صغيرة، ومثلها لا يقاوم بشن حرب كبيرة عليها، لأنها قد تصيب غيرهم ولا تصيبهم، إنما يقاوم هؤلاء بما يقاوم به كل المجرمين، وهو تقديمهم لمحاكمة عادلة تعاقبهم بما يستحقون وفق الشرائع والقوانين المرضية.

(كما أن محاربة الإرهاب حقا إنما تتم بمحاربة أسبابه، ومنها إزالة المظالم، وحل القضايا المعلقة، ومنها: قضية فلسطين التي شرد أهلها وأخرجوا من ديارهم بغير حق.

ومن ذلك: أن يترك للمسلمين حريتهم، وحقهم في أن يحكموا أنفسهم وفق عقائدهم التي آمنوا بها، ولا يفرض عليهم نظام لا يرضونه.

هل هذا العنف مفيد؟

بقي سؤال آخر، لا بد منه هنا، وهو: إذا لم نتكلم بمنطق الشرع، وتحدثنا بمنطق المصلحة أو الفائدة والثمرة، فهل هذا العنف مفيد؟ هل يحقق مصلحة للدعوة الإسلامية، وللصحوة الإسلامية؟

لا فائدة من هذا العنف:

نستطيع أن نؤكد: أن هذا العنف لا يغير حكومة ولا يسقط نظاما، هذا الاغتيال السياسي، أو القتل العشوائي، أو العمل التخريبي، لم نره غيّر شيئا في الأنظمة

القائمة التي أراد دعاة العنف تغييرها، وقد جرب الاغتيال السياسي، فذهب حاكم وجاء آخر بعده، واستمر الوضع، وربما كان الجديد أسوأ من القديم، وربما ازداد الوضع سوءا.

ثم إن هذا الذي يقوم بالعنف لا يستطيع الاستمرار فيه إلى الأبد، إنه يستمر مدة ثم ييأس، ويلقي سلاحه، ولم يجن ثمرة من عمله، إلا ما قتل من أنفس، وما أضاع من جهد وعُمر.

فقه التغيير:

على أن فقه التغيير الحق لا يتم بالعنف، إنه عمليه طويلة المدى، عميقة الجذور، يبدأ أول ما يبدأ: وفق المنهج القرآني والنبوي بتغيير ما بالأنفس: بالتوعية والتربية، والإعداد الطويل النفس. غيّر ما بنفسك يتغير التاريخ، هذه السنة القرآنية الثابتة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد: ١١.

وهذا ـ للأسف ـ لا يعيه إلا أولو الألباب، ولا يصبر عليه إلا أولو العزم، وقليل ما هم.

العنف الوحيد المشروع:

إن العنف الوحيد المشروع هو: العنف لمقاومة الاحتلال الغاصب، مثل مقاومة الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، والصربي في البوسنة والهرسك، وفي كوسوفا، والهندوسي في كشمير، ونحو ذلك.

وهو ما يجب أن يقرره أهل الحل والعقد، ولا يترك الأمر فوضى: لكل من يقدر على حمل السلاح.

وهذا في حدود الاستطاعة، حتى لا تتعرض الجماعة المسلمة للإبادة والتصفية الجماعية، بحجة مقاومة العنف والإرهاب. وبهذا يمكن الكمون والتربص فترة، ثم الظهور عند الفرصة والقدرة. وقد قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن: ١٦. وقال: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦.

وفي الحديث المتفق عليه: « إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ». وقال تعالى: ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ البقرة: ١٩٥ . وقال: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ النساء: ٢٩ . وفي الحديث « لا ضرر ولا ضرار ».

مقاومة الكفر البواح:

وهناك عنف آخر مشروع: عبر عنه الحديث الصحيح المتفق عليه، حين قال: «إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان».

وذلك مثل: مقاومة الردة العلمانية الصريحة، التي قال عنها العلامة أبو الحسن الندوي: ردة ولا أبا بكر لها. الردة التي ترفض قواطع الإسلام. وهذه المقاومة المشروعة في حدود الاستطاعة والإمكان، وإلا وجب الصبر والإعداد ليوم الخلاص.

١٠. من الاختلاف والتشاحن
إلى الائتلاف والتضامن

أعظم ما يؤذي الصحوة الإسلامية، ويضر بها، ويعوق مسيرتها، ويمكن أعداءها منها: أن تتناكر فصائلها وأجنحتها المختلفة ولا تتعارف، وأن تتعادى ولا تتآخى، وأن تتفرق ولا تجتمع، وأن يتوجس بعضها من بعض، ويسيء بعضهم الظن ببعض، بل يكيد بعضهم لبعض، بل يعمل كثير منهم لهدم إخوانه، وبناء نفسه على أنقاضهم.

إنه الداء الوبيل، والمرض الخطير، الذي سماه رسول الإسلام ﷺ (داء الأمم) وهو الحسد والبغضاء «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، ولا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[1]. بل هو الذي ضيع الدولة الإسلامية الكبرى من قبل، ومكن الغزاة من اختراقها، وسلط عليها الصليبيين من الغرب، والتتار من الشرق. وهو ما حذرنا الله تعالى ورسوله منه، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الأنفال: ٤٦. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ آل عمران: ١٠٥.

وقال رسول الله ﷺ: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[2]. «لا تحاسدوا ولا تنجاشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبغ بعضكم على بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[3].

وإذا كان هذا مستنكرا بين المسلمين كافة، فهو أشد ما يكون استنكارا إذا وقع بين العاملين لنصرة الإسلام، وبعث أمته، وإحياء حضارته، وتحكيم شريعته، وهم

---

(١) رواه أحمد والترمذي والضياء عن الزبير، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (١/ ٣٣٦١) ولم يحكم عليه.
(٢) رواه البخاري عن ابن مسعود. صحيح الجامع الصغير (٧٢٥٥).
(٣) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة. المصدر السابق (٧٢٤٢).

أبناء الصحوة الإسلامية، الذين يفترض فيهم أنهم يحملون هموم الأمة، ويتقدمون الركب المنقذ لها، المدافع عن هويتها وانتمائها ورسالتها.

ولو جاز أن يكون البغض أو الكراهية أساسا للتعامل بين الناس - وما هي بجائزة - فلا يجوز أن تكون أساسا للتعامل بين العاملين للإسلام.

إنما الذي يجب أن يسود بينهم هو قانون الحب، أن يحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه، وهذا هو موجب الإيمان. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ الحجرات: ٩.

وقال جل شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ آل عمران: ١٠٣.

وقال تعالى لرسوله ممتنا عليه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال: ٦٢، ٦٣.

وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

وقال: «والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا»[2].

حتى من أساء إلى أخيه ينبغي أن يقابل إساءته بالإحسان والصفح، لا بالانتقام أو الحقد. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت: ٣٤.

وإذا كان عنترة الشاعر الجاهلي يقول:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ... ولا ينال العلا من طبعه الغضب!

---

(١) متفق عليه عن أنس.
(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة.

فماذا ينبغي أن يقوله المسلم في هذا المقام؟ وإذا كانت قرابة الدم، وصلة العصبة جعلت الشاعر المسلم يقول:

وإن الذي بيني وبين أبي	وبين بني عمي لمختلف جدا
إذا أكلوا لحمي وفرت لحومهم	وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمر بي	زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم	وإن هم هووا غيي هويت لهم رشدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهمو	وليس كبيرَ القوم من يحمل الحقدا!

إذا كان هذا شأن الرجل المسلم الكبير في قومه مع إخوانه وأبناء عمومته، فيجب أن يكون هذا هو موقف الداعية المسلم مع جميع إخوانه ورفقائه في درب الدعوة، يفر لحومهم، ويبني مجدهم، ويحفظ غيوبهم، ويهوى رشدهم، ولا يحمل حقدا عليهم.

موقف يوسف من إخوته:

وقد ذكر القرآن لنا نموذجا يحتذى في تعامل الأخ القدوة مع إخوانه إذا أساءوا إليه، وكيف يسامح ويصفح، وإن بلغت إساءتهم إلى حد التآمر على القتل.

إنها قصة يوسف الذي أصابه من كيد إخوته وحسدهم ما أصابه من محن وابتلاءات استغرقت صباه وشبابه، وبعض كهولته، فلما مكنته الأقدار منهم، لم ينظر إليهم نظرة الحقود الذي يريد أن ينتقم، وأن يصفي الحسابات القديمة، بل عاملهم بلطف ومحبة، والتمس لهم العذر فيما صدر منهم ﴿**قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**﴾ يوسف: ٨٩. ففي قوله: ﴿**إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ**﴾ فتح لباب الاعتذار عنهم والتماس مخرج لهم: أنهم كانوا في مرحلة الجهل والطيش، فكان ردهم ﴿**تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ**﴾ يوسف: ٩١.

وهنا كان الموقف اليوسفي السمح الكريم: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يوسف: ٩٢. وحين دخل أبوه وإخوته عليه في مصر، وفي ظل سلطانه ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يوسف: ١٠٠.

فذكر نعمة الله عليه إذ أخرجه من السجن، ولم يذكر إخراجه من الجب حتى لا ينكأ الجراح القديمة، ونسب ما حدث بينه وبين إخوته إلى نزغ الشيطان عدو الإنسان، فكأنه يعتذر عنهم في هذا الموقف الذي أعزه الله فيه. وهكذا ينبغي أن يكون الرجال الكبار من أهل الإيمان والإحسان.

ومن النماذج الخلقية الرائعة ما ذكره الشاعر العربي قديما عن قومه وقد قتلوا أخاه، وما أروع ما قال:

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي!
فلئن عفوتُ لأعفونْ جللا ... ولئن رميت لأوهنَنْ عظمي!

فما أبلغ هذا الكلام وما أصدقه، فإنه إذا أراد أن يثأر لأخيه من قومه، فرماهم بسهمه، فإن السهم سيصيبه ويجرحه كما يصيبهم ويجرحهم، لأنهم منه، وهو منهم، ورميه لهم سيوهن عظمه كما يوهن عظمهم، فليس له إلا أن يعفو، وإن كان العفو أمرا جللا، ولكن لا بديل عنه.

وقد كان مسطح من أقارب سيدنا أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ولكنه أطال لسانه في عائشة ـ رضي الله عنها ـ وشارك أصحاب الإفك في تناول عرضها بسوء، ولم يراع حق القرابة، ولا حق الإسلام. فلما أنزل الله براءتها من فوق سبع سماوات، حلف أبو بكر ألا يصله بما كان يصله به من مال من قبل، جزاء على فعلته النكراء، وموقفه الخبيث. ولكن القرآن عاتب أبا بكر في ذلك ونزل قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور: ٢٢. فلما قرأ أبو بكر الآية، قال: بلى أحب أن يغفر الله لي. وعاد إلى وصله وبره كما كان من قبل.

موقف الإمام أحمد ممّن أساءوا إليه:

وانظر إلى موقف الإمام أحمد ممن آذوه وعذبوه في المحنة المعروفة في تاريخنا بمحنة خلق القرآن، كيف صفح عنهم وجعلهم في حل، محتسبا أجره على الله.

فقد رووا عنه: أنه جعل كل من حضر ضربه وآذاه في حلٍّ، حتى الخليفة العباسي الذي ضرب بأمره - وهو المعتصم - جعله في حل، وخصوصا بعد أن فتح عاصمة (بابك) الخرمي الملحد المارق، وظفر به، وبعد فتحه لعمورية.

وكان مما دعاه إلى ذلك: ما قرأه في كتاب الله من مثل قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ الشورى: ٤٠. وقد روي في تفسيرها عن الحسن: إذا كان ذلك يوم القيامة جثت الأمم كلها بين يدي الله رب العالمين، ثم نودي: أن لا يقوم إلا من أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا![١].

قال: ورأيت الله يقول: ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ النور: ٢٢.

وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قضية مسطح، قال الإمام أحمد: وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم في سببك[٢]!!

فما أبلغها وأروعها من كلمة لا تصدر إلا عن (الإمام حقا، وشيخ الإسلام صدقا) كما وصفه المؤرخ الكبير الحافظ الذهبي رحمه الله[٣].

هذه الروح الإيمانية المحلِّقة هي التي يجب أن تسري وتسود بين رجال الدعوة، وفصائل الصحوة، في الساحة الإسلامية، لا روح التناكر والتباغض والتعادي التي نشهدها ونلمس آثارها المدمرة بأعيننا، فأبناء الصحوة ينهش بعضهم بعضا، ويذوق بعضهم بأس بعض، وهذا من عقوبات الله تعالى القدرية، التي أنذر بها المشركين، حين كذبوا رسوله، وأعرضوا عن دعوته، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ الأنعام: ٦٥.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (ج١١/ ٢٥٧، ١٥٨).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (ج١١/ ٢٦١).
(٣) في مطلع ترجمته في المصدر نفسه ص ١٧٧.

والواجب على القيادات الدعوية والفكرية والتربوية: أن تهتم بعلاج هذه الظاهرة، وتعطيها عناية أكبر: ظاهرة التفرق والتشاحن بين الجماعات الدينية المختلفة التي تكوِّن الصحوة الإسلامية.

ولا يمكن علاج هذه الظاهرة بمحاولة رفع الخلاف في المسائل الفقهية، والفروع الدينية، فقد بينا بالأدلة أن الاختلاف في الفروع ضرورة ورحمة وسعة، وأن الاختلاف لا يضر، ولكن الذي يضر هو التفرق والتعادي، وأن الذين حاولوا إلغاء المذاهب، لم يزيدوا على أن زادوا بمحاولتهم مذهبا جديدا.

وكذلك نادى بعض المخلصين المثاليين - على المستوى الحركي - أن تتوحد الجماعات الإسلامية، والحركات الإسلامية، في جماعة أو حركة عالمية كبرى تضم الجميع في كنفها، وتلغي انتماءاتهم لجماعاتهم الأصلية، وهي أمنية عذبة، ولكنها بعيدة المنال من جهة الواقع.

فالناس لكي يكونوا أعضاء جماعة واحدة، لا بد أن يتفقوا على الأهداف وعلى ترتيبها، ثم على المناهج والوسائل الموصلة إلى الأهداف، ثم على القيادات والأشخاص، والاتفاق على هذا كله ليس بالأمر السهل.

ولهذا ناديت منذ زمن طويل بأنه لا مانع من أن تتعدد الجماعات والحركات العاملة لنصرة الإسلام، وبعث الأمة الإسلامية، وأن يعمل كل منها في الميدان الذي يختاره ويحسنه، فهذا يعمل في تحرير العقيدة من الشركيات والخرافات، وآخر يعمل لتحرير العبادة من المبتدعات، وثالث يعمل لتربية النشء تربية إسلامية، وإنشاء المدارس الإسلامية، وخامس يعمل في مجال الاقتصاد وتأسيس المصارف والشركات الإسلامية، وسادس يعمل في مجال الفكر والثقافة والرد على الماركسيين والعلمانيين، وغيره يعمل في الميدان السياسي وخوض الانتخابات لإبلاغ كلمة الإسلام إلى المجالس التشريعية وآخر يعمل في المجال الاجتماعي والخيري والإغاثة الإنسانية. وآخر يعمل في أكثر من مجال من هذه المجالات.

وهذا التعدد لا ضرر فيه ولا خطر، بل هو من (اختلاف التنوع) وهو من الظواهر الشائعة في الكون كله التي يعبر عنها القرآن باختلاف الألوان، ويعده آية من آيات الله. لأن التنوع فيه إثراء للحياة، وإغناء لها.

وهذا بخلاف (اختلاف التضاد) أو (التناقض) فهذا هو الذي يحمل الضرر والخطر، ومنه يتطاير الشرر، ويتصارع البشر.

ومن المهم في هذا التعدد: أن يكون بين الجميع قدر من التفاهم والتنسيق بحيث لا تتصادم المصالح، ولا تتعارض الاتجاهات، وأن يقف الجميع في القضايا المصيرية والأحداث الكبرى، صفا واحدا، وجبهة متراصة. وبهذا لا يضر أبدا التعدد التنظيمي، ولا الاختلاف الجزئي.

ولم أر في القادة والدعاة الإسلاميين من كان أحرص على جمع الكلمة، ولمّ الشمل، وتوحيد الصفوف بين الإسلاميين، وإزالة الجفوة بين بعضهم وبعض، مثل الإمام حسن البنا ـ رحمه الله ـ فقد كان أبدا يسعى لأن يجمع ولا يفرق، وأن يقرب ولا يباعد، وأن يبني ولا يهدم، ما وجد إلى البناء سبيلا.

وحين أنشئ اتحاد الجمعيات الدينية في مصر، قدم مذكرة تتضمن ما سمي بعد ذلك (الأصول العشرين) لتكون أساسا تلتقي عليه الجماعات الإسلامية.. ولذا صاغها صياغة تتميز بالاعتدال والحكمة والمرونة، بحيث يتفق عليها الجميع، وترك بعض القضايا دون حسم مثل قضية التوسل، لأن الحسم فيها برأي قاطع قد يؤدي إلى الاختلاف، وهو يهدف إلى الائتلاف.

وعلى كل داعية أو مفكر أو مُرَبٍّ يتحرى إصلاح ذات البين، وتقريب فصائل الدعوة الإسلامية أو الصحوة الإسلامية بعضها من بعض، أن يحذو حذو الإمام حسن البنا، حتى يجتمع الشمل المشتت، ويتوحد الصف الممزق، ويلتقي الجميع على كلمة سواء.

ضرورة معرفة الأسباب:

ولا بد لنا هنا أن نعرف أسباب هذا التناكر والتشاحن بين فصائل الصحوة، حتى نستطيع أن نعالجها على بصيرة، فإن العلاج الصحيح لا يتم إلا بمعرفة الأسباب.

ورأيي أن هناك جملة أسباب تؤدي إلى هذه الظاهرة المرَضية، التي لا يحسن السكوت عليها بحال من الأحوال. من هذه الأسباب:

١- جهل الأطراف أوالفصائل المختلفة بعضها ببعض. ولهذا لا بد من جهد يبذل للتعرف على الآخرين، وتعريفهم بأنفسنا، دون استعلاء أو تطاول.

٢- الإعجاب بالنفس والتعصب للرأي واعتقاد أنه هو الذي يملك الحق وحده، وأن الآخرين جميعا على باطل، والإعجاب بالنفس أحد المهلكات.

٣- سوء الظن بالآخرين، مع تحذير القرآن من ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الحجرات: ١٢، وقوله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».

٤- ضيق الصدر بخلاف الآخرين، واعتقاد أن الساحة لا تحتمل الخلاف، مع أن الصحابة وتابعيهم والمسلمين في خير القرون اختلفوا، وظلوا مع ذلك إخوانا متحابين.

٥- الاستجابة لوسائل المفرقين بين أبناء الأمة من أعدائها المتربصين بها، الذين تقوم سياستهم على قاعدة: فرِّق تسد! ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ آل عمران: ١٠٠. والسياق يدل على أن المعنى: يردوكم بعد وحدتكم متفرقين، وبعد أخوتكم متعادين.

ضرورة وحدة الصف:

وأعتقد أن من المهم هنا أن يدرك الجميع ضرورة وحدة الصف، وجمع الكلمة بين العاملين لنصرة الإسلام، وخدمة قضاياه، وإن اختلفت رؤاهم أو آراؤهم الجزئية في بعض الأمور، فليس من اللازم إذا اختلفت آراؤهم أن تختلف قلوبهم.

إننا نطمح إلى أهداف كبيرة نريد بها أن تنهض أمتنا، وأن نرقى بها ماديا وروحيا، وأن نضعها في مكانها الصحيح بين أمم الأرض باعتبارها (الأمة الوسط) وبوصفها (خير أمة أخرجت للناس) نحن نريد أن نغير الأمة من داخلها، نغير ما بأنفسها حتى يغير الله ما بها، وفق سنته التي لا تتبدل.

نريد أن ننشئ الفرد الصالح، والبيت الصالح، والمجتمع الصالح، والأمة الصالحة، والدولة الصالحة، وهذه أهداف كبار، لا بد أن تتعاون عليها كل الجهود، وأن تفكر فيها معا كل العقول، وأن تحشد لها كل الطاقات. والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ويد الله مع الجماعة، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا.

إن الأعمال الفردية ـ وإن كان لها فضلها وثوابها ـ لا يمكن أن تنهض بالأعباء الكبيرة وحدها، إنما تنهض بها الجماعات والمؤسسات. ولهذا دعانا الإسلام إلى التعاون وأمرنا به حين قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ المائدة: ٢.

ونحن نرى خصوم الإسلام يعملون في صورة تجمعات وتكتلات كبرى، وبذلك يتمكنون من تحقيق أهدافهم الإقليمية والعالمية، بتكاتفهم وتساندهم، وفناء بعضهم في بعض.

وهم بذلك يطبقون ما أوجبه ديننا، فلو لم يكن هذا دينا مفروضا من الله علينا، لوجب علينا أن نقتبسه منهم، حتى لا نتخلف عنهم.

وإذا جاز لبعض الناس أن يتفرقوا ويختلفوا في أوقات العافية والرخاء والنصر، فلا يجوز لهم بحال أن يتفرقوا في ساعات الشدة والعسرة والمحنة، فالمفروض أن المحن تجمع المتفرقين، وأن المصائب يجمعن المصابين، وقديما قال الشاعر: عند الشدائد تذهب الأحقاد.

ونحن الآن نعاني محنا قاسية، وقوارع شديدة، في كل وطن من أوطاننا، وفي أمتنا بصفة عامة، وخصوصا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، دخلت الأمة من مشرقها إلى مغربها في امتحان عسير، وموقف خطير، يستوجب منها عامة، ومن علمائها ودعاتها وفصائل صحوتها خاصة: أن ينسوا خلافاتهم الجانبية، ومعاركهم الهامشية، ويقفوا في جبهة واحدة متراصة في المعركة التي يواجهها الإسلام وأهله، فعند المعركة يجب أن يتلاحم الجميع، ويتساند الجميع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ الصف: ٤.

وإن من أشد المخاطر أن يتلاحم خصوم الأمة من أهل الكفر، ويوالي بعضهم بعضا، في حين يتباعد أهل الإيمان ويتخاذلون، وهو ما حذر منه القرآن في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ الأنفال: ٧٣. أي إن لم يوال بعضكم بعضا، ويتكاتف بعضكم مع بعض كما يفعلون، تكون الفتنة والفساد الكبير، لأن معناه أن أهل الباطل يتجمعون، وأهل الحق يتفرقون، وأن هناك عملا وهنا فراغا، هذا هو الخطر كل الخطر.

وقد رأينا غير المسلمين يتجمعون ويتوحدون، على الرغم من وجود أسباب للخلاف بينهم، بعضها تاريخي، وبعضها واقعي، كما رأينا في الاتحاد الأوربي، الذي حدث بين بلاده بعضها وبعض: حروب وحروب، آخرها الحربان العالميتان، اللتان سقط فيهما ملايين الضحايا، ومع هذا طرحوا هذه المآسي وراءهم ظهريا، ووجدوا مصلحتهم الكبرى في أن يتحدوا.

وقبل ذلك رأينا التقارب بين المذاهب المسيحية بعضها وبعض، وبين المسيحية عموما واليهودية، برغم العداء التاريخي بينهما، حتى أصدر الفاتيكان وثيقته الشهيرة بتبرئة اليهود من دم المسيح.

والمسلمون - وحدهم - هم الذين يختلفون ويتنازعون بعضهم مع بعض، مع توافر الكثير من أسباب الوحدة بينهم، وحسبهم أنهم جميعا من أهل القبلة، وأنهم جميعا من أهل (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، وأنهم جميعا رضوا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبالقرآن إماما، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

ولقد ذكر القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام: حادثة فيها تبصرة وعبرة لأولي الأبصار، وهي قصة هارون عليه السلام مع قومه، ذهب موسى إلى مناجاة ربه أربعين ليلة، فأضلهم السامري، وأخرج لهم عجلا جسدا له خوار، فقال: هذا إلهكم وإله موسى. وأطاعه القوم وعبدوا العجل، الذي لا يرجع إليهم قولا، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا، ولا يهديهم سبيلا. ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ طه: ٩٠، ٩١.

ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا لما فعلوه في غيبته، وألقى ألواح التوراة في الأرض غضبا لله وللحق، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، قائلا له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ طه: ٩٢ ـ ٩٤.

وقد رضي موسى بهذا الجواب، وأقره القرآن الكريم، فدل على أن ما رعاه هارون: أمر له اعتباره في ميزان الدين، وهو: الحرص على وحدة الجماعة، حتى لا تتمزق، والسكوت على منكر كبير، بل هو أكبر منكر ـ وهو الإشراك بالله تعالى بعبادة غيره سبحانه ـ حرصا على وحدة الجماعة، وهو قطعا سكوت مؤقت، حتى يرجع موسى من رحلته، ويتفاهم الأخوان معا في علاج الموقف الخطير بما يلائمه.

ولا يقول أحد: إن هذا كان شرع من قبلنا، فإنما يذكر القرآن هذه القصص لنأخذ منها العبرة والدروس، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ يوسف: ١١١.

وقال تعالى لرسوله بعد أن ذكر له عددا من أسماء رسله الكرام: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الأنعام: ٩٠.

تأصيل فقه الاختلاف:

ويهمني أن أذكر هنا حقيقة لا غنى عنها، وهي حاجتنا إلى تبني (فقه الاختلاف) أو (فقه الائتلاف) كما سماه أحد إخواننا الباحثين.

وهو الذي نعرف منه: أن الاختلاف في فروع الشريعة ضرورة ورحمة وسعة، وقد بينت ذلك بتفصيل في كتابي (الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم).

وقد اختلف في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، وتابعوهم بإحسان، والأئمة المرضيون المتبوعون، فما ضرهم ذلك، بل اختلفت اجتهاداتهم، ولم تختلف قلوبهم، وصلى بعضهم وراء بعض، وأثنى بعضهم على بعض، وهذا شأن الراسخين في العلم. أما السطحيون والمهازيل فهم لا يطيقون أن يختلفوا مع أحد، أو يختلف معهم أحد.

وقد تحدثنا عن هذا الموضوع بتفصيل في الجزء الخامس من سلسلتنا (نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام) وهو الخاص بالتعامل مع التراث والتمذهب والاختلاف، وقد حاولت فيه أن أؤصل فقه الاختلاف، وأقيمه على أصول وركائز شرعية، وقواعد فقهية راسخة، بلغت تسع عشرة ركيزة مؤسسة على القرآن والسنة، وما اجتمع عليه أكابر علماء الأمة في خير قرونها، التي بها يقتدى فيهتدى.

ركائز فقه الاختلاف:

ومن هذه الركائز والقواعد التي تجب رعايتها واعتبارها في فقه الخلاف:

١ـ اعتبار أن الاختلاف في فروع الفقه ضرورة.

٢ـ اعتبار أن الاختلاف في فروع الفقه رحمة وتوسعة للأمة.

٣ـ اعتبار أن الاختلاف في فروع الفقه ثروة في التشريع للأمة.

٤ـ أن محاولة رفع الخلاف، وحمل الأمة كلها على رأي واحد: غير ممكن، وغير مجد.

٥ـ احتمال الصواب في رأي المخالف.

٦ـ إمكان تعدد الصواب.

٧ـ المخطئ في الاجتهاد ـ ما دام من أهله ـ معذور، بل مأجور.

٨ـ لا إنكار في المسائل الاجتهادية الخلافية.

٩ـ إنصاف المخالف وذكر ما أحسن فيه.

١٠ـ العدل مع الموافق ونقده بالحق.

١١ـ التعاون في المتفق عليه.

١٢ـ التسامح في المختلف فيه.

١٣ـ التحاور في المختلف فيه.

١٤ـ تسامح المختلفين وصلاة بعضهم وراء بعض.

١٥ـ اعتبار المذاهب كلها على خير وهدى.

١٦ـ الترحيب باختلاف التنوع لا اختلاف التضاد.

١٧ـ تجنب المراء واللدد في الخصومة.

١٨ـ الأدب مع الكبراء والعلماء.

١٩ـ اجتناب التأثيم والتكفير.

ركيزة التسامح في المختلف فيه:

وقد فصلنا القول في هذه الركائز التسعة عشر في فصول ضافية، أنصح بالرجوع إليها لمن يريد أن يتفقه في الموضوع، ويحيط به علما، أو يزداد به علما.

وأكتفي هنا بنقل أهم ما ذكرته عن الركيزة الثانية عشرة، التي تتحدث عن (التسامح في المختلف فيه). وهو الشق الثاني من (قاعدة المنار الذهبية) التي دعا إليها العلامة السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ والتي تقول: (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه) وأنا أحبذ أن أعرضها بقولي: ونتسامح فيما اختلفنا فيه.

ومما ينبغي ذكره هنا: أن بعض الإخوة من المحافظين ـ أو المتشددين ـ اعترضوا على هذه القاعدة، كما ذكرت ذلك في كتابي (فتاوى معاصرة ـ الجزء الثاني). ولم يكن اعتراضهم على الشق الأول، وهو التعاون في المتفق عليه، بل كان منصبا على الشق الثاني، وهو التسامح في المختلف فيه، وقالوا: كيف نعذر أو نسامح من يخالف النصوص من القرآن والحديث؟

وكان جوابنا: أن النصوص القطعية الثبوت والدلالة لا عذر فيها ولا تسامح، لأن هذه هي الثوابت التي تجسد وحدة الأمة.

ولكن الكلام فيما يحتمل الخلاف من النصوص، فهذا يأخذ بالظاهر، وآخر يأخذ بالمقصد والفحوى، كاختلاف الصحابة في صلاة العصر في سيرهم إلى بني قريظة، وقد يأخذ بعضهم بالحقيقة، ويأخذ غيره بالمجاز، كاختلاف بعض الصحابة والتابعين والأئمة في مفهوم قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ المائدة: ٥. وقد

يأخذ بعضهم بإطلاق النص أو عمومه، وغيره يقيده أو يخصصه، وقد يقبل بعضهم الحديث، وآخر يرفضه، إلى غير ذلك من الأسباب التي فصلها الإمام ابن تيمية في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام).

ولهذا آثرت أن أنقل هنا هذا الفصل (التسامح في المختلف فيه) لما أرى فيه من أهمية وضرورة.

ومعنى (التسامح في المختلف فيه): أن ننظر بصدر واسع، ومن أفق رحب، إلى المسائل التي اختلف فيها الأئمة، وتعددت فيها مذاهب الأمة، فلا تتعصب لرأي ضد رأي، ولا لمذهب ضد مذهب، ولا لإمام ضد إمام آخر. باعتبار أنهم كلهم على هدى، وجميعهم على خير، وكل منهم بذل وسعه في طلب الحق، مبتغيا وجه الله تعالى ورضاه، فيما نعلمه عنهم، ولا نعلم عنهم جميعا إلا خيرا.

وإذا آمنا بما ذكرناه من مبادئ وركائز: من حيث إن الاختلاف ضرورة لا بد منها. وإنه رحمة وتوسعة للأمة، واحتمال صواب رأي المخالف، وإمكان تعدد الصواب، وعدم إمكان جميع ا لناس على رأي واحد، وعدم جدواه أيضا، وأن المخطئ في اجتهاده من أهل العلم مأجور على خطئه أجرا واحدا، وأنه لا إنكار في المسائل الاجتهادية أو الخلافية. فهذا كله وغيره يؤدي إلى نتيجة مهمة، وهي أن يسامح بعضنا بعضا، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

ولا يضيق بهذا الاختلاف أو ينظر إلى من خالفه نظرة عداوة أو ريبة وتنقص، إلا من ضاق صدره، وضاق أفقه، ولم يستوعب المعاني السالفة، التي بيّنّاها وكشفنا الغطاء عنها، ولم يحط خبرا بما كان عليه سلف الأمة في خير قرونها، ومن بعدهم من أعلام العلماء، وأفذاذ الفقهاء، ممن أعز الله بهم الدين، ونفع بعلومهم المسلمين. فلم يكن الاختلاف بينهم في الآراء والفروع ليفرق جماعتهم، أو ليهدم أخوتهم، أو ليفتح ثُغرة للشيطان ليوقع بينهم العداوة والبغضاء، كما يوقعها بين أهل الخمر والميسر.

والتسامح مع المخالف، والتماس العذر له، وأكبر من ذلك: احترام رأيه واجتهاده: هو الشائع بين أئمة السلف رضي الله عنهم. لهذا لم يكن يعيب بعضهم على بعض، بل كان بعضهم يعذر بعضا، ويقدر بعضهم بعضا، ويحب بعضهم بعضا، ويصلي بعضهم خلف بعض، بل قد يدل أحدهم مستفتيه أن يذهب إلى عالم آخر، أو حلقة أخرى تيسر له، وتوسع عليه، بل قد يقلد مذهب المخالف عند الحاجة.

ولهذا أمثلة شتى :

احترام رأي المخالف في الفروع

والعمل به عند الحاجة:

قال الإمام الأوزاعي في الذي يقبل امرأته : إن جاء يسألني قلت : يتوضأ، وإن لم يتوضأ لم أعب عليه[١] .

وقال الإمام أحمد في الركعتين بعد العصر : لا نفعله ولا نعيب من فعله[٢] .

وتناظر علي بن المديني ويحيى بن معين في مسجد الخيف حول مس الذكر وهل ينقض الوضوء؟ بحضور أحمد بن حنبل، وقال يحيى : يتوضأ منه، واحتج بحديث بُسرة بنت صفوان، واحتج علي بحديث قيس بن طَلْق وقوله صلى الله عليه وسلم « إنما هو بضعة منك»، ثم احتج يحيى بقول ابن عمر، واحتج علي بقول عمار، فقال أحمد : عمار وابن عمر استويا، فمن شاء أخذ بهذا، ومن شاء أخذ بهذا . [٣]

وذكر أبو داود في مسائله عن الإمام أحمد قال : قلت لأحمد : فرجل لا يرى من مس الذكر وضوءا، أصلي خلفه وقد علمت أنه مس؟ قال : نعم .

وقال ابن قدامة[٤] :

فأما المخالفون في الفروع كأصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي فالصلاة خلفهم صحيحة غير مكروهة، نص عليه أحمد؛ لأن الصحابة والتابعين ومن بعدهم لم يزل بعضهم يأتم ببعض، مع اختلافهم في الفروع، فكان ذلك إجماعا... فإن علم أنه يترك ركنا أو شرطا يعتقده المأموم دون الإمام، فظاهر كلام أحمد صحة الائتمام به .

---

(١) ترتيب التمهيد (٣/ ٣٤٥) نقلا عن (أدب الاختلاف) .
(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٠١) .
(٣) السنن الكبرى للبيهقي (١/ ١٣٦) باختصار .
(٤) المغني (٢/ ١٩١) .

قال الأثرم: سمعت أبا عبد الله يُسال عن رجل صلى بقوم وعليه جلود الثعالب؟

فقال: إن كان لبسه وهو يتأول « أيما إهاب دبغ فقد طهر». يصلَّى خلفه.

قيل له: أفتراه أنت جائزا؟

قال: لا، نحن لا نراه جائزا، ولكن إذا كان هو يتأول فلا بأس أن يصلى خلفه.

ثم قال أبو عبد الله (أي أحمد بن حنبل): لو أن رجلا لم ير الوضوء من الدم لم يصل خلفه!؟ ثم قال: نحن نرى الوضوء من الدم، فلا نصلي خلف سعيد بن المسيب ومالك ومن سهل في الدم!؟ أي بلى[1].

وفي التمهيد لابن عبد البر قال: (بعد أن ذكر قول الأئمة الثلاثة وغيرهم) في حكم من صلى الجمعة قبل الزوال:

كل هؤلاء يقول لا تجوز الجمعة قبل الزوال، ولا يخطب لها إلا بعد الزوال، وعلى هذا جمهور الفقهاء وأئمة الفتوى. وقد كان أحمد بن حنبل يقول: من صلاها قبل الزوال لم أعبه، وقال الأثرم: قلت له: يا أبا عبد الله ما ترى في صلاة الجمعة قبل زوال الشمس؟

فقال: فيها من الاختلاف ما قد علمت[2].

وقال الإمام أحمد: إنما ينبغي أن يؤمر الناس بالأمر البيِّن الذي لا شك فيه[3].

وهكذا ترى تسامحهم في المختلف فيه، ولا يرمون المخالف بالنبال والسهام الجارحة - بل القاتلة - كما يفعل بعض أتباعهم في عصرنا.

وكان أبو حنيفة يفتي بأن المزارعة لا تجوز، ثم يفرِّع على القول بجوازها، ويقول: إن الناس لا يأخذون بقولي في المنع، ولهذا صار صاحباه إلى القول بجوازها[4].

---

(١) أدب الاختلاف ص٣٧، ٣٨.
(٢) فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر (٤/ ٥٣).
(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٦٢). نقلا عن (أدب الاختلاف) ص٣٩.
(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٠/ ٨١).

ومذهب أبي حنيفة وأصحابه: الوضوء من خروج الدم، ورأى أبو يوسف هارون الرشيد احتجم وصلى ولم يتوضأ. وكان مالك أفتاه بأنه لا وضوء عليه إذا احتجم؛ وصلى أبو يوسف خلفه، ولم يعد الصلاة.

واغتسل أبو يوسف في الحمام، وصلى الجمعة، ثم أخبر بعد الصلاة: أنه كان في بئر الحمام فأرة ميتة، فلم يعد الصلاة، وقال نأخذ بقول إخواننا من أهل الحجاز: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث»[1].

ونقل عن الشافعي: أنه اشترى الباقلاء من منادي السكك، فأكل - وهو يرى حرمة الأكل من الباقلاء وغيرها مما تجب فيه الزكاة قبل إخراجها وقت الوجوب .. وأنه صلى بعد ما حلق، وعلى ثوبه شعر كثير، وكان وقتئذ يرى نجاسة الشعر على مذهبه القديم فقيل له في ذلك؟ فقال: حيث ابتلينا نأخذ بمذهب أهل العراق[2].

وقال المناوي: حكى الزركشي أن القاضي أبا الطيب (من الشافعية) أقيمت صلاة الجمعة، فهمّ بالتكبير، فزرق عليه طير، فقال: أنا حنبلي؛ فأحرم ولم يمنعه عمله بمذهبه تقليد المخالف عند الحاجة[3].

وقال ابن تيمية: ثم من المعلوم المتواتر عن سلف الأمة: أن بعضهم ما زال يصلي خلف بعض. . .، فما زال الشافعي وأمثاله يصلون خلف أهل المدينة، وهم لا يقرءون البسملة سرا ولا جهرا[4].

وقال أيضا: (مذهب أهل المدينة أن الإمام إذا صلى ناسيا لجنابته وحدثه، ثم علم أعاد هو ولم يعد المأموم، وهذا هو المأثور عن الخلفاء الراشدين كعمر وعثمان، وعند أبي حنيفة: يعيد الجميع، وقد ذكر ذلك رواية عن أحمد، والمنصوص المشهور عنه كقول مالك، وهو مذهب الشافعي.

---

(١) انظر: حجة الله البالغة للدهلوي (١/ ١٥٩) طبعة دار التراث بالقاهرة.
(٢) عمدة التحقيق في التقليد والتلفيق ص٩٣ للشيخ محمد الباني.
(٣) فيض القدير (١/ ٢١١) شرح حديث: «اختلاف أمتي رحمة».
(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٦٢).

واستخلف الخليفة أبا يوسف (صاحب أبي حنيفة) في صلاة الجمعة، فصلى بالناس، ثم ذكر أنه كان محدثا فأعاد، ولم يأمر الناس بالإعادة، فقيل له في ذلك، فقال: ربما ضاق علينا الشيء، فأخذنا بقول إخواننا المدنيين! مع أن صلاة الجمعة فيها خلاف كبير لكون الإمام شرطا فيها)[1].

إحالة المستفتي إلى المذهب الأيسر عند الحاجة:

ومما أثر من أدب السلف - رضي الله عنهم - أن يحيل أحدهم المستفتي إلى من يعلم أنه ييسر عليه في فتواه ولا يجد في ذلك حرجا، مادام العالم الآخر ثقة، غير متلاعب بالدين.

قال أبو بكر الخلال: أخبرني الحسين بن بشار المخرمي قال: سألت أحمد بن حنبل عن مسألة في الطلاق؟

فقال: إن فعل حنث.

فقلت: يا أبا عبد الله اكتب لي بخطك، فكتب لي في ظهر الرقعة (قال أبو عبد الله: إن فعل حنث).

قلت: يا أبا عبد الله، إن أفتاني إنسان؟ يعني: لا يحنث؟

فقال لي: تعرف حلقة المدنيين؟

قلت: نعم - وكانت للمدنيين حلقة عندنا في الرصافة في المسجد الجامع - فإن أفتوني حل؟

قال: نعم[2].

ترك بعض السنن لتأليف القلوب:

ومن دلائل تسامح السلف: أنهم أجازوا ترك بعض السنن والمستحبات في العبادات ونحوها، من أجل تأليف القلوب، وعملا بالحديث الشريف «بشروا ولا تنفروا». متفق عليه.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) طبقات الحنابلة (١/ ١٤٢)، روضة الناظر وجنة المناظر ص٢٠٧ .

عن عبد الرحمن بن يزيد قال:

كنا مع عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - بجمع (أي مزدلفة)، فلما دخل مسجد منى فقال: كم صلى أمير المؤمنين، قالوا: أربعا فصلى أربعا.

قال: فقلنا: ألم تحدثنا أن النبي ﷺ صلى ركعتين وأبا بكر صلى ركعتين؟!

فقال: بلى وأنا أحدثكم الآن، ولكن عثمان كان إماما، فما أخالفه، والخلاف شر [(١)].

وروي أن الإمام الشافعي - رحمه الله - ترك القنوت في صلاة الصبح لما صلى مع جماعة الحنفية في مسجد إمامهم ببغداد، على خلاف مذهبه. وفسروا ذلك بأنه فعله تأدبا مع الإمام أبي حنيفة، أو تألفا لقلوب أتباعه. وكلاهما من الأدب الرفيع.

وقال ابن عبد البر في التمهيد: سمعت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هاشم - رحمه الله - يقول: كان أبو إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم شيخنا يرفع يديه كلما خفض ورفع، على حديث ابن عمر في الموطأ، وكان أفضل من رأيت وأفقههم وأصحهم علما ودينا.

فقلت له: فلم لا ترفع أنت فنقتدي بك؟!

قال لي: لا أخالف رواية ابن القاسم، لأن الجماعة لدينا اليوم عليها، ومخالفة الجماعة فيما قد أبيح لنا ليس من شيم الأئمة [(٢)].

قال محمد بن رافع: كنت مع أحمد بن حنبل وإسحاق عند عبد الرزاق فجاءنا يوم الفطر، فخرجنا مع عبد الرزاق إلى المصلى ومعنا ناس كثير، فلما رجعنا من المصلى دعانا عبد الرزاق إلى الغداء، فقال عبد الرزاق لأحمد وإسحاق: رأيت اليوم منكما عجبا: لم تكبِّرا!

قال أحمد وإسحاق: يا أبا بكر، نحن كنا ننظر إليك: هل تكبر فنكبر؟ فلما رأيناك لم تكبر أمسكنا.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ١٤٤).

(٢) فتح البر في الترتيب الفقهي لابن عبد البر (٥/ ٥٤٤). نقلا عن (أدب الاختلاف) السابق ذكره.

قال: أنا كنت أنظر إليكما: هل تكبران فأكبر؟[1]

فانظر أدب الأكابر بعضهم مع بعض، ودع عنك الأصاغر الذين حرموا الأدب!

وقال شيخ الإسلام في إحدى فتاويه: (إذا اقتدى المأموم بمن يقنت في الفجر أو الوتر قنت معه، سواء قنت قبل الركوع أو بعده، وإن كان لا يقنت لم يقنت معه. ولو كان الإمام يرى استحباب شيء والمأمومون لا يستحبونه، فتركه لأجل الاتفاق والائتلاف كان قد أحسن).

ثم استدل ـ رحمه الله ـ بقول النبي ﷺ لعائشة «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت لهم الكعبة، ولألصقتها بأرض، ولجعلت لها بابين بابا يدخل الناس منه، وبابا يخرجون منه». فترك الأفضل عنده لئلا ينفر الناس.

وكذلك لو كان رجل يرى الجهر بالبسملة، فأم قوما لا يستحبونه أو بالعكس ووافقهم فقد أحسن[2].

وقال ـ رحمه الله ـ في موضع آخر من فتاويه:

ولذلك استحب الأئمة أحمد وغيره أن يدع الإمام ما هو عنده أفضل إذا كان فيه تأليف المأمومين..

فلو كان ممن يرى المخافتة بالبسملة أفضل أو الجهر بها، وكان المأمومون على خلاف رأيه، ففعل المفضول عنده، لمصلحة الموافقة والتأليف التي هي راجحة على مصلحة تلك الفضيلة كان جائزا حسنا. ا.هـ.

وقال ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٤٧):

قال ابن عقيل في (الفنون): لا ينبغي الخروج من عادات الناس إلا في الحرام، فإن الرسول ﷺ ترك الكعبة وقال: لولا حدثان قومك بالجاهلية..[3].

---

(١) تاريخ دمشق (٣٦/ ١٧٥)، وسير أعلام النبلاء (٩/ ٥٦٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٦٨).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٩٥).

وترك أحمد الركعتين قبل المغرب لإنكار الناس لهما، وذكر في (الفصول) عن الركعتين قبل المغرب: وفعل ذلك إمامنا أحمد ثم تركه واعتذر لتركه بأن قال: رأيت الناس لا يعرفونه.

ترك الإنكار على ما تعارف عليه أهل كل بلد:

ومن دلائل التسامح عند علماء السلف: تركهم الإنكار على ما تعارف عليه أهل كل بلد، مما توارثه الخلف عن السلف.

روى الدارمي بسنده عن حميد قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: لو جمعت الناس على شيء؟ فقال: ما يسرني أنهم لم يختلفوا. قال: ثم كتب إلى الآفاق أو الأمصار: ليقض كل قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم[1].

وهذا له أصل فيما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم.

فعن عبيدة السلماني قال: قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ اقضوا ما كنتم تقضون، فإني أكره الاختلاف حتى يكون للناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي[2].

وقد قال أحمد في رواية المروذي: لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه ولا يشدد عليهم.

وقال مهنا: سمعت أحمد يقول: من أراد أن يشرب هذا النبيذ يتبع فيه من شربه فليشربه وحده. اهـ.

وسئل أحمد عن رجل يصلي في مسجد وهو يشرب من النبيذ ما يسكر منها أيصلَّى خلفه؟ قال: إذا كان متأولا ولم يسكر فأرجو، فإن سكر لم يصلَّ خلفه[3].

قال: ونحن نروي عمن كان يشرب[4]. (أي يراهم ثقات يُروى عنهم الحديث ويؤخذ العلم).

---

(١) سنن الدارمي: (١/ ١٢٢) بتحقيق عبد الله هاشم اليماني.
(٢) تاريخ بغداد (٨/ ٤٢).
(٣) وهذا لأن الذين أجازوا شرب النبيذ لم يجيزوا منه ما يسكر.. فإذا وصل إلى حد السكر فقد أثم على مذهب المجيزين أنفسهم (القرضاوي).
(٤) مسائل الإمام أحمد لابن صالح (٢/ ١٤٩)، مسائل أبي داود ص٤٢، مسائل ابن هانئ (١/ ٩٥). عن أدب الاختلاف.

قال ابن الجنيد: سمعت يحيى بن معين يقول: تحريم النبيذ صحيح ولكن أقف ولا أحرمه، قد شربه قوم صالحون بأحاديث صحاح، وحرمه قوم صالحون بأحاديث صحاح[1].

ودخل أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وزهير بن حرب على خلف بن هشام يسألونه، فلما أرادوا الانصراف قال لأحمد: أي شيء تقول في هذا يا أبا عبد الله؟ لقنِّينة نبيذ كانت أمامه (وكانت الجارية تريد أخذها لما رأت قدومهم فقال لها: دعيها يرى الله عز وجل شيئا فأكتمه عن الناس؟).

قال أحمد: ليس ذاك إلي، ذاك إليك. قال: كيف؟ قال أحمد: قال النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» والرجل راع في منزله ومسئول عما فيه، وليس للخارج أن يغير على الداخل شيئا[2].

وسئل ابن تيمية عمن ولي أمرا من أمور المسلمين، ومذهبه لا يجوِّز شركة الأبدان، فهل يجوز له منع الناس؟

فأجاب: ليس له منع الناس من مثل ذلك ولا من نظائره مما يسوغ فيه الاجتهاد، وليس معه نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع، ولا ما هو في معنى ذلك.[3]. وأطال القول في بيان خطأ من فعل ذلك.

لا ترد شهادة المخالف في الفروع:

ومن هذا التسامح: أنهم لا يردون شهادة المخالف لهم في الفروع، في العبادات أم في المعاملات.

وذكر صاحب كشاف القناع في (باب رد الشهادة) أن من عمل من الفروع المختلف فيها عند الأئمة اختلافا شائعا، كمن تزوج بلا ولي، أو بلا شهود، أو شرب من النبيذ ما لا يسكر، أو أخر الزكاة، أو الحج متأولا، أو مقلدا لمن يرى

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٨٨).
(٢) طبقات الحنابلة (١/ ١٥٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٧٩، ٨٠).

حله، لم ترد شهادته، لأن الصحابة ـ رضي الله ـ عنهم كانوا يختلفون في الفروع، وقبلوا شهادة كل مخالف فيها، ولأنه اجتهاد سائغ، لا يفسق به المخالف، كالمتفق عليه[1].

ضرورة الألفة والأخوة بين العلماء والدعاة:

ومن الركائز الأساسية لفقه الاختلاف أو فقه الائتلاف: الحرص على إشاعة الألفة والأخوة بين المسلمين بعضهم وبعض، وتثبيت دعائمها، حتى ترسخ جذورها، وتبسق أغصانها، وتمتد فروعها وأراقها، وتؤتي ثمارها بإذن ربها.

وهذا مطلوب ومفروض بين المسلمين عامة، وبين علمائهم ودعاتهم خاصة، بوصفهم قادة الأمة في الفكر والعلم، وروادها في الدين والدعوة والأخلاق.

ومن أشد الأشياء خطرا على الأمة: أن يكون اختلاف علمائها في الرأي في المسائل الفروعية، سببا في التفرق والعداوة والبغضاء، ومدعاة للولاء والبراء، أو الحب والبغض، وهو خلاف ما عليه سلف الأمة، والربانيون من علمائها الأتقياء الأنقياء.

وقد ألف عالم حلب ومحدثها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـ رحمه الله ـ كتابا لطيفا سماه (رسالة الألفة بين المسلمين) وفيها: أمر الإسلام بالتوحيد والائتلاف، وحظره التنازع والتفرق عند الاختلاف، وقد اقتبسه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، كما ضمن كتابه رسالة للإمام الظاهري أبي محمد علي بن حزم في جواز الاقتداء بالمخالف في الفروع، وصلاة المسلمين بعضهم وراء بعض، وإن كان المأموم يعتقد أن إمامه قد أخل بشرط من شروط الصلاة في مذهبه هو، وسنحاول أن نقتبس من هذه الرسالة ومن تعليق الشيخ عليها ما نراه مهما للقارئ هنا.

قال الشيخ أبو غدة في بيان أهم الأفكار التي اشتملت عليها (رسالة الألفة):

(سيجد الطالب المنصف فيها أن التشدد والإنكار في الأمور الخلافية بين علماء الأمة وأئمتها، وجعلها أسباب الموالاة والمعاداة: أمر مرفوض في الشريعة.

---

(١) كشاف القناع: (٦/ ٣٤٢).

ويجد أيضا أن السنة لا تكون في جميع الأمور على وجه واحد فحسب، بل كثيرا ما تتعدد وجوه السنة، بحيث من اختار منها وجها غير ما اختاره الآخر، لا يُبدّع ولا يفسّق، ولا يضلّل ولا يكفّر، بإجماع الأئمة.

ويجد أيضا أن الخلاف في كل قليل وكثير لا يوجب الهجران أو المعاداة، وأن المسلم مأمور من جهة الشريعة بالحفاظ على الألفة والعصمة والموالاة، وأن مناط الولاء ومداره على الإيمان والإسلام، لا على غيرها من الأسماء، وقد قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»[1]. وأن المؤمن أخو المؤمن ولو اختلفا في الرأي والاجتهاد لإدراك الصواب.

ومن فهم هذه الحقائق وعمل بالإنصاف فقد - والله - فاز فوزا مبينا، وفقنا الله تعالى للاعتصام بحبله مجتمعين، وجمع شمل المسلمين، وسدد أحوالهم أجمعين، ووقاهم شر الفرقة والخلاف، وأنعم عليهم بنعمة الأخوة والائتلاف.

ثم نقل الشيخ فصلا من مجموع فتاوى ابن تيمية (في أن الائتلاف عماد الدين وأسه، والحض على حفاظ الألفة مع الاختلاف في الفروع وجزئيات العقائد)[2]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

اعلموا - رحمكم الله وجمع لنا ولكم خير الدنيا والآخرة - أن الله بعث محمدا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكان قد بعث إلى ذوي أهواء متفرقة، وقلوب متشتتة، وآراء متباينة، فجمع به الشمل، وألف به بين القلوب، وعصم به من كيد الشيطان.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١: ٤٩٦، في كتاب الصلاة (باب فضل استقبال القبلة). الذمة: العهد والأمان، والضمان والحرمة. وقوله: فلا تخفروا الله في ذمته. يقال في اللغة: أخفر العهد وبالعهد، وأخفر فلانا: نقض عهده وغدر به. فالمعنى: لا تنقضوا عهد الله وعهد رسوله لمن قام بذلك.

(٢) هذا الفصل من «مجموع الفتاوى» (٢٤: ١٧٠-١٧٦) في رسالة للشيخ ابن تيمية - رحمه الله تعالى - إلى أهل البحرين، حينما أرسلوا إليه وفدا للسؤال عن مسائل، واقتصرت هنا من تلك الرسالة على ما يأتي، لصلته بالموضوع. أبو غدة.

ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن هذا الأصل، وهو الجماعة، عماد لدينه. فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٧.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ تبيضُّ وجوه أهل السنة، وتسودُّ وجوه أهل البدعة.

فانظروا ـ رحمكم الله ـ كيف دعا إلى الجماعة، ونهى عن الفرقة، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام: ١٥٩. فبرأ نبيه ﷺ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا. كما نهانا عن التفرق والاختلاف بقوله: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ آل عمران: ١٠٥.

وقد كره النبي ﷺ من المجادلة ما يفضي إلى الاختلاف والتفرق، فخرج على قوم من أصحابه وهم يتجادلون في القدر، فكأنما فُقئ في وجهه حب الرُّمَّان، وقال: «أبهذا أمرتم؟! أم إلى هذا دعيتم؟! أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض».

قال عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ فما أغْبِط نفسي كما غبطتها، ألا

أكون في ذلك المجلس، روى هذا الحديث أبو داود في «سننه»[1] وغيره، وأصله في «الصحيحين»[2].

وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ النساء: ٥٩. وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة[3]. وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة والعصمة، وأخوة الدين.

نعم من خالف الكتاب المستبين، والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة ـ خلافا لا يعذر فيه[4] ـ فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع.

فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ قد خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة في أن محمدا ﷺ رأى ربه، وقالت: «من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»[5]. وجمهور الأمة على قول ابن عباس، مع أنهم لا يُبَدِّعون المانعين الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها[6].

---

(١) بل الحديث من زوائد ابن ماجه على الخمسة، رواه في مقدمة «سننه» (١/ ٣٣) (باب في القدر)، وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٥٣): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ١٧٨، ١٩٦) من هذا الوجه بزيادة في آخره.

(٢) ففي «صحيح مسلم» (١٦/ ٢١٨) في كتاب العلم (باب النهي عن اتباع متشابه القرآن...)، عن عبد الله بن عمرو قال: «هَجَّرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف في وجهه الغضب، فقال: إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب».
وفي «صحيح البخاري» (٩/ ١٠١) في كتاب فضائل القرآن (باب: اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم)، عن النزال بن سبره عن عبد الله: «أنه سمع رجلا يقرأ آية سمع النبي صلى الله عليه وسلم قرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: كلاكما محسن فاقرءوا، ـ قال الراوي ـ: وأكبر علمي قال: فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم».

(٣) لا مجاهلة، ولا تضليل ومشاقة!!

(٤) ما ألزم هذا القيد وأدقة؟!، والخلاف الذي لا يعذر فيه هو الخلاف بعد العلم ووضوح الحق.

(٥) رواه البخاري (١٣/ ٣٦١) في كتاب التوحيد (باب قول الله تعالى: عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا..)، ومسلم (٣/ ٨) في كتاب الإيمان (باب معنى قول الله عز وجل: ولقد رآه نزلة أخرى..).

(٦) وهؤلاء هم السلف المشهود لهم بالخير بقول النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا موقفهم: لا تبديع ولا تشنيع، ولا تضليل ولا تكفير، رضي الله عنهم، ما أفقههم!.

وكذلك أنكرت أن يكون الأموات يسمعون دعاء الحي، ولما قيل لها: إن النبي ﷺ قال[1]: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، فقالت: إنما قال: إنهم ليعلمون الآن أن ما قلت لهم حق[2]. ومع هذا فلا ريب أن الموتى يسمعون خفق النعال، كما ثبت عن رسول الله ﷺ[3]. وأم المؤمنين تأولت، والله يرضى عنها.

وكذلك معاوية نُقل عنه في أمر المعراج أنه قال: إنما كان بروحه، والناس على خلاف معاوية رضي الله عنه. ومثل هذا كثير.

وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كل ما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبق بين المسلمين عصمة ولا أخوة، ولقد كان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ سيدا المسلمين يتنازعان في أشياء لا يقصدان إلا الخير.

وقد قال النبي ﷺ يوم بني قريظة: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال قوم: لا نصلي إلا في بني قريظة، وفاتتهم العصر، وقال قوم: لم يرد منا تأخير الصلاة، فصلوا في الطريق، فلم يعب واحدا من الطائفتين. أخرجاه في الصحيحين، من حديث ابن عمر.

وهذا وإن كان في الأحكام، فما لم يكن من الأصول المهمة، فهو ملحق بالأحكام.

---

(١) قائما على قليب بدر الذي طرح فيه أربعة وعشرون رجلا من صناديد قريش ممن قتلوا في غزوة بدر، فجعل صلى الله عليه وسلم يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنك أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ قال الراوي: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا علي شيئا. رواه البخاري (٧/ ٣٠٠، ٣٠١) في كتاب المغازي (باب قتل أبي جهل)، ومسلم (١٧/ ٢٠٥-٢٠٧) في كتاب الجنة وصفة نعيمها (باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه..).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٣٠١) في كتاب المغازي (باب قتل أبي جهل).

(٣) فيما رواه البخاري (٣/ ٢٠٥) في كتاب الجنائز (باب الميت يسمع خفق النعال)، و (٣/ ٢٣٢) في كتاب الجنائز أيضا (باب ما جاء في عذاب القبر)، ومسلم (١٧/ ٢٠٣) في كتاب الجنة وصف نعيمها (باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه..).

وقد قال ﷺ: «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين!»، رواه أبو داود من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه(١).

وصح عنه أنه قال: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيصد هذا، ويصد هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام(٢).

نعم، صح عنه أنه هجر كعب بن مالك، وصاحبيه - رضي الله عنهم - لما تخلفوا عن غزوة تبوك، وظهرت معصيتهم، وخيف عليهم النفاق، فهجرهم وأمر المسلمين بهجرهم، حتى أمرهم باعتزال أزواجهم من غير طلاق خمسين ليلة، إلى أن نزلت توبتهم من السماء(٣).

وكذلك أمر عمر - رضي الله عنه - المسلمين بهجر صَبِيغ بن عسْل التميمي، لما رآه من الذين يتبعون ما تشابه من الكتاب، إلى أن مضى عليه حَول، وتبين صدقه في التوبة، فأمر المسلمين بمراجعته(٤).

فبهذا ونحوه رأى المسلمون أن يهجروا من ظهرت عليه علامات الزيغ من المظهرين للبدع، الداعين إليها، والمظهرين للكبائر، فأما من كان مستترا بمعصية أم مسرا لبدعة غير مكفرة، فإن هذا لا يهجر، وإنما يهجر الداعي إلى البدعة، إذ الهجر نوع من العقوبة، وإنما يعاقب من أظهر المعصية قولا أو عملا.

---

(١) روى أبو داود أول هذا الحديث عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه. وأما قوله: «لا أقول، تحلق الشعر..» فرواه الترمذي من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (١١/ ٢١) في كتاب الاستئذان (باب السلام للمعرفة وغير المعرفة) ومسلم (١٦/ ١١٧) في كتاب البر والصلة والآداب (باب تحريم الهجرة فوق ثلاثة أيام بلا عذر شرعي).

(٣) روى قصتهم بطولها البخاري (٨/ ١١٣) في كتاب المغازي (باب حديث كعب بن مالك، وقول الله عز وجل: وعلى الثلاثة الذين خلفوا)، ومسلم (١٧/ ٨٧) في كتاب التوبة (باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه).

(٤) رواه الدارمي في «سننه» (١/ ٥١) في المقدمة (باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع).

وأما من أظهر لنا خيرا فإنا نقبل علانيته، ونكلُ سريرته إلى الله تعالى، فإن غايته أن يكون بمنزلة المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقَبل علانيتهم، ويكل سريرتهم إلى الله، لما جاءوا إليه عام تبوك يحلفون ويعتذرون.

ولهذا كان الإمام أحمد وأكثر من قبله وبعده من الأئمة: كمالك وغيره، لا يقبلون رواية الداعي إلى بدعة، ولا يجالسونه، بخلاف الساكت، وقد أخرج أصحاب الصحيح عن جماعات ممن رُميَ ببدعة من الساكتين، ولم يخرجوا عن الدعاة إلى البدع [1].

والذي أوجب هذا الكلام أن وفدكم حدثونا بأشياء من الفرقة والاختلاف بينكم، حتى ذكروا: أن الأمر آل إلى قريب المقاتلة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والله هو المسئول أن يؤلف بين قلوبنا وقلوبكم، ويصلح ذات بيننا، ويهدينا سبل السلام، ويخرجنا من الظلمات إلى النور). انتهى.

(١) بل قد أخرجوا لبعض الدعاة أيضا، كما أخرج البخاري لعمران بن حطان من دعاة الخوارج، وفي المسألة تفصيل وبحوث تولت كتب مصطلح الحديث وأصول الفقه شرحها واستيعابها.

فهــرس الكتاب

رقم الايداع ٢٠٠٢/١١٨٧٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-09-0840-1

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الصحوة الإسلامية
من المراهقة إلى الرشد

لقد شابَ الصحوة الإسلامية المباركة بعض الشوائب، التي كدَّرت صفاءها، وشوَّشت عليها، وغبشت حقيقة جوهرها، وأساءت إلى سمعتها، مما اعتبرناه (أمراضا لهذه الصحوة) يجب أن تعالج ولا تترك، وأن تقوَّم ولا تهمل.

تجلى ذلك في مظاهر من الغلو والتطرف، ومن الاستعجال والانفعال، ومن الاشتغال بالشكل أكثر من الاشتغال بالجوهر، وبالمراء والجدل أكثر من العطاء والعمل، وبرز في بعض فصائلها ميل إلى التعصب والانغلاق، وإلى الجمود والتقليد، وإلى التعسير والتنفير، وإلى العاطفية والغوغائية، وإلى العناية بالفروع الجزئية بدل الأصول الكلية، وإلى الركون إلى العنف والنقمة، بدل الرفق والرحمة.

فكان على العلماء والدعاة والمفكرين والمربين: أن يبذلوا جهدهم لترشيد هذه الصحوة وتسديدها، والأخذ بيدها، حتى تستكمل مسيرتها، وتحقق غايتها، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وهذا ما شغلتُ به منذ نحو ثلث قرن، وأصدرتُ فيه عدة كتب، ثم هاأنذا أضيف إلى هذا الجهد: هذا الكتاب الذي سميته (الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد) راجيا أن يوفقني الله تبارك وتعالى لأسُدَّ به ثُغْرة، وأقوِّم به عوج وأحقِّق به هدفا، أعلِّم به جاهلا، أو أنبِّه به غافلا، أو أذكِّر به ناسيا، أو أشْ عزم متردد، أو أقوِّي به إرادة ضعيف.

يوسف القرضا





دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
e-mail:dar@shorouk.com